

القدس في كتب الرحلات الإسبانية

الدكتور عبد العزيز شبر

المؤلف : عبد العزيز شهبير
الكتاب : القدس في كتب الرحلات الإسبانية
رقم الإيداع القانوني : 2011MO0393
المطبعة : إمبريما مدري - شارع فاس حي المصلى - رقم 16 التوتة - تطوان
الهاتف : 0539.97.13.88 - الفاكس : 0539.97.07.13



إلى روح شيعي في علم الترجمة الدكتور عبد الله أجيلو رحمه الله
وفاء لذكرى زمن جميل

PRINTED IN MOROCCO



المهتدين



المهتدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مدخل

القدس مدينة ثابتة مُؤرَّخَةٌ، رسمت معالمها ومسارها في التاريخ من خلال ارتباطها بساكنتها أولاً، وانفتاحها على الطائرتين عليها من الحُجاج الذين شَدُّوا الرحال إليها باحثين عن سندٍ روحي ليس يتحقق إلا بين أزقتها الحجرية ومساجدها وصوامعها وكنائسها وأشجار زيتونها...

القدس شاهدة على التاريخ، هي مدينة مُؤرَّخَةٌ أحاطت بها المنجنيقات والمتاريس مرات عديدة، لكنها ظلت تنشدُ نشيد سلام رددته المآذن واهتزت له أغصان جبل الزيتون والنواقيس ومئات المزارات الشاهدة. إن الطابع الحربي الذي توحى به بناياتُ القدس وبواباتها وأسوارها، يَخْفُتُ حينما يرتفع آذان الصلاة لِيَمْلَأَ فضاء الحرم الشريف وما حوله، وحين يُلامسها صدى نواقيس الكنائس ويعانقها شذى جبل الزيتون في جلال ووقار.

لا مكان للجبابرة في القدس ؛ وكل الجبارين الذين راموا الإنفراد بها طَحَنَتْهُمْ رَحَى الحرب الذميمة لِتُسَلِّمَ القدسُ نفسها لنداء السلام من جديد.. هكذا تاريخ القدس ، إنها تأبى الانقسام ، تأبى أن يَغْلِبَ عليها جبار طاع ، أو يستأثر بها متعصبٌ أعماه التعصب و الدم.

القدس مدينةٌ صريحةٌ ؛ رفضت عبر تاريخها أن تبدوَ بزي غريب ، وهي مدينةٌ مُقاومةٌ ، أقسمت أن تحتفظ بذاكرتها الأصيلَةَ مُصانةً من أدنى تبديل أو تغيير.

وعلى الرغم من تسارع الأحداث في القدس في المائة والخمسين سنة الماضية ، ورغم محاولات مغتصبيها خلال الخمسين سنة الأخيرة الرامية إلى طمس معالمها بالتضييق على سكانها الشرعيين ، ونخر أساسات معالمها الإسلامية ، وهدم أحيائها ، ونش قبور موتاهها ، وتطويقها من كل الجوانب ، ظلت على عهدها القديم رافضة كل أشكال الاستكبار. إنها تُدرك أن لا معنى لها بدون قبة الصخرة ، وبدون الأقصى ، وبدون كنيسة القيامة ، وبدون زيتون جبل الزيتون وبدون كل مزارات أتباع الرسالات السماوية الثلاثة. إنها تدرك أن سياقها هو سياق الاعتراف بالحق في التعدد الثقافي والتنوع وعدم مصادرة حق أي طرف من أطراف فيفسائها المشكلة عبر عصور من اللقاء.

كُلُّ التغييرات التي حدثت في القدس خلال الستين سنة الأخيرة خلفت جروحا غائرة لن تلتئم ؛ ويصعب على القدس أن تنسى حارة المغاربة فيها ، يستحيل أن تنسى القدسُ محيي الدين الشامي والحاج قاسم الدراجي

وعبد الله قاسم الدراجي وحسن الجندوبي وزكرياء الزواوي وأحمد
أحميدة وفؤاد أحميدة ويحيى الزواوي وداود الزواوي وعلي محمد الزواوي
وعمر الجربي ومحمد عبد الجليل المغربي وعبد الجليل عابد المغربي وعبد
المنعم موسى قاسم ورمضان موسى قاسم وعبد الرحمن موسى قاسم
وأرملة عبد القادر عيسى وأحمد عطا الله ونعمة صالح وابن أحمد وأم حنا
شهاب وأسعد الأطرش وعدنان أقيبي وحمادة أبو عصب وعدنان أقيبي
وكمال الترايعيني ومحمود عرب وعبد السلام حسنين وصالحة محمد شرارة
وحربي الطيب وعيسى الطيب و خليل الطيب وزينب أرملة الدكالي والحاج
خليل اللبان وإسحاق خليل اللبان وإبراهيم بن صالح العاشوري ويسرى
المراكشي وإبراهيم الحصري ومحمد البيبي والشيخ إبراهيم كحوش وعلي
سعيد الزواوي والحاج علي الشاوي ومحمد الجودة وموسى غوش وصافية
علي رشيد ومحمد عبد الوهاب ووالدته وسعيد الفيلاي وصالح ذيب اللبان
ومحمد الزواوي وأحمد سلمان أبو غوش وعلي عطا النشة وجمعة الأحول
وإبراهيم الأحول ورشيدة المامون وعلي اللبان وإسماعيل اللبان وعبد
الخالص وأولاده وفرج الخالص وعمر الحاج عربي ومحمود الشاوي وفتحي
الحاج عرب وكاظم صالح التونسي ووالدة محمد سعيد الزواوي والحاج
صالح الطيب وعبد العزيز شحادة وفخري شحادة وعبد القادر حبيب
وفاطمة حبيب السباعي وعبد المجيد عويضة ومحمود الدراوي وزهرة ربيع
الحاج إبراهيم الدراوي وعبد الله المغربي ومحمد أحمد عبد السلام الفاسي
وأحمد عبد السلام الفاسي وحسن التواتي وأحمد عبد الله الجريدي وأرملته
وأحمد العدادي وعبد الرحمن السרגيني والحاج الفاطمي السفير المغربي

ومحمد عبد الحق وأرملته وحسن علي المغربي ووالدته ومحمد محمد المهدي
والشيخ محمد المهدي وعبد الرحيم اعيان والحاج يوسف علي والشيخ عبد
الغني الأطرش وفاطمة السباعي وأحمد التيجاني وصالح الدراجي ومحمد
بشير قاسم وموسى الدراجي وحسن الزهاني وزينب العربي وعلي الشاوي
وحمزة الشاوي وأخواته والشيخ حسن الحلفاوي ومحمود الزواوي ويحيى
محمد الشيخ ومحمد المختار الشنقيطي وموسى طه ومحمد طه وأرملة عبد
الدايم ومحمد عبد الغني الأطرش وإسماعيل المحسيري والحاجة نزهة أرملة
السرغيني وعبد القادر السرغيني وعيسى هاشم المغربي ووالدة عيسى هاشم
المغربي ومحمد علي التواتي ومحمود علي التواتي وعلي حسين المدية ولطفة
أنور ومحمود حسن المغربي وحسن محمود المغربي ومصباح أبو مهدي
وخديجة النايلي وسعيد الفرخ ومحمد أحمد سرحان وجميل الصالحي
ويوسف الصالحي وعيشة العداوي ومحمد المدبولي ومحمد روبين سالم
ومحمد المصلوحي وإبراهيم المصلوحي ومحمود المصلوحي وعبد السلام
الجبلي وأرملة أحمد المصلوحي وأرملة أحمد النايلي وأرملة علي صالح
المغربي وعبد الفتاح صالح زيدان وعبد الفتاح زيدان¹. ولكل من هؤلاء دور
ومنافع بحارة المغاربة هُدمت مساء يوم السبت العاشر من حزيران 1967....

يستحيل أن تنسى القدس كل هؤلاء وآخرين ممن فقدوا دورهم
وجوامعهم، أن تنسى المُخْرَجِينَ من ديارهم بحمي الشيخ جراح، أن تنسى أم

¹ - هذه الأسماء هي حسب الجرد الذي أعده متولي وقف المغاربة السيد محمد عبد الحق وقد ضمنه الأخ
الباحث الدكتور عبد الرحمن محمد حامد المغربي بحثه للدكتوراه حول "طائفة المغاربة في القدس الشريف
492هـ - 922 هـ الموافق 1099م - 1516م" بإشراف صديقنا المرحوم محمود عطا الله عميد كلية الآداب
بجامعة النجاح و د. سيدة إسماعيل كاشف، جامعة عين شمس، كلية البنات، قسم التاريخ. الملحق السابع من
البحث.

نبيل رفقة الكرد ، السيدة ذات السبعة والثمانين ربيعا ، يستحيل أن تنسى عائلة الغاوي ، وعائلة حنون ، وكلها أضحت تسكن خياما بعد أن أُخرجت من بيوتها الواقعة وسط القدس الشرقية. يستحيل أن تنسى القدس الصلحاء والمجاهدين ورجال العلم المنبوشة قبورهم عند سور القدس ، أن تنسى المبعدين من أبناء أرض المحشر والمنشر.

من هنا رأينا في هذا الكتاب التأكيد على أنه رغم ما حدث من تحولات فقد ظل في القدس جانب ثابت هو سر استمرار القدس واستمرار هويتها بين المقدسين داخل القدس أولا ، وبين المقدسين المهجرين ثانيا ، وبين كل المدركين لحقيقة القدس ورسالة السلام التي ارتبطت بها من مسلمين ومسيحيين ويهود.

نعم ، لقد صار عدد القاطنين بها من اليهود خياليا بالنسبة للماضي ، وغابت بعض معالمها ومعها جانب من تراث القدس ، لكن ، لا شيء في منطق القدس التاريخي تغير ؛ فأينما نبشت مطارق النابشين ينبجس أثر إسلامي أوبقية من أثر مسيحي. ويوما بعد يوم تبدو القدس رافضة أن تتزيى بغير زيها ، وهي تعكس ذلك من خلال الثابت فيها. إنها القدس المتعددة التي أنى تداخلت فيها مجالات العبادة واختلطت فيها ألسنة العباد ، تهفو حجرا وبشرا إلى "السلام".

وقد رأيت أن أعكس ذلك الجانب الثابت للقدس من خلال ما كتبه الرحالون الإسبان الذين زاروها تباعا. ولهذا الاختيار أسبابه :

منها علاقة الإسبان بالعالم العربي الإسلامي ؛ فقد عاشت إسبانيا في ظل الإسلام ثمانية قرون هي بدون جدال أزهى مراحلها التاريخية والثقافية ، وقُدمت من طرف أنصار (مسلسل السلام في الشرق الأوسط) خلال المرحلة الموطئة لـ (عملية السلام) نموذجاً لتعايش (ممكناً) بين المسلمين والمسيحيين واليهود.

ومنها أن إسبانيا - بلد هؤلاء الرحالين - شهدت في تاريخها أشرس موجات التعصب ضد المسلمين ، تُوجت بقرار طردهم منها ، فُبدلت الديار بغير الديار ، وطُمست المعالم ، وحُولت المساجد إلى كنائس ، وُنكل بمن بقي من المسلمين واليهود فيها في أشرس حرب وأشد ملاحقة للمخالفين.

ومنها كذلك أن علاقة إسبانيا والإسبان توطدت بالقدس خلال الحروب الصليبية ، وبعد استرجاع صلاح الدين للقدس تحولت بالنسبة إليهم إلى قضية محورية ؛ فَقَرَنَ مُلُوكُهُمْ أَسْمَاءَهُمْ بِهَا ، فتسمى فيليب الثالث مثلاً بملك القدس *Rey de Jerusalén*.

وقد تجلّى اهتمام الإسبان بالقدس في شيوع آداب في الإسبانية حول هيكل سليمان ، وهو الأمر الذي دفع الملوك الإسبان إلى بناء هياكل تجريبية للهيكل المُتَطَلَّع إليه ، مثل دير الإسكوريال². وازدهرت تلك الآداب المتعلقة

² - حول هذا الموضوع، يرجع إلى:

La imagen del templo de Jerusalén en la Nueva España, Martha Fernández; Volumen 52 de Colección de arte, UNAM, 2003

وانظر

El Escorial apocalíptico, o la Jerusalén celeste en la tierra. Cratofanía escatológica del último emperador, Antonio Martínez Ripoll, actas del simposium, El Monasterio del Escorial y la arquitectura, 8/11-IX-2002, coord. por Francisco Javier Campos y Fernández de Sevilla, 2002, P: 63-100

بالقدس وبالهيكل بعد حدث طرد المسلمين من الأندلس واكتشاف الأمريكتين وشيوع رغبة لم شمل شتات المسيحيين. ونتيجة لذلك ازداد عدد الحجاج إليها.

ووفرت كتب مثل "كتاب العجائب"³، وكتاب "رحلة إلى الأرض المقدسة"⁴، أوصافا للقدس وللأشياء المقدسة فيها مما ساعد على نشوء أدب خاص موضوعه القدس تجلى في أعمال مثل *Jerusalén conquistada*⁵ للوبي دي فيغا *Lope de vega*، وبعض المراثي مثل قصيدة "آه، يا يروساليم *Ay Iherusalem*"⁶، وكان لتلك الأعمال صدى في فنون أخرى مثل المسرح

وانظر في نفس المطبوع أي مؤتمر دير الإسكوريال والمعمار

Arquitecturas del Escorial y la senda de lo salomónico en España, David García López, P: 461-486

³- *Libro de Maravillas*, Joahan de Mandeville

نشر مترجما إلى اللغة الإسبانية في بلنسية سنة 1521م.

⁴- *Viaje de la Tierra Santa*, Bernard de Breidenbach

صدرت الترجمة الإسبانية لهذا الكتاب في سرقسطة سنة 1498م. وأعيد نشره بالفاسيميل مع تقديم لخايمي مول Jaime Moll تحت عنوان:

Bernardo de Breidenbach, Viaje de la Tierra santa, edición. Fassimil con introducción de Jaime Moll, Ministerio de Educación y Ciencia, Madrid 1974

⁵- *Iherusalem Conquistada, Epopeya Tragica*, Lope de Felis Vega Carpio, Madrid, Imprenta de Iuan de Ceuta, año 1609

⁶- حول هذه القصيدة أنظر

¡Ay Iherusalem!: planto narrativo del siglo XIII, Eugenio Asensio; NRFH (Nueva Revista de Filología Hispánica); vol XIV, 1960, P:251-270

وانظر

¡Ay, Jerusalem!, estrofa 22 "traductio" y tipología, Alan Deyrmond; en Estudios ofrecidos a Emilio Alarcos Llorach: (con motivo de sus XXV años de docencia en la Universidad de Oviedo); Universidad de Oviedo, 1976, P:283-290

وانظر

Antología de la literatura española, Bárbara Louise Mujica, Amanda Curry; edición John Wiley and Sons, 1991, P:26-28, 41-42

وانظر كذلك

حيث أضحت أورشليم - وبخاصة حدثٌ تحطيمها من طرف الرومان - موضوعاً مطروقا في الحملة التنصيرية التي أطلقها رجال الدين على ما سمي بحملة الغزو الروحي *Conquista espiritual*⁷ للعالم الجديد⁸.

وطال تأثير تلك الأعمال الأدبية "حول أورشليم" و"الأرض المقدسة" بشكل عام، الرسم والتشكيل أيضا، فبرز موضوع الأرض المقدسة وأعلامها في كثير من أعمال الرسامين الإسبان⁹ مثل بيدرو بيروغيتي *Pedro Berruguete* (عاش بين سنتي 1450 و1503) ورودريغو دي أوسونا *Rodrigo de Osona* (عاش بين سنتي 1450 و1503)¹⁰. واستمر استلهام الرسامين الإسبان لموضوع

Nuevas glosas al poema ¡Ay, Jerusalem!, Pedro Tena Tena, en: *Medioevo y literatura : actas del V Congreso de la Asociación Hispánica de Literatura Medieval* (Granada 1993), coordinación. Juan Salvador Paredes Núñez, Vol. 4, 1995, PP: 383-388.

⁷ - استعمل هذه العبارة بهذا المفهوم لأول مرة روبير ريكار Robert Ricard في أطروحته التي دافع عنها بجامعة السربون سنة 1933:

La conquista espiritual de México: ensayo sobre el apostolado y los métodos misioneros de las órdenes mendicantes en la Nueva España de 1523-1524 a 1572, Editorial Jus y Editorial Polis, México 1947

⁸ - انظر بهذه الخصوص:

Del texto literario a la representación popular sobre la conquista: La destrucción de Jerusalén, Arcil Varón Beatriz ; *Anales de Literatura Española*. N. 13 (1999)., pp. 29-40

وانظر كذلك

Jerusalén: el tema literario de cerco y destrucción por los romanos, Linda de Malkiel Maria Rosa ; Buenos Aires 1973.

⁹ - انظر

Los grabados del Viaje de la Tierra Santa (Zaragoza, 1498), Pedro Tena Tena ; *Boletín del Museo e Instituto Camón Aznar*, N° 81, 2000 , P: 219-242

وانظر

La imagen de Jerusalén en la pintura y escultura españolas de los siglos XV al XVII, Emilio Quintanilla; I CONGRESO INTERNACIONAL JERUSALÉN Y TOLEDO, «Historias de dos ciudades», Toledo, 11-13 de noviembre de 2009

¹⁰ - انظر

الأراضي المقدسة وأورشليم ليبلغ الذروة في القرن التاسع عشر في أعمال
فنانين مثل مونيوث ديغراين البلنسي *Antonio Muñoz Degraín* في *Las grutas de los profetas de Jerusalén* وهي نتيجة لرحلته إلى الشرق¹¹ و أوخينيو
لوكاس فيلاسكيس *Eugenio Lucas Velázquez* في "الصليبيون أمام أورشليم *Los cruzados ante Jerusalén*".

وتوالت كتب وصف القدس بالإسبانية، وتعددت، وتنوعت أحجامها
بينما كادت تلامس نفس الموضوعات؛ وصف الأرض المقدسة ووصف
بقاعها الأكثر اعتبارا عند المسيحيين. وهي موضوعات جعلت أولئك
الحجاج من فريلية وغيرهم يجتهدون في البحث عن خصوصية لكتاباتهم،
كما سنرى عند خوان إنثينا، ونقل تفاصيل الحياة الروحية لمدينة شاء الله أن
تكون حاضنة لفراخها بمعتقداتهم النابعة من الرسائل السماوية الثلاثة.

وبين وصف تفاصيل الحياة المسيحية في القدس العثمانية، وجدنا الرحالين
الإسبان وأولئك الوافدين من العالم الهسباني (إيبيريون وإيبيريو أمريكيين)
يدرجون أخبارا ذات قيمة عالية عن وضع الجاليات غير المسلمة في القدس
وحالة ساكنتها المسلمة والوضع المعماري فيها. كما أن تلك الرحلات
شكلت محطة هامة لكتابها في استرجاع الهوية المشرقية لرسالة المسيح. وقد

Imágenes y símbolos en la arquitectura pintada española (1470-1560), Ana Ávila;
Volumen 18 de Iconografía. Palabra Plástica Series, Anthropos Editorial, 1993,
P : 52-53.

¹¹ - انظر

El orientalismo en la pintura de Antonio Muñoz Degraín, Ramón García Alcaraz,
Generalitat Valenciana, 1997; PP 155.

وانظر

Les orientalistes de l'école espagnole, Eduardo Dizi, Vol 12 *Les Orientalistes*,
Caso ; acr-edition, 1997 ; P :188-192 .

صرح بعض أولئك الرحالين بما تسهم فيه زيارة الأماكن المقدسة في أورشليم في عملية استرجاع روحانية زمن المسيح عليه السلام. وحين كانوا يكتبون واصفين لأدق تفاصيل شعورهم وما خالج أنفسهم حين وقفوا على تلك المزارات، كانوا يتوجهون إلى كل العالم المسيحي ناقلين تجربتهم ومصرحين ضمناً بوجوب العودة إلى المنبع ونبذ الصراع الذي كان استشرى بين المذاهب المسيحية في أوروبا؛ وقد ركزت تلك الكتابات على صورة التعايش الذي كان بين المذاهب المسيحية في بيت المقدس، وبغض النظر عن بعض الخلافات الجزئية التي سجلوها أشاروا إلى أن كل الكنائس المسيحية حظيت بتمثيلية لها في المدينة المقدسة، وبعضها يقتسم الكنائس والمزارات.

ولعله من المفيد أن نقف على أهم تلك الكتابات الإسبانية ونتحدث عن معتمدياتها وفق تسلسل زمني لنعلم أن موضوع القدس في الكتابات الإسبانية وفي الرحلات بخاصة أضحي موضوعاً قائم الذات حرص بقدر تنوعه وتعدد أجناسه على رسم صورة القدس الروحية، القدس المتعددة القدس المؤرخة، القدس الحافظة لشذى الشرق وعقب الرسالات.

كتب الفريلي أنطونيو الأشبوني Fray Antonio de Lisboa دليلاً صغيراً سماه "رحلة إلى الشرق" *Viaje a Oriente*¹² سنة 1508 ووصف فيه الأماكن المسيحية المقدسة مسترشداً بالتوراة والإنجيل وكتاب "حروب اليهود" للمؤرخ اليهودي فلافيو يوسيفوس الذي شكل مرجعاً هاماً في الفضاء

¹² - *Viaje a Oriente*, Fray Antonio de Lisboa, edición A. Rodríguez Moñino, Diputación Provincial, Badajoz 1946 و نشره كذلك في Revista de Estudios Extremeños 5 (1949), pp. 31-103. Ms. 10883 وهو قطعة من مخطوط الخزانة الوطنية بمadrid.

الإسباني خاصة وأنه عُني بترجمته مبكراً في شبه الجزيرة الإيبيرية إلى اللاتينية والقطلانية والإسبانية¹³

وكتب الفريلي ديغو دي ميردا Fray Diego de Merida رحلته إلى القدس¹⁴ سنة 1512، وقد نحا فيه منحى سابقه الفريلي أنطونيو الأشبوني، وأفاض في وصف مدخل المدفن المقدس واجتهد في البحث عن بقايا الهيكل الثاني الذي حطمه الرومان، كما أشار إلى الإجراءات والتدابير التي يتعين على الحجاج إلى الأماكن المسيحية المقدسة اتخاذها وما ينبغي أن يوفره من أموال لأداء الضرائب والإتاوات للأتراك قصد الحصول على التراخيص اللازمة لزيارة الأرض المقدسة.

وكتب Antonio de Médina أنطونيو دي ميدينا y Tratado de los Misterios Estaciones de la Tierra Santa¹⁵. استطاع هذا الفريلي وهو من الآباء

¹³ - ترجم إلى اللغة القطلانية القديمة ونشر ببرشلونة سنة 1482 من طرف الناشر Nicholas Spindeler ونشر بإشبيلية باللغة الإسبانية سنة 1491 ونشر بعنوان Contra apión y Guerra Judía سنة 1492 بإشبيلية كذلك، ووصل عدد طبعاته بترجمات وتصويبات متعددة في إسبانيا 29 طبعة، ينظر مقال فيليبى سين

Felipe Sen, *Para una bibliografía crítica del estudio y ediciones de Flavio Josefo en España*, Gerión, N° 17 ; 1999 ; PP : 361-384. Servicio de Publicaciones ; Universidad Complutense Madrid

¹⁴ - *Viaje a Oriente*, Fray Diego de Mérida, edición A.Rodríguez Moñino, Balmesiana, Barcelona 1946 .

مخطوط الخزانة الوطنية بمدريد Ms. 10883 عني بدراسة وتحقيقه أ. رودريغز مونيينو

A. Rodríguez-Moñino, «*Viaje a Oriente*», *Analecta Sacra Tarraconensia* (1945), pp. 115-187; 1

¹⁵ - توجد نسخة مخطوطة من هذا الكتاب بخزانة جامعة برشلونة تحت رقم R. 54790 و طبع بسلامقة سنة 1573 عن دار Herederos de Juan de Canoca، وعن نشاطه وعلاقته بالحاج إنيغو لوبيث ينظر *El Fransiscano observante Antonio de Medina y el peregrino Iñigo López de Loyola*. Braulio Manzano Martín, *Revista Manresak* Vol 63.1991. P:259-268

الفرنسيين كان أن يعكس الإحساس العميق لكل حاج مسيحي صادق تقع عيناه لأول مرة على الأرض المقدسة. فبمجرد أن ينزل من المركب في مرفأ يافا يأخذ طريقه إلى أورشليم حيث طريق الآلام والمدفن المقدس ، ومنها سينتقل لزيارة باقي المزارات لكن التأثير سيبلغ مداه حين يقف على مياه نهر الأردن. ولم يخف الكاتب تسجيل اللوم على اليهود الذين لم يقبلوا المسيح ولم يستجيبوا لرسالته. ويبدو من الكتاب أن المؤلف كان شديد التعصب للمسيحية الكاثوليكية وهو ما جعله لا يتوانى في الهجوم على المخالفين.

أما خوان إثنينا *Juan del Encina* ¹⁶ فقد كتب رحلته شعرا وعنوانها *Tribagia o via sacra de Hierusalem* ¹⁷.

قام خوان إثنينا برحلته سنة 1519 ، ويوجد أصلها المخطوط بالخرزانة الوطنية بمديرية تحت رقم 17510 نشرت بهامش رحلة إنريكي ريبيرا *Enrique Ribera* في إشبيلية سنة 1580 وفي لشبونة سنة 1606 ونشرت بمديرية بعنوان *Pantaleon Viage y peregrinación que hizo y escribió* من طرف أثنار بانتليون

¹⁶ - عن خوان إثنينا وأثاره الشعرية أنظر

Ensayo de una biblioteca Española de Libros raros y curiosos, José León Sancho, Marcelino Méndez y Pelayo, Aureliano Fernández-Guerra y Orbe, Editor M. Rivadeneyra, 1866, Tomo II, P:811-919.

¹⁷ - انظر *Juan del ENCINA, Obras completas*, لبيريز بريغو M. A. PÉREZ PRIEGO نشرت هذه الأعمال الكاملة بمديرية سنة 1996، وكان A. M. RAMBALDO رامبالدو، الأعمال الكاملة من جديد قد نشر أعمالا كاملة لإثنينا بمديرية سنة 1977.

وعن الكتاب أنظر مقال الباحثة نيبيس براند Nieves Baranda ، *La Tribagia y otras peregrinaciones a Tierra Santa*، نشر في مجلة *Associação Hispânica de Literatura Medieval*، لشبونة، المجلد الرابع، سنة 1993، ص: 203-199.

وعن خوان إثنينا أنظر *Poet and Musician* لجلبيرت شاس Gilbert Chase، مجلة *Music and Letters*، وانظر *Juan del Encina* ، Brother Austin مجلة *Hispania* مجلد 39 عدد 2 ، ماي 1939 ص: 174-161

حدوثها.

يقول إنثينا في مستهل رحلته :

حانُ ثلثُ عامٍ تسعة عشر
بعد ألف وخمس فوق ما دُكر
أخيرا، وقتُ الجزاء قد حضر
واليوم طال والليل دنى وقصُر
جسمي وروحي من روما كلُّ يَصْطَـعِرُ
وقد أخذنا طريق سعيد السفر
يلبسُ ناسب الحاج المعتمر

...

وبعد أن أفاض في وصف الأماكن المقدسة وعبر عن الذي يختلج في نفس زائرهما، يختم قصيدته الطويلة بتعجب ألقى فيه باللائمة على الملوك المسيحيين الذين حسب رأيهم فرطوا في مقدسات المسيحية في أورشليم وجبل يهودا وبتانيا وبيت لحم و الأردن والناصره، وتركوها بقبضة كبير الأتراك وأتباعه ممن وصفهم بالوثنيين الأجلاف، بينما رزخ المسيحيون المقيمون فيها والحجاج إليها لإهاناتهم واستصغارهم. يقول إنثينا إن استرجاع أورشليم ممكن بقليل من الجهد لأن سكانها قليلون غُزِلَ وفقراء، وقليل من الناس إضافة إلى الحجاج يمكن أن يأخذونها.

لكنه يُراجع فيقول :

Jerusalén grande, según dicen todos;
Mas cierto no veo maneras ni modos
De grandes grandezas, de lo que haya estado
Y puedo ser bien haberlo causado
Las destrucciones, que en ella han venido;
Las cuales, sin duda, tan grandes han sido
....

فهو يصرح أن ما قاله عن إمكانية الاسترجاع مبنية على كونه كان يتحدث عن أورشليم الصغيرة التي كانت في الماضي، أما أورشليم التي شاهدها فهي كبيرة كما يقول الكل، وهو إذا لم يراها كبيرة فلأنه لم يحص فضاءاتها الكثيرة التي لم يبق منها حجر على حجر. يقول إنثينا، إنه حرص على ذكر كل المحطات التي زارها في الأرض المقدسة وشاهدها، وبالنسبة له، يعجز المرء على نقل كل مشاهد تلك البقاع، ولهذا سجل أن ريشته وقلمه لم يتغنيا إلا بما رأت عيناه، ولم يفعل ما أقدم عليه الكثيرون الذين نقلوا ما سمعوه. وربما كان نظمه رحلته شعرا تعبيراً عن إيمانه بوظيفة الشعر في التعبير عن ما يجيش في نفس صاحبه، وهو ما يجعل عمله خالصاً ومنفرداً. أفرغ إنثينا رحلته في مائتي أغنية، ومقدمات ثلاثة. وذيل رحلته بملخص

للرحلة سماه *Romance y Suma de Todo el Viage*.¹⁸

ودَوَّنَ المُرْكِيز *Fadrique Enrique de Ribera* مركز طريفة رحلته من إشبيلية

إلى القدس سنة 1519 وعنوانها :

*El viaje que yo don Fadrique Enriques de Ribera marqués de Tarifa hize a Jerusalem de todo y quantas cosas en él me pasaron desde que dalí de mi casa de Bornos miércoles veintequatro de noviembre de quinientos y diez y ocho hast aveinte de octubre de quinientos e veynte años que entré en Sevilla*¹⁹

¹⁸ - تقع بين صفحتي 101 و 119 من نشرة بانتاليون أثنار المذكورة أعلاه

¹⁹ - *Desde Sevilla a Jerusalén, Edición moderna de Joaquín González Moreno*
Sevilla, 1974

وكتب بيدرو دي أوريا *Pedro Manuel de Urrea* (عاش بين 1486-1529) كتابه "حج إلى القدس" *Perigrinación a Jerusalén* سنة 1523، كان دي أوريا شاعرا أراغونيا من عائلة أرستقراطية وقد مُنع هذا العمل من التداول²⁰ وورد في سجل هرناندو كولون ضمن لائحة الكتب الممنوعة²¹

وكتب إنيغو لوبي دي لويولا *Íñigo López de Loyola* (ولد بإسبانيا سنة 1491)، سيرة ذاتية *Autobiografía* ضمنها رحلته التي قام بها إلى القدس بين مارس وسبتمبر من سنة 1523، وقد ترجمت رحلته إلى لغات عديدة في القرن السابع عشر، بينما بقيت متداولة في نسختها المخطوطة إلى حدود القرن الثامن عشر²².

Paisajes de la tierra prometida : el viaje a Jerusalén de Don Fadrique Enriquez de Ribera marqués de Tarifa, Pedro Garcia Martín ; Madrid, Miragueno 2001 , 363 P.

²⁰ - انظر *A. Marquez* ، *Literatura e inquisición (1478-1834)*، مدريد، 1980 ص:233، وانظر *Género Literario y temas de penitencia de amor de Ximénez de Urrea*، لخيسوس مير بوبيس *Jesús Maire Bobes*، مجلة *Alazet*، مجلد 9، سنة 1997، ص:125-138

²¹ - انظر

Revisitando las culturas del siglo de oro: mentalidades, tradiciones culturales, creaciones paraliterarias y literarias, Augustin Redondo, Volumen 314 de Acta Salmanticensia. Estudios Filologicos, Universidad de Salamanca, 2007 , P :86

²² - انظر

The autobiography of St. Ignatius Loyola, with related documents, John C. Olin y Joseph F. O'Callaghan; Fordham Univ Press, 1992, PP :113

وانظر

Íñigo de Loyola, peregrino en Jerusalén (1523-1524): según la "Autobiografía" del santo, los tratados de los franciscanos Medina y Aranda y las monografías de Fussly, Hagen, el marqués de Tarifa y de otros peregrinos españoles y europeos, Braulio Manzano Martín; Volumen 91 de Historia (Ediciones Encuentro) 1995, 295

وانظر

وكتب الفريلي أنطونيو دي أرندا Fray Antonio de Aranda وهو أحد
الفريلية الإسبان الفرنسيين عن الفترة التي قضاها حاجا بين سنتي 1529
و1530 كتابه *Verdadera información de la Tierra Sancta según la disposición en*
*que en el año de mil quinientos treynta el auctor la vio y passeo*²³ وقد أعيد
طبعه خمس مرات بين سنتي 1533 و1551 مما يدل على القبول الذي لقيه في
فضائه الإسباني سيما وأن المؤلف أشار في توجيه خاص للقارئ عَنَوْنَه *Al*
Prudente y Sabio lector (إلى القارئ الحذر والعالم) قائلا: "أردت أن أنبه
خاصة إلى ما رأيته، وقضيته وزرته في تلك الأرض المقدسة".

كان أرندا يعيش في دير المدفن المقدس بالقدس، وصف الأراضي المقدسة
وفق العهدين العتيق والجديد وما كتبه القديس أوغسطين وفلافيو
يوسيفوس، وقد قام بوصف جغرافية تلك الأراضي مقارنة بإياها بما يشبهها
من جغرافية إسبانيا، ووصف الحياة اليومية بالقدس والتجمعات الدينية وما
بينها من تآلف كما تحدث عن الاتفاقيات التي تمكنت الدول الأوروبية

El peregrino: autobiografía de San Ignacio de Loyola, Introducción, notas y cometario, Joseph Maria Rambla Blanch, 5ta edición, ediciones Mensajero y ediciones Sal Terrae, 1996, P:151

وانظر

San Ignacio de Loyola, Obras, ediciones y estudios, Ignacio Iparraguirre, Madrid 1997, pp :73-177

²³ - نشر للمرة الأولى في Alcalá في Casa de Miguel de Eguía سنة 1533 وأعيد طبعه بطلبلة في Casa de Juan Ferrer سنة 1550

توقيعها مع الأتراك العثمانيين لتسهيل الحج لمن يرغب في ذلك من المسيحيين.²⁴

وكتب بيدرو دي إسكوبار كايثا دي باكا²⁵ *Pedro escobar Cabeza de Vaca* شعرا *Luzero de la Tierra Sancta y grandezas de Egypto y Monte de Sinay* طبع ببلد الوليد *Valladolid*²⁶. قال في تمهيد رحلته :

"وخطر كبير آخر أن نفهم عدم الإقبال على التواريخ المكتوبة نثرا في زماننا، سيما حين لا تكون لها طراوة وعذوبة وحسن تخطيط تُلزم بقراءتها في كل أسلوب. إن الأذواق تنفر مما هو نثر؛ وحين يصدر كتاب نثرا، إذا كان عن الحرب سموه كتاب فروسية، وإذا كان كتاب عبادة سموه كتابا وعظيا، وإذا كان في التاريخ أو عرض لحياة قديس ما أو كان خطابا تأمليا من دون أن يخلط بين خيالات خرافية، جعلوا له اسم *Flos-Sanctotum* (حكاية منقبية لقديس ما). وحتى أخلص نفسي من هذه المخاطرة أو تلك، رأيت أن ألتمس الوسط بين الطرفين، فكتبت (رحلتي) بشعر مُطلق".

كان بيدرو دي إسكوبار كايثا دي باكا من فرسان الهيكل، سافر مع مرافق تركي إلى الشرق وأبان اهتماما خاصا بالاتفاقيات الدبلوماسية والاقتصادية بين الكاثوليك والمسلمين، وأشار إلى الضيق الذي كان عليه

²⁴ - *Tierra Santa y el nuevo mundo durante el imperio otomano, Viaje a través de los testimonios de autores españoles, portugueses y latinoamericanos*, Jaime Krejner, Margarita Wolmanj Krejner ; Argentina 2007 ; P : 27

²⁵ - عن بيدرو دي كايثا دي باكا انظر

Ensayo de una biblioteca Española de Libros raros y curiosos, José León Sancho, Marcelino Méndez y Pelayo, Aureliano Fernández-Guerra y Orbe, Editor M.Rivadeneyra, 1866, Tomo II, P:946-948.

²⁶ - Valladolid 1587, Canto XVII, fols 134-139 Cases Bernardino de Santo Domingo,

القساوسة في القدس جراء الضرائب الكبيرة التي فرضتها عليهم السلطات العثمانية، وأوصى الحجاج التزود بالمال الوفير قبل الحج إلى البقاع المقدسة ليتمكنوا من دعم عمل القساوسة فيها، وقد وصف وصوله إلى القدس قائلا :

حين أهلت أورشليم
في هذا العهد الجديد قانون الرحمة
تعينت رؤية الصورة
صورة العهد الأول والعهد الأقدم
رأيت الأماكن المقدسة العجيبة
رأيت عظمة الرب الإنسان
حين تجلى من قوته في قدرته
والحب الذي كان للموتى
الآن توهب لي هاذي الأماكن
في هذا الجبل الشامخ
حيث أظهر الرب عجائبه
ربا قادرا وديعا وعادلا²⁷.

²⁷ - أنظر النص الإسباني في

Tierra Santa y el nuevo mundo durante el imperio otomano, Viaje a través de los testimonios de autores españoles, portugueses y latinoamericanos, Jaime Krejner, Margarita Wolmanj Krejner ; Argentina 2007 ; P :30-31

أما فرانشيسكو غريرو *Francisco Guerreo* (ولد بإشبيلية سنة 1528 ومات بها سنة 1599) فقد زار القدس بين 14 غشت 1588 و19 يناير 1589 ودون رحلته تحت عنوان: *Viaje a Jerusalén* طبعت سنة 1603 في بلنسية، كما صدرت بهامش كتاب *La Breve descripción de la ciudad de Jerusalén y lugares circunvecinos* لكريستيان أدريكوميو دلفو *Cristián Adricomio Delfo* صدرت بترجمة مجهول²⁸.

أما الفريلي بلاس بويثا *Fray Blas Buyza* فقد كتب سنة 1622

*Relación nueva, verdadera y copiosa de los Sagrados lugares de Jerusalén y Tierra Santa, de las misericordias divinas que en ellos resplandecen, de los muchos trabajos y aflicciones que por conservarlos en piedad cristiana padecen los religiosos del seráfico padre San Francisco que los habitan y de los grandes gastos que tienen con los turcos.*²⁹

وكان مكلفا بتموين الكنائس والأديرة التابعة لسلك الآباء الفرنسيسكان، وألف كتابه المذكور طالبا المساعدة من ملك إسبانيا، وقد وصف حال القدس في تلك الفتة ووصف الششط الذي كان يمارسه بعض أعوان العثمانيين هناك.

كتب الفريلي بلاس بويثا في الخامس عشر من غشت 1621 رسالة إلى ملك إسبانيا قائلا:

²⁸ - مدريد المطبعة الملكية

²⁹ - طبع بمدريد، من طرف أرملة ألفونسو مارتين، سنة 1622

"في مناسبتين اثنتين، أرسلني رؤسائي إلى الأرض المقدسة لإيصال الصدقات التي تفضلت بها سماحة سيدنا الملك الذي في السماء أبو جلالتكم، وصدقات ممالكه، وقد سمحت تلك الهبات في المحافظة على البقاع المقدسة وترميمها. وحرصت بخشوع عجيب وعناية خاصة أن أسجل كل ما يجري هناك لأحيط جلالتكم باعتباري من رعاياكم بالحالة الراهنة للأماكن المقدسة وأختصر ذلك في تقرير أقدمه لجلالتكم... ولم تتوقف جلالتكم عن حراسة ومساعدة البقاع المقدسة. وأنا وإن كنت أشرت في هذا التقرير إلى أشياء لا تبدو ضرورية في هذا الشأن، فإنني أرجو من حلم جلالتكم بأن تنظروا إليها بكرم عنايتكم التي أبديتموها دائما لهذه الأماكن المقدسة"³⁰

وقد قدم الفريلي بلاس بويثا جردا بمصاريف البقاع المقدسة في القدس ومصاريف الفريلية والضرائب المقدمة للأتراك والفوائد والرسوم التي يحصلها أولئك من مداخيل تلك البقاع. كما قدم بتفصيل ما يُصرف على الأديرة لاقتناء مواد ضرورية مثل السكر والشمع والدقيق والخمر والزيت والخطب، وما يصرف على التراجمة، وما يُقدَّم من مساعدات للحجاج الفقراء. وأورد في نهاية كتابه فصلا كاملا بالإصلاحات الواجب القيام بها للحفاظ على الأماكن المقدسة المسيحية في القدس؛ مثلا في حديثه عن وجوب إصلاح كنيسة مدفن السيدة العذراء الواقعة على جانب وادي يهوشفاط، ذكر أنها بفعل الخرائب التي تجرفها مياه المطر من جبل الزيتون أضحى جانب من هذه الكنيسة مدفونا تحت الأنقاض، و الإصلاح اللازم لهذه البناية ينبغي أن يضع في اعتباره تحويل مجرى المياه في الفصل المطير،

³⁰ - أنظر الرسالة في مقدمة الكتاب بعد تراخيص الطبع.

والحيلولة دون اقتحامها لباب الكنيسة وأجزاء أخرى منها. كما دعا إلى وجوب القيام بأشغال تؤمن لنفس البناية مزيدا من الضوء.

وختم تقريره بالقول :

"وهذا ما يمكن أن أقوله كتابة عن الأمور المتعلقة بالأرض المقدسة ، ويبدو لي أنني قد أدت المهمة التي كلفت بها من طرف رؤسائي ، وقد قمت بأشياء غاية في الأهمية في المناسبتين المذكورتين اللتين زرت فيهما تلك البقاع. والحمد كله للرب سيدنا.. وأرجو أن يذكرني في صلواته كل من قرأ هذا التقرير".

وكتب الفريلي أنطونيو ديل كاستيو ³¹ Fray Antonio del Castillo كتابه *El devoto peregrino viaje de Tierra Santa*، نشر بمديرية سنة 1656، ويعد هذا العمل أكثر الأعمال الإسبانية حول القدس انتشارا ، وقد اعتُبر دليلا واصفا لها ، وأعيد طبعه أزيد من ثلاثين مرة.

استقر القس أنطونيو ديل كاستيو في القدس مدة سبع سنوات ، وأفاض في وصف الأماكن المقدسة واصفا العلاقات التي كانت بين الجماعات الدينية المسيحية في القدس. ومثل أنطونيو دي أراندا ، جعل ديل كاستيو تمهيدا

³¹ - مكث الفريلي أنطونيو ديل كاستيو سبع سنين في الأراضي المقدسة، وعين مراقبا عاما في القدس ثم أبا وصيا في بيت لحم، نشرت رحلته بمديرية في المطبعة الملكية سنة 1654، وأعيد طبعها بمديرية في سنوات 1656 و 1663 و 1664 و 1665 و 1666 و 1705 و 1742 و 1769 و 1781 و 1806 و 1864، وطُبعت بطليلة سنة 1660، وفي باريس 1664 وفي غرناطة 1700، وفي برشلونة سنوات 1710 و 1719 و 1722 و 1737 و 1780 و 1850، وطُبعت في خيرونة سنة 1730 و 1755، وطُبعت كذلك في طرغونة سنة 1759، كما أعيد طبعها بها بدون تاريخ،

انظر الهامش 17 من كتاب الباحث خوسيه أنطونيو غونزاليث الكانتود عن الاشتراق من الجنوب:

Orientalismo desde el Sur, José Antonio González Alcantud; (Volumen 156 de Pensamiento crítico/pensamiento utópico), Anthropos Editorial, Consejería de Cultura, Sevilla, 2006, P:196.

لرحلته وجهه للقارئ بناء على التأكيد أنه نقل بدقة ما رآه بلغة في متناول الجميع، يقول:

"كتب الكثيرون برغبات طيبة رحلات لأورشليم، وكانت أقلامهم (مع استثناء البعض) رائقة جدا، لكنها لم تكن حقيقية، وقد نبعت من ثقتهم سيما وأنهم مروا من تلك البلاد بسرعة كما الحجاج الذين يصدقون كل المعلومات التي تُقدم لهم وإن كانت تافهة. أما المستقرون في تلك البلاد، فيعرفون الحقيقة ويطبعون عملهم بثقة تُرغَّب في تصديقهم.

كثيرون هم الذين عاشوا سنوات بأورشليم، لكن قليلون هم فقط الذين سمحت لهم الفرصة أن يروا كل فضاءاتها. وأنا كنت هناك مرة واحدة بفضل الرب بمناسبة أتاحتها لي أشغال الدين؛ فكنت نائبا للوصي على تلك البقاع المقدسة. وقد رأيت ولاحظت وكتبت بترو كل ما بدا لي مهما لإعداد هذا الكتاب مقارنا كتب الرحلات وكتابات آخرين، مسجلا بدقة كل تفصيل. وكتبت هذه الرحلة بعد أن خيب البعض الأمل، وبخشوع طابقت أخبارهم بصور البقاع المقدسة المشار إليها بكثرة. كتبت ببساطة الذي رأيته حتى لا تضطر أيها القارئ المسيحي إلى معاودة تمحيص ما تقرأه، ولكن لتمضي بورع معتبرا كلماتي، فرما قررت رؤية تلك الأرض المقدسة وربما يلهمك الرب لزيارتها بخشوع..."³²

³² - انظر رحلة الفريلي أنطونيو ديل كاستيو المشار إليها أعلاه، طبعة خوسيه رودريغيز، المطبعة الملكية مدريد 1705.

أما الفريلي أوخينيوي دي سان فرانسيسكو Fray Eugenio de San Francisco

فقد ألف ³³ Itinerario a Jerusalén 1703-1704 وركز فيه بشكل خاص على وصف قيمة الخدمات المقدمة في الأماكن المقدسة بالقدس مقارنة بإياها بما يقدم في أماكن أخرى من العالم الكاثوليكي.

إضافة إلى أولئك اشتهرت أعمال كتاب من البلدان الناطقة بالإسبانية كتبت عن القدس ودونت رحلاتهم مثل أعمال المكسيكيين الأربعة: خوسيه مريا كوثمان Fray José María Guzman ³⁴ ومانويل كاريو Manuel Carpio ³⁵ وخوسيه لوبيث بورتيو إي روخاس José Lopez Portillo y Rojas ³⁶

³³ - انظر

Missionari francescani: sintesi storica bio-bibliografica con sommario geografico-cronologico, (Número 5 de Cattedra Bernardiniana L'Aquila), Benedetto Fedele, segunda edición, Curia provinciale S. Bernardino, 1966; p:220

³⁴ - زار القدس سنة 1835، ونشرت رحلاته مرات عديدة بالمكسيك وإسبانيا بعد سنة من وقوعها.

Breve y sencilla narración del viaje que hizo a visitar los santos lugares de Jerusalén, Fray José María ; México, Imprenta. de Abadiano, 1837.

³⁵ - نشر هذا الشاعر كتابا سنة 1832 عن الأراضي المقدسة جمع فيه جملة من نصوص رحالين زاروا القدس وفلسطين من شاتوبريان ولامارتين وخوسيه ماري غوثمان وغيرهم وكتب مقدمة له هي بمثابة رحلة له متخيلة

La Tierra Santa, o descripción exacta de Joppe, Nazareth, Belén, el Monte de los Olivos, Jerusalén y otros lugares célebres en el Evangelio. A lo que se agrega una noticia sobre otros sitios notables en la historia del pueblo hebreo, Carpio, Manuel ; edición Mariano Galván Rivera, Librería de Recio y Altamirano, 1842

وحول هذه الرحلة انظر:

Nuevos viajes extraordinarios, Vicente Quirarte, Colección Aguamarina Series, Secretaría de Cultura Puebla, 2004, P:111

وانظر

Obras: Tomo I; Opusculos Varios, Jos Bernardo Couto ; Biblio Bazaar, LLC, 2009, P:347-349

كما نظم جملة من القصائد جعل موضوع كل واحدة منها مكان من البقاع المقدسة المسيحية وظف فيها ما قرأه في كتب الرحالين المذكورين وأفرغ على كل ذلك من خياله ببلاغة عالية. من تلك القصائد رائعته Toma de Jerusalén انظر:

و لويس ملانكو Luis Malanco³⁷ والكلومبي دومينغو أروسمينا كيساندا
Domingo Arosemena Quesada³⁸ ، والغواتيمالي إنريكي كوميث كاريو
Enrique Gómez Carrillo³⁹ إضافة إلى الأورغواي ماريو سولير Mario Soler⁴⁰
والفينيزويلي رفائيل نوغاليس مهندس Rafael de Nogales Méndez⁴¹ والبيروفي

Poesía, Manuel Carpio ; Volumen 23 de Colección UV Rescate Series, edición Fernando Tola de Habich, Universidad Veracruzana, 1849, P:36 y 152-157

يقول في أولها:

*Sentada sobre estériles arenas
Está Jerusalén como un coloso,
Cercada de trinchera y de ancho foso
Y de muros altísimos y almenas*

³⁶- *Egipto y Palestina; apuntes de viaje*, José López-Portillo y Rojas ; Edición Díaz de Leon y White, 1874

وعن المؤلف وأثره انظر:

Obras en prosa, Bernardo Ortiz de Montellano ; Instituto de Investigaciones Filológicas, Universidad Nacional Autónoma de México, primera edición, 1988, P:383-384

³⁷- *Viaje a Oriente*, Luis Malanco ; Agrícola Comercial, 1882 y 1883

وعن المؤلف ورحلته انظر:

Viajeros mexicanos siglos XIX y XX, compilado por Felipe Teixidor, Ediciones Letras de México, 1939, P:12

وعنه وعن بلدييه خوسيه ماريّا عثمان وخوسيه لوبيث بورتيو إي روخاس انظر:

Jerusalén a la vista: tres viajeros mexicanos en Tierra Santa, José María Guzmán, José López-Portillo y Rojas, Luis Malanco, edición Vicente Quirarte ; Instituto Mexiquense de Cultura, 2003, Toluca, México.

³⁸- *Sensaciones en Oriente, ó Impresiones bíblicas de un granadino en la Tierra santa*, Domingo Arosemena Quesada, Nueva York, Imprenta de Robert Craighead, 1859.

³⁹- *Jerusalén y la Tierra Santa*, Enrique Gómez Carrillo, L. Michaud (Paris), 1914

وعن سيرة وأثر غوميس كاريو انظر:

Biografías de siete grandes escritores guatemalteco, Mario Alberto Carrera ; Librerías Artemis Edinter, 1997, P:49-55

⁴⁰- *Viaje por los países bíblicos. Excursión al través de la península Sináitica, de la Arabia Petrea y Desierta de la Filistea y del país de Moab*, Mariano Delmiro Encarnación Soler, Tipografía . Uruguaya de M. Martinez, Montevideo, 1897

⁴¹- *Cuatro años bajo la media luna*, Rafael de Nogalés Méndez; Editora Internacional, Madrid Berlin Buenos Aires - 1924 , reimprimido Colección Trazos y testimonios, editorial El Perro y la Rana, 2006.

لقد كانت نظرة الإسبان والناطقين بالإسبانية إلى القدس مختلفة شيئاً ما عن غيرهم من الأوروبيين ، فلما كانت ثقافتهم فيها من ربح الشرق الذي ترسخ بالأندلس ثمانية قرون ، فقد وصفوا القدس كشرق هم جزء منه ، غير مغايرين له تمام الغيرية ، ولما كانت ديانتهم المسيحية تنفست في عرصات القدس ، فقد اجتهدوا في أن يحملوا إلى قراء رحلاتهم ذلك العبق بأوضح صورة ، خاصة وأنهم يخبرون مكانة القدس في بلدهم وتعلق أهلهم بها .

من هنا كان اختيارنا لرحلات الرحالين الهسبان ⁴⁴ مصدرا لرصد الثابت في القدس ، ثم لتبيان التحولات التي طرأت على هذه المدينة المقدسة . وكان علينا في مرحلة أولى أن نقف على أعمال هؤلاء الرحالين الذين زاروا هذه المدينة العظيمة المكانة عند أتباع الرسالات الثلاث .

وقد قسمنا هذا الكتاب إلى قسمين :

⁴² - *Tierra Santa*, Rómulo Cúneo Vidal ; Casa Editorial Maucci, Barcelona, 1924.

⁴³ - *Viaje hacia el oriente*, Inés Echeverría de Larrain, imprenta Universitaria, Santiago de Chile, 1905.

وعن هذه الكاتبة انظر

Historia de las ideas y de la cultura en Chile, el centenario y las vanguardias, Volumen 3, Bernardo Subercaseaux, editorial Universitaria, imagen de Chile, Primera edición; Santiago de Chile, 2004, P:49-55

وانظر

Escritoras chilenas, Tercer Volumen, Novela y Cuento, Marcela prado Traverso, Patricia Rubio, Editorial Cuarto Propio, Primera edición, Chile, octubre 1999, P: 43-66

⁴⁴ - استعملت هذه الكلمة لتكون جامعة للرحالين من شبه الجزيرة الإيبيرية وأمريكا اللاتينية الناطقين بالإسبانية.

أما القسم الأول فتحدثنا فيه عن القدس باعتبارها شرقا مختلفا عن الشرق، وكيف نظر الهسبان إلى هذه المدينة المقدسة انطلاقا مما اخترنته الذاكرة الإسبانية حولها خلال عهود طويلة. كما عرضنا بعض التحولات التي طالت هذه المدينة المقدسة، وركزنا هنا على ما استرعى انتباه هؤلاء الرحالين، ولم نرد الاستطراد في سرد التواريخ وتفاصيل الأحداث لأن ذلك مما يوجد في أغلب ما كتب عن القدس خاصة في الفترة المعاصرة بشكل مفصل. و رأينا أن ما أشار إليه هؤلاء الرحالون من تحولات وأحداث هي عميقة الدلالة وإلا لما كانوا وقفوا عليها. وقدمنا في القسم الثاني جملة من النصوص نقلناها من الإسبانية إلى العربية، حتى يقف القارئ العربي على نماذج من هذه الرحلات الإسبانية وتنجلي له مقاصد هذا الكتاب بشكل أوفى.

واجتهدنا في أن تكون النصوص المختارة للترجمة من فترات متقاربة ليتمكن القارئ الكريم من الوقوف على كيف أضحت "أورشليم" موضوعا مطروحا بالحاح في الآداب الهسبانية وكيف ارتبطت بصيحات ضرورة الرجوع إلى الجذور المسيحية لبناء الهوية الدينية لإسبانيا وأمريكا اللاتينية. والجدير بالذكر أن الأندلس والقدس اقترنتا في مشروع الكنيسة الكاثوليكية منذ عهد البابا الاسكندر الثاني، فهو الذي أعلن الحرب الصليبية ضد المسلمين في الأندلس عند مقتل راميرو الأول ملك أراغون في غرادوس، ووجهت الحرب بعد ذلك إلى القدس حينما أخذت تلوح بشائر نجاح مشروع "الاسترداد" في شبه الجزيرة الإيبيرية، ثم عُول على موضوع تحرير أورشليم وإخضاعها للمسيحية في تأجيج رغبة المسيحيين للاجتماع على

شعور جامع. وقد اجتهدت الكنيسة الكاثوليكية بوجه الخصوص على إحياء القدس التوراتية في نفوس أتباعها من خلال الاستنفار من أجل تحرير القدس الأسيرة، كما وُظف الحنين إلى أورشليم، مهد المسيحية، في بلورة مشروع روحي في أمريكا اللاتينية التي عاشت ولفترات طويلة صراعا بين الكاثوليك والبروتستانت، كما عاشت أجزاء منها لمدة تحت تأثير فكر السيستانية الذي جعل الجماهير المسيحية تنتظر المخلص المنقذ بعد أن تعرضت المسيحية لنكبة كبيرة في معركة وادي المخازن التي قضى فيها سيستيان ملك البرتغال ومعه ثلثة من نبلاء أوربا المباركين من طرف الكنيسة، هزيمة قاسية يوم الرابع من غشت 1578. لقد أضحت مواضيع "تخليص أورشليم" واستعادة "البقاع المقدسة" و"الحج إلى مهد المسيحية" و"السير على خطى المسيح" تيمات ملحة في الآداب الأوربية فيما بين القرنين الخامس عشر والثامن عشر، وهي فترة شهدت تحولات كبيرة في العالم المسيحي، انقسم فيها هذا الأخير إلى طرائق قدا، بينما اجتمع على موضوع "القدس". وقد حرصت كل كتابات الرحالين المسيحيين على نقل صورة التآلف الذي كانت عليه المذاهب المسيحية داخل الأماكن المقدسة المسيحية وبخاصة في كنيسة المدفن المقدس حيث احتفظ فيه كل مذهب بركن ورعى مصلى أو مصليات دون أن يحرم أتباع الكنائس الأخرى من الاستفادة من زيارتها.

والنصوص التي اخترنا الوقوف عليها في هذه الدراسة هي :

- يوميات دون افارو روبليدو Don Alvaro Robledo⁴⁵

⁴⁵ - *Diario de un peregrino en Tierra Santa*, con un prólogo por Don Antonio de Truera, Madrid, Librería de D. Leocadio Lopez, Editor ; 1863

- الفريلي فرانسيكو غريرو ⁴⁶ Fray Francisco Guerrero
- رحلة غريغوريوس أندريس إسبالا ⁴⁷
- رحلة أريباس سيفيرو ⁴⁸ Arribas Severo المنشورة سنة 1946.
- رحلة إنريكي غوميس كاريو ⁴⁹ E.Gomez Carillo.
- رحلة دانييل مرتينيث فراندو ⁵⁰
- ورحلة لويس ريس بلانك ⁵¹ Luis Reyes Blanc

مع الرجوع كلما استدعت الضرورة إلى نصوص أخرى لرحالين إيبيريين وإيبيرو أمريكيين، وقد رأينا أن لا ندرج ضمن قسم الترجمة إلا النصوص التي خلناها قدمت جديدا في موضوع القدس. والحق أن كثيرا من النصوص الإسبانية حول الأراضي المقدسة تكاد تكرر نفسها.

⁴⁶ - *El Viaje de Jerusalem*, Francisco Guerrero, Valencia 1593

⁴⁷ - *Del Manzanarez al Nilo y el Jordan*, Gregorio Andrés Espala, Madrid, 1870

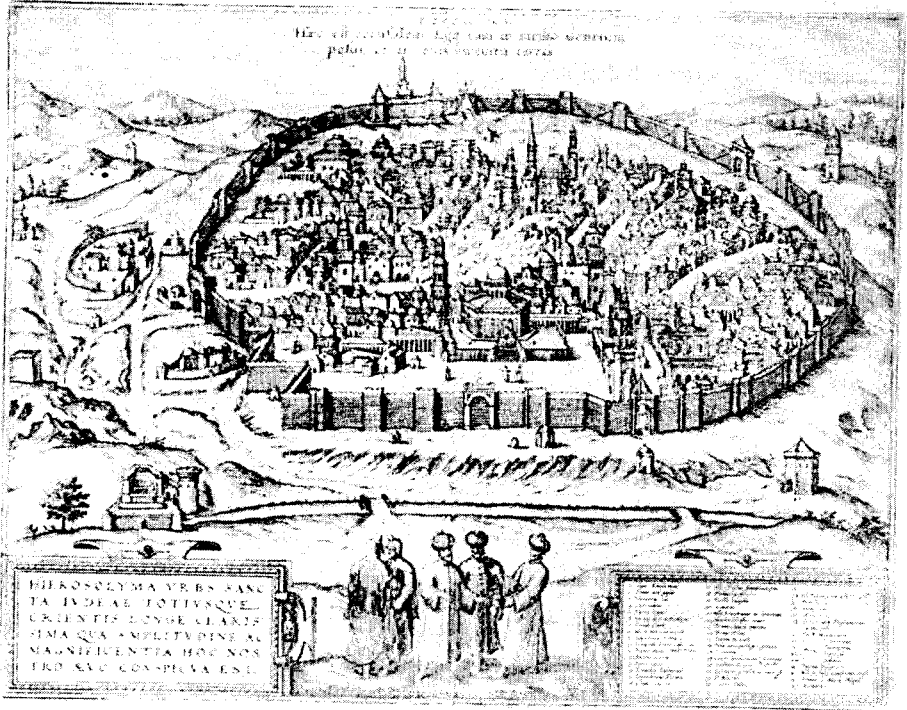
⁴⁸ - *Arte y Fe en Palestina*,

⁴⁹ - *Jerusalén y Tierra Santa*, Sociedad de Ediciones, Louis Michaud, Paris

⁵⁰ - *Palestina , Sueños y Realidades crueles*, Marinez Ferrando, Editorial Cervantes, Barcelona

⁵¹ - *Viaje a Palestina*, Luis Reyes Blanc, Serie : Biblioteca Grandes viajeros, ediciones B, Barcelona, 1999

القدس شرق مختلف عن الشرق



القدس مدينة من الشرق ، كل شيء فيها شرقي منذ عهد اليوسيين.
إنها واقعة في أرض شكلت قلب الشرق منذ عهد الرسالات. ولأنها اختزلت
جوهر الشرق ، فقد ظل امتلاكها غاية كل قوى العالم القديم. لهذا ، هُدت
أسوارها مرات عديدة ، وحوصرت في أخرى ، وبعد كل هجوم وكل
حصار ، كانت القدس تعيد الكرة لتثبت أنها مدينة شرقية ارتبطت خارطتها
بمعتقدات شرقية ، ولفت أركانها أخبار الشرق حتى أضحت تتميز عن هذا
الشرق نفسه ، وقد عكست كتب الرحالين الذين وفدوا إليها من كل الآفاق
هذا الأمر ، فكل الذين زاروها أحسوا إحساسا غريبا حينما لاحت إليهم
أسوارها في الأفق ، وكلما اقتربوا من باب يافا كانت تتنامى داخلهم رغبة
اكتشاف أسرارها.

وقد أجمع هؤلاء الرحالون على أن سحر القدس شرقي ، لكنه سحر لا
يضاهيه أي سحر آخر ، فالبتراء ، أو بابل ، أو القاهرة ، أو دمشق ، أو بغداد ،
وإن كانت مدنا شرقية واقعة في الشرق كما القدس ، لا ترقى إلى شرقية
القدس ، وليس لها من الأسرار ما يماثل أسرار القدس. إن الإحساس
بالانتماء إلى القدس يلف كل الرحلات التي وقفنا عليها ، فرأينا هؤلاء
الرحالين يندرجون في رحلة للبحث عن الذات مستعينين بنصوص التوراة أو
الإنجيل أو القرآن وبما اختزنه ذاكرتهم من أخبار وآثار وأحداث كانت

القدس مسرّحا لها. وهذا الشكل من أشكال الارتباط بالقدس لا يتحقق مع أية مدينة شرقية أخرى.

وإذا كان هذا الأمر قد تحقق لكل زوار القدس الأوروبيين ، فقد تحقق للرحالين الإسبان بشكل أعمق. لقد وجد هؤلاء أنفسهم في القدس أمام شرق هم غير منفصلين عنه وغير مغايرين له تمام الغيرية. وظل الإسبان وثقيي الصلة بالثقافة العربية الإسلامية رغم عهود التعصب الديني ومحاكم التفتيش ، كما استمر فعل تلك الثقافة واضحا في ذاتهم. وقد شكلت العمارة الإسلامية المقدسية عنصر انجذاب في نفوس هؤلاء الرحالين ، فبدت لهم القدس ببواباتها وأسوارها وصوامعها وأسواقها مألوفة ، فيها الكثير مما اختزنه ذاتهم من مدن الأندلس وحضارة الأندلس. وإذا كان الأندلسيون الذين زاروا القدس خلال أوج الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس قد قارنوا المسجد الأقصى بمسجد الأندلس مثل مسجد قرطبة⁵²، فإن الرحالين من بعدهم قد نظروا إلى الأفق المقدسي بعين أندلسية كذلك ، فغالبا ما كانوا يحيلون على الأندلس بمجرد أن تقع عينهم على جبل الزيتون ، وزكى إحالاتهم تلك ما كانوا يسمعون من كلمات إسبانية كانت تنبعث من مُذاكرات القسيسين الفرنسيين في حداثتهم عن صخرة مسجد الصخرة الذي وسموه بمسجد عمر ، كانوا يخلطون بحكايات سمعوها في القدس عن الإسراء والمعراج بحكايات ترسخت في

52 - أنظر في هذا الصدد فصل "الحج والحجاج: بريطانيين وفرنسيين" في كتاب الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، لإدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، الطبعة الثانية 1984، مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت.

53 - الشريف الإدريسي مثلا في نزهة المشتاق في اختراق الآفاق.

الآداب الإسبانية عن الإسراء وعروج الرسول محمد صلى الله عليه الصلاة والسلام إلى السماوات العلى ، وقد رأيناهم في وقفتهم تلك يقدمون الأمر تقديم العارف مما يكشف بشكل عميق قوة التعلق بالقدس والتآلف الذي عرضنا له أعلاه.

وقد رأينا أن نقف فيما يلي عن المواضيع التي أوردنا بشيء من التفصيل.



داء القدس

أذكر أنني وأنا طالب بقسم الدراسات العبرانية بجامعة غرناطة كُلفت بإعداد بحث عن قواعد استيقاء الأحكام في الشريعة اليهودية وتطبيقاتها على جملة "لا يجوز خوض الحرب قبل تجريب السلام" انطلاقاً مما جاء في سفر التثنية، الإصحاح العشرون، 10: دִּיתְקַרְב אֶל־עִיר לֶהֱלָחֶם עָלֶיהָ וּקְרָאת אֹלֶיהָ לְשָׁלוֹם (حين تقترب من مدينة لكي تحاربها استدعها إلى الصلح). وبعد عرض الجملة أعلاه على القواعد المعتمدة، عرضت إلى كيف فرق الربيون بين الحرب الواجبة מלחמת חובה والحرب الجائزة מלחמת רשות والحرب الوقائية המלחמה המונעת، واختبرت بعض نماذج الحروب التي خاضها بنو إسرائيل في تاريخهم وخالفوا فيها أوامر نصوص التوراة، وخالفوا فيها قواعد الاستدلال في شريعتهم. ومما أوردته حينئذ عن مسألة القدس، هدمهم لحارة المغاربة عند منتصف ليلة السبت العاشر من يونيو حزيران 1967، وكيف زحف إيتان بن موشيه قائد سلاح الهندسة بأمر من موشيه ديان على تلك الحارة ولم يمهّل سكانها فكان أن أضحت منازلهم قبوراً لهم. وكيف صلى الغاصبون في عيد التوراة في الساحة التي هيأوها أمام حائط البراق ولم تكن دماء المدفونين تحت الأنقاض قد جفت بعد.

أذكر كيف تدخل الأستاذ وكان فريليا فرانسيسكانيا من أساتذة كلية اللاهوت ليذكر أن الذي قام بذلك الفعل الأهوج مصاب لا محالة بـ"داء القدس"⁵⁴ الذي لطالما أصاب بعض زوار القدس فحولهم لما يشبه مجانين

⁵⁴ - عن داء القدس وتعريفه وأعراضه وتوظيفاته الفكرية و الثقافية والسياسية يُرجع إلى:

- *Jerusalem syndrome*, Yair Bar-El, Rimona Durst, Gregory Katz, Joseph Zislin, Ziva Strauss, Haim Y. Knobler ; In British journal of Psychiatry, Vol 176, 2000, P: 86-90
- *The holy fool speaks, The Jerusalem Syndrome as a religious subculture*; Alexander van haven, in Jerusalem: idea and reality , *Middle East studies*, Tamar Mayer, Suleiman Ali Mourad, Routledge, 2008; P: 103-122
- *Travel medicine*, Edited by Jay Keystone, Phylis e. Kozarsky, David o. Freedman, Hans D. Nothdurft, Bradley A. Connor; MOSBY Elsevier Health Sciences, 2004, P:247a-349a
- *Jerusalem Syndrome*, Mark Popovsky, in Encyclopedia of Psychology and Religion, David A. Leeming, Kathryn Madden, Stanton Marlan ; Springer Reference, 2009, P:453
- *The Jerusalem Syndrome - Fantasy and reality*, Kalian, M. and Witztum, E; Israeli journal of psychiatry related sciences; 36 (4) 1999, P:260-271.
- *Jerusalem Syndrome as reflected in the pilgrimage and biographies of four extraordinary women from the 14th century to the end of the second millennium*, Moshe Kalian; Eliezer Witztum; in Mental Health, Religion & Culture, Vol V, Issue 1, March 2002 , P:1-16
- *Jerusalem syndrome*, Kathryn Elizabeth Goldstein, 2001
- *The Jerusalem syndrome, my life as a reluctant Messiah*, Marc Maron, Broadway Books, New York , 2001.
- *The Jerusalem Syndrome*, Richard Marsden; Paragon Press Publishing, 2001
- *The Jerusalem Syndrome ,the Wreck of the Sunset Limited*, Anne Montgomery ; Authorhouse, 2004
- *Sheba: Through the Desert in Search of the Legendary Queen*, Nicholas Clapp ; Houghton Mifflin Harcourt, 2002, انظر الفصل المعنون: O Jerusalem!, P: 79- 89.
- *Managing sacred sites: service provision and visitor experience*, Myra Shackley ; Thomson Learning EMEA, 2001, P:21-22
- *Cultural revolutions: reason versus culture in philosophy, politics, and jihad*, Lawrence E. Cahoon ; Pennsylvania State Press, 2005, P:65-66
- *La Syndrome de Jérusalem* , Leah Abramovitz, in *Jérusalem, ville ouverte*, *Cahiers de Confluences*, Régine Dhoquois, Shlomo Elbaz, George Hintlian ; Editions L'Harmattan, 1997, P :
- *Jerusalem Syndrome: The Palestinian-Israeli Battle for the Holy City*, Mosheh Amirav ; Sussex Academic Press, 2009

اعتقدوا بأنهم أبطال توراتيون اختيروا بوحى ليصححوا خط التاريخ الرابط بين الأنبياء والملخص الآتي في آخر الزمان.

التقطت الفكرة وفتحت لها ملفاً أخذت أضُم إليه وجاداته النصية لما يربو عن ربع قرن.

وأنا في هذا البحث لست أقصد بداء القدس ذلك الداء الذي بُررت به أعمال صدرت عن أناس فقدوا ميزان منطق الاعتدال فانجرفوا به إلى تعصب يصادر حق الآخر في الاختلاف الفكري والعقيدي. إن الأمر هنا لا يتعلق بما جاء في مسرحية يوشوعا سبوبول יושוע סבובול "داء القدس"، ولا بذلك الداء الذي أسست لعلاج المصابين به مصحة في كفر شأؤول⁵⁵، والذي بُررت به أعمال تخريبية مثل عمل مايكل روهان الذي أقدم على إحراق المسجد الأقصى يوم الخميس 21 غشت 1969. إن الذي نقصده هو تلمُّس سر من أسرار بيت المقدس، وهو المتمثل في محوريتها في تاريخ البشرية، وافتتان الناس بها، إن مجرد ذكرها يحيل على التاريخ؛ فهي مدينة مؤرخة، مجرد ذكر اسم من أسمائها يجعلك تفكر في سلسلة من الأعلام التاريخيين ارتبطت أسمائهم بمعلم من معالمها أو حدث مما تسجله كتب التاريخ، وكل ذلك جعل لها صورة جعلتها شرقاً مختلفاً عن الشرق، استطاعت شريقتها أن تنفذ إلى كل العوالم حتى أنه حين كانت عجائز المسيحيين في أراضي العمق

• سيندروم يروشليم: כך קרסה המדיניות לאיחוד ירושלים 1967-2007، משה עמירב، כרמל، 2007

• سيندروم يروشليم، יהושוע סבובול، אור-עם، 1987

⁵⁵ - ينظر *Syndrome de Jerusalem*، Leah Abramovitz، مجلة Ariel، عدد 2، 1996

الأوربي الباردة تتغنين بها وتُرددن حكايات عنها وهن بعيدات عنها آلاف
الأميال ، كانت يهوديات⁵⁶ في أرض المغرب ترددن بلسان عربي دارج :

المسيح بن داويد يجينا ونعملوا عيد

فيروشاليم فرح جديد يجعل يكون قريب زيادة

و يروشاليم أرض الدين والعبادة

بينما كانت سيدة مغربية وهي فاطمة بنت محمد بن علي المقيمة في القدس
تحبس بيتها الواقع بحارة المغاربة بالقدس الشريف على من يسكنه من الفقراء
العجائز من المغاربة⁵⁷.

وكل تلك النسوة نشدن في القدس نوعا من السعادة جعلت فكرة زيارتها
أمرا مطلوبا بين جميع المعتقدين في الرسائل السماوية الثلاثة. إنهن يبحثن
في قدس الحجر عن شحنات إيمانية خاصة، تجعل تذكرهن لها بمزاراتها
ورجالاتها وتضاريسها وحكاياتها نوعا من تحقيق جزء أساس من هويتهم
الشرقية الخاصة. إنهن التمسن نوعا من السعادة الروحية في مكان كان عبر
تاريخه موثلا لناشدي السلام. ولعلها هي تلك السعادة التي تساءل عنها
كاتب مثل رفائيل كورتوازي *Rafael Courtoisie* ، حين كتب عن أحجار

القدس *Jerusalem Stones* :

« Desde hace muchos siglos diversas gentes vienen a esta ciudad en procura de la felicidad.

⁵⁶ - عن تعلق يهود المغرب بالقدس الروحية يُرجع إلى:

Jerusalén, una historia de amor, Azancot Leopoldo; Plaza & Janés, Esplugues de Llobregat, Barcelona, 1986,

⁵⁷ - انظر نص وقفيتها في ص: 236-238 من أطروحة د. عبد الرحمن محمد حامد المغربي "طائفة المغاربة في القدس الشريف 492هـ - 922 هـ موافق 1099م - 1516م" بإشراف صديقنا المرحوم محمود عطا الله عميد كلية الآداب بجامعة النجاح و د. سيدة إسماعيل كاشف، جامعة عين شمس، كلية البنات، قسم التاريخ.

La procesión aún continua, Judíos, cristianos y musulmanes, ortodoxos, heterodoxos, equilibrados, desequilibrados, consagrados, iniciados, neófitos y veteranos. Todos acuden a Jerusalén. Qué buscan entre sus piedras. Qué hay en el dédalo de calles intrincadas? Qué en las aceras gastadas por miles de suelas o pies descalzos? , por millares de pasos de peregrinos fervorosos?"

"منذ قرون عديدة والناس يأتون إلى هذه المدينة سعيا لتحقيق السعادة، المسيرة مازالت مستمرة، يهود ومسيحيون ومسلمون، أرثوذكس، وبدعيون، متوازنون وغير متوازنين، مبتدئون وقدامى، كلهم يأتون إلى القدس.

عن ماذا يبحثون بين الحجارة؟، ما ذا يوجد في متاهة الشوارع المعقدة؟، ماذا يوجد على الأرصفة التي استهلكتها الآلاف من النعال أو الأقدام الحافية؟ استهلكتها ملايير خطى الحجاج الأتقياء"⁵⁸

وهي نفسها السعادة التي رددت صداها ماذن القدس ونواقيس كنائسها تباعا لحظة إعدام أبطال انتفاضة البراق ذات 23 غشت 1929، سعادة محمد خليل جمجوم وعطا أحمد الزير و فؤاد حسن حجازي وهم يفقدون القدس الخالدة المتعددة بأرواحهم.

وذلك السر في السعادة، الذي احتفظت القدس به عبر تاريخها، هو الذي أسيمهُ بدء القدس الحقيقي إذ أن مدينة السلام لا يمكن أن تُوكَّد شعورا آخر غير شعور التألف والاعتراف بالتنوع الثقافي المفضي إلى المبرة والإقسط .

⁵⁸- *Jerusalem Stones*, Rafael Courtoisie, in *La Fraternidad de la Palabra : antología*, Napoléon Baccino Ponce de León ; Ediciones Trilce, 2005, P :40-41

تتفق أغلب كتب الرحالين الإسبان في مسألة التصريح بذلك الإحساس الغريب الذي انتابهم حينما لاحت لهم معالم القدس. وقد وسم بعضهم ذلك الإحساس بكونه "داء القدس" *El Síndrome de Jerusalén* و عرفه الرحالة لويس ريبس بلانك *Luis Reyes Blanc* في رحلته *Viaje a Palestina* "رحلة إلى فلسطين"⁵⁹ كما يلي :

"القدس تبعث على الحمق. ولست هنا أعني ما يُسبب التأثير والآلام، ولا ما يبعث على التهيج، ولا الحماسة... إنها تبعث على حمق بمعنى أدبي. وفي مستشفى "عين كرم" قسم نفساني متخصص في الأجانب الذين ينتابهم داء القدس.

وهذا الداء بمصطلحات طبية، هو اختلال انفصالي هستيري، وأنا الذي عشته عن قرب أعرفه بشكل آخر: يتعلق الأمر بتلف في التمييز أمام تلك الشحنة الروحية الزائدة التي تطفو في ذلك الأفق، وأمام ذلك التدين المفرط، والإيديولوجيا والتاريخ والأسطورة التي تتركز في كل حجر من حجارة هذه المدينة، ومن نتائج كل ذلك: الحروب والحروب الصليبية، والاسترداد، والمذابح، والهجرات، والاستشهاد، والمعجزات، والمحبات، والعنف، واللاتسامح، والفن والخراب".

وهذا غريغوريوس أندريس إسبالا *Gregorio Andrés Espala* يعبر عن نفس تلك الحالة، فيلتمسها في ذلك السكون الذي يحدث للزائر حين يرى أسوار المدينة المقدسة، حين يكون قاب قوسين أو أدنى من تحقيق سعادة ركب من أجل بلوغها الأهوال. فكل القوافل المتوجهة إلى المدينة المقدسة يصرح

⁵⁹- *Viaje a Palestina*, Luis Reyes Blanc, Serie : Biblioteca Grandes viajeros, ediciones B, Barcelona, 1999, P:19-23.

إسبالا، لا بد وأن تقف حينما تقترب من القدس، ووقفتها تلك هي وقفة إجبارية يقتضيها ما يعتمل في أذهان أفراد تلك القافلة من أفكار وخيالات وقِصص، وقِصص؛ لأن القدس ليست ككل المدن، ليست كمدن الشرق التي يتألف المرء معها بمجرد أن يتجول بين دروبها وينال من أسواقها ويعرف من أخبارها ويزور قصورها ويستحم في حماماتها ويكتشف أسرار زخارفها. القدس غير ذلك كله، فرغم تألف زوارها معها بشكل سريع، لا ينضب معين أخبارها، إن أسرارها متجددة، وخباياها لا يمكن أن يُحاط بها للوهلة الأولى، كما لا تفتقر ذاكرة زوارها على حياكة الأخبار وتوليد الأحاسيس. وبمجرد أن تلوح في الأفق يقول إريغور أندريس إسبالا:

"تقف كل القوافل، وتستغرق في التفكير عندما تتأمل تلك الصحراء المهيبة التي تتنفس من عظمة الرب ومن أهوال الموت، وتتحرك في ذاكرتها ذكريات التاريخ من إبراهيم إلى غودفروي".

أما إنريكي غوميث كاريو E.Gomez Carillo فرد ذلك الإحساس الذي ينتاب الحجاج إلى القدس إلى أن القدس مدينة قبرية، كل شيء فيها ذو طابع جنائزي، إنها تبدو كما لو كانت مدينة ميتة. وحتى حينما يقع تألف معها، لا تفتقر حيطانها وكل جوانبها تطرح الأسئلة تلو الأسئلة؛ فكل ركن يحمل الزائر على الإبحار في بحر لجي من الأخبار والذكريات، والصيغة المقبولة في القدس، هي صيغة الماضي التي تتجسد في عبارة: كان هنا. يقول:

"وشيئا فشيئا، أخذت هذه الأزقة التي تبعث بداخلي في يادئ الأمر إحساسا مضابقا من الموت بهدوئها وفراغها، تتناغم بطريقة غريبة. ولم أعد

أحس كضائع في مقبرة. وتحركت حولي حياةٌ عجيبة في فضاء صوفي بين همهمات الصلاة وخفقان النواقيس. لاشيء من الشرقي، لاشيء من ربح الشرق، لاشيء مما تمت رؤيته، لاشيء مما تم الحلم به...

فقط عند باب يافا، تمنح الأسواق المليئة بحوانيت التحف والمقاهي التركية التي تضوع بالتبع الأشقر، والحركة العامة للبالغين والمترجمين والسواح، مشهداً حالماً شبيهاً جداً بمشهد المدن الأخرى في سورية. لكن هذا لا يحتل إلا مكاناً قليل الأهمية؛ فعلى بعد قليل، حيث تُظلم الأزقة بظل الحيطان العالية الصوفية، تبدأ أورشليم الحقيقية...

وحينئذ يتملكننا إحساس خاص. إحساس يختلج فيه شيء لا يوصف، وشيءٌ كارثي مقابل، وانطباع عظيمٌ وخيالي للحلم.

"ماذا يوجد هنا؟ - تساءلنا - أي شيء مُقلق، أي شيء رفيع، أي شيء

نادر يوجد هنا؟..."

توجد الذكريات بطبيعة الحال؛ كل الذكريات الإلهية التي تعلو الأبراج والقباب بمقدار يجعلنا نتألف مع الأمكنة المبعجلة... يوجد كذلك الجو الحزين الذي يُلَف دائماً الخرائب العظيمة... توجد همسات الصلوات التي تملأ الأجواء... توجد الأنوار التي تشع في الدياجي مذهبة الصور المقدسة. يوجد في النهاية شذا البخور والصبر الذي يُشملُ بشكل خفيف...

لقد ظل ذلك الإحساس مسيطراً على هذا الرحالة طيلة مدة زيارته للقدس، وعند كل أثر، كان يعود ليؤكد أن سلطة التاريخ هي التي تؤجج عند زوار القدس الرغبة في التآلف معها.

والذي عبر عنه لويس ريس بلانك بداء القدس ، قال عنه دانييل مرتينيث فراندو Daniel Martinez Ferrando إنه نوع من الإصرار الذي يتولد عند زوار القدس ، وهو إصرار تؤججه رغبة صوفية جامحة لا تهدأ إلا عند النظر إلى المدفن المقدس :

"ما عساها تكون الزيارة الأولى إلى القدس؟

إن القدس بالنسبة للغربيين عبارة عن متحف. وبمجرد الوصول إليها، يفقد كل شيء أهميته أمام الرغبة الجامحة والصوفية للنظر إلى المدفن المقدس. فقبل زيارة المدينة والتألف معها واستكشاف سحر أزقتها، بل قبل الاستراحة والانتعاش علينا أن نزور المدفن المقدس. لا شيء يمكن أن يثينا عن هذه الفكرة التي تأججها بشدة قوة داخلية".

أما القسيس فرانثيسكو غريرو Francisco Guerrero فقد عبر عن تلك الحالة ببلاغة عالية، فعبارة "أطلقنا ألف تنهيدة" فيها ما يعبر عن تمام المراد برؤية أورشليم، وفيها ما يحيل على الشوق الذي حركه وهو الحاج إليها من بعيد، يقول :

"لقد كان ما رأينا منظرا مُفرحا وعجيبا، وكل من كان في الركب ؛ حجاجا لاتينين وإغريق، خرنا ساجدين نُقبل الأرض شاكرين الرب، وأطلقنا ألف تنهيدة وفيه، وكان كل واحد منا يتلو صلاته للمدينة المقدسة مرددا مرات عديدة : *Urba beata*

*"Hierusalem"*⁶⁰

⁶⁰ - *El Viaje de Jerusalem*, Francisco Guerrero, Valencia 1593,

هذا النص واقع في نهاية الفصل الثاني حول مدينة حيفا والطريق إلى القدس.

والعبارة اللاتينية التي ردها *Urba beata Hierusalem* " مباركة يا

أورشليم"، هي جزء من نشيد من أناشيد الكنيسة الرومانية الكاثوليكية⁶¹:

*Urbs beata Jerusalem,
dicta pacis visio,
Quæ construitur in coelo [caelis]
vivis ex lapidibus,
Et angelis coronata
ut sponsata comite*

وهو نشيد من القرن الثامن الميلادي، تم تحديثه زمن البابا أوربان الثامن

Urban VIII ويتغنى بأورشليم السماوية.

أما رفائيل سانس البيروفي *Fray Rafael Sans* فقد صور ذلك الإحساس

الذي يتحقق للحاج إلى القدس في أول لقاء كما يلي:

"يشتااق كل رحالة إلى نهاية رحلته، لكن لا أحد يحس بهذا الإحساس
الحي الذي ينتاب زائر أورشليم، فلا الإسكندر سيكون قلقا من رؤية بابل،
ولا القيصر يقلق حين يرى روما، ولا هرنان كورتيس حين يرى مكسيكو،
مثلما يقلق هذا الحاج المسكين عند رؤيته مدينة السلام المتحولة. هكذا فإن
الزائر يكثّر من الأسئلة إلى أن يقول مرشد القافلة: "انظروا ها هي ذي
القدس" *Ecce Gerusalem*، فيصيح الرفاق: "انظروا ها هي القدس".

"نظرت لكنني ظَلْتُ حائِرا حين لم أر أسوار المدينة، ولا القبة المقدسة،
ولا مسجد عمر، مثلما رأيتُ في كل كتب الرحلات من شتوبريان إلى الأب
فاديسا؛ لم أر إلا بناء حديثا بقباب مُتَوَجِّة بكرات من البرونز المذهب قيل لي
إنها لكنيسة ومستشفى الروس. ورأيت بعد ذلك الأسوار المرجوة بمركبة

⁶¹ - عن هذا النشيد انظر:

Medieval hymns and sequences, John Mason Neale, J. Masters, 1867, P: 18-22
<http://www.al-maktabeh.com>

وصومعة لا تشبه في شيء ما تصوره اللوحات والمحفورات تماما ، وكلها تقدم القدس من الجهة المقابلة للزائر القادم من أوربا ، وهي الوجهة التي قمت برسمها في مستهل هذا الفصل ، لكن الالتباس الذي أحسسته أزعجني وصرفني عن ذلك. أغضبت رفاقي بأسئلة وقحة ، ونسيت أن أترجل لأدخل أورشليم كما رجوت.

أي شقاء هذا؟ ، اشتقت إلى أن أقطع تلك المدينة المقدسة لأقوم بعبادة متواضعة ، لكنني فقدت ذلك الخشوع الذي يتحقق لكل مجرد أنني أردت أن أعرفها كما رأيته في المحفورات والخرائط. وأنا أصرح بذلك حتى يتلافى آخرون هذا الإزعاج الوارد في غير وقته فيحتفظون بتماسكهم حين يذهبون للوقوف على تلك الأزقة التي جابها المسيح بدمه والعذراء بكائها.⁶²

ونفس القلق عبر عنه دومينغو أروسمينا Domingo Arosemena قائلا :

"يوم فاتح أكتوبر ، على الساعة الثالثة صباحا ، لمست الأسوار العظيمة لمدينة الرب ، وقد كانت العاصمة الموعودة لكل الأرض ؛ إليها أتى إبراهيم من أور الواقعة في بلاد الكلدانيين.

وإن كان الطريق معتما نظرا للساعة المبكرة التي خرجنا فيها ، فقد سافرت بسرور عظيم إلى تلك المناطق الجافة كثيرة الجبال الوعرة ، إن شعاعا ينتظرنى هناك عند الفجر ، وقد أخذ هذا الأخير ييزغ.

⁶² - *Apuntes de una visita a Tierra Sans*, Fray Rafael Sans, Misionero Apstólico de la Paz en Bolivia; Imprenta Hispano-Americana , De rouge frères, Dunon et Fresné, Paris 1867, P:32-34.

كنت أفكر فقط في أورشليم.... المدينة التي تعرف اسمها الأجيال ،
وتصفها الصفحات المقدسة ، ويردد اسمها بكل اللغات. كانت أورشليم
موضوع شوقي الوطيد ، كانت موضوع رغباتي.

مع أشعة البكرة ، ظننتني رأيت الحصون ، رأيت مباني المدينة على كل
الربوات المتوالية عند جبل الزيتون ؛ القمة العالية التي تشرف على كل
مناطق الألم تلك.

كان قلبي يخفق.. ترجلت وقد استغرقت صامتا وسجدت على الأرض
متحسرا ، مملوءا بالحب أعترف بكل فضائل الرب.⁶³

غير أن هناك من الحجاج الرحالين المسيحيين من حاول تخفيف حدة لقاءه
بالقدس ، فتهيا لها واستطاع أن يسيطر عن نفسه حتى لا تنجرف على ما قد
يؤثر عن الخشوع والحمد وطلب القبول عند رؤية مدينة أجمعت على
قدسيته كل شعوب الأرض. يقول الفريلي أنطونيو ديل كاستيو Fray Antonio
del Castillo :

"بعد إشرافنا على المدينة المقدسة ، سجدنا وقبلنا الأرض. وبدموع
منهمرة ، حمدنا الرب على أن خصنا بهذا الفضل فأتى بنا معافين لرؤية
وزيارة تلك البقاع المقدسة. ثم أنشدنا :

Te Deum Laudamos

نمجدك أيها الرب⁶⁴

⁶³ - *Sensaciones en Oriente, ó Impresiones biblicas de un granadino en la Tierra santa*, Domingo Arosemena Quesada, Nueva York, Imprenta de Robert Craighead, 1859, P:125-126

⁶⁴ - وهو نشيد يُعزى لنيسيتاس أسقف ريميديانا في القرن الرابع الميلادي.

Te Deum laudamus:

te Dominum confitemur.

وقمنا ببعض الصلوات الواجبة، وكل واحد شكر الرب منفردا بما يسر الله
له من الأذكار، وباعتبار شديد، تهيأت لرؤية تلك البقاع، وبحماس رددنا
Salve civitas sanctas

هكذا كل شعوب العالم تسجد حين تأتي إلى أورشليم المدينة المقدسة. كل
شعب يمجّد الرب ويمجّده بطريقته، لكن بأصوات عالية تسببت لي في
خشوع عظيم. ولا يوجد مسيحي لم يتأثر بذلك ولم يُرقّ دموعا غزيرة.⁶⁵

إن سلطة التاريخ تهيمن على الوافد على القدس، فيصاب بذهول ولا
ينفك ينساق أمام رغبة جامحة في البحث عن جزء من الذات ساقه إليها،
وهذه الرغبة تمثلت عند الزوار المسيحيين للقدس في اجتهادهم في التملّي بما

*Te aeternum Patrem
omnis terra veneratur.
Tibi omnes Angeli;
tibi caeli et universae Potestates
Tibi Cherubim et Seraphim
incessabili voce proclamant:
Sanctus, Sanctus, Sanctus, Dominus*

لك يا رب نحمد
لك يا رب نعرف
لك أيها الأب الخالد
تمجد كل الخليقة
وكل الملائكة
السموات وكل القوى تمجّدك
كل الكيروبيم والسيرافيم
يتغنّون بك دونما توقف
مقدس مقدس مقدس هو الإله.

⁶⁵ - *El devoto peregrino y viaje de tierra Santa*, Fray Antonio del Castillo; Imprenta
y librería de la viuda è hijo de Sierra, Barcelona, 1850, P: 95-96 y 98-99

يعتقدون أنه قبر للمسيح، والاندرج في محطات آلامه مسترشدين بالأنجيل، وتمثلت عند الزوار المسلمين في الرغبة في الصلاة في المسجد الأقصى أولى القبلتين وثالث الحرمين⁶⁶، والوقوف على الصخرة المباركة وتذكر معجزة الإسراء والمعراج، بينما بدت عند اليهود في بحثهم عن آثار مجد عهد دولة النبوة أيام سليمان وداود⁶⁷.

فهذا بنيامين بن يونة التطيلي النباري الأندلسي يروي بإعجاب خبر اكتشاف قبور ملوك بني إسرائيل، ويروي عن إبراهيم الناسك القسطنطيني وهو أحد البكائين المستقرين بالقدس زمن ألمريك أخ بلدوينو الصليبي قصة اكتشاف قبور ملوك بني إسرائيل قائلاً⁶⁸:

⁶⁶ - انظر القدس في الرحلات المغربية، رحلة ابن عثمان نموذجاً، تقديم وتحقيق، د. عبد الهادي التازي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة - إيسيسكو، الرباط 1997

⁶⁷ - عن رحلات الرحالين اليهود إلى القدس ينظر

Relatos de viajes y epístolas de peregrinos judíos a Jerusalén (1481-1523), José Ramón Magdalena Nom de Déu Editorial: AUSA, Barcelona 1987

وانظر

The Jewish travellers in the twelfth century, Yosef Levanon ; University Press of America, 1980

والوقوف على نصوص مترجمة لهؤلاء الرحالين انظر

Jewish Travellers, Elkan Nathan Adler, Vol 12 *Broadway travellers*, Reimprinted by Routledge Curzon, 2005 Great Britain.

أورد المؤلف في هذا ترجمة لنصوص الرحالين: يهودا اللاوي، وفتحيا الرتسبوني، ويعقوب بن نطانيا الكوهن وإسحاق بن يوسف شيلو وإليخا من فرارا والربي جمسيل القراني وداود أزولاي.. ونفس الأمر تجده في:

Jewish Travellers (1930), Sir E. Denison Ross ; Hesperides Press, 2006

وللمقارنة بين ما جاء عند الرحالين اليهود والمسيحيين والمسلمين الذين زاروا القدس، انظر

Four paths to Jerusalem: Jewish, Christian, Muslim, and secular pilgrimages, 1000 BCE to 2001 CE, Hunt Janin ; McFarland, 2002

⁶⁸ - انظر رحلة الربي بنيامين التطيلي، النص العبري، صفحات: 28-30، طبعة أ. أشير A. Asher

Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela, Translated and Edited, A. Asher, Vol I, Text Bibliography and Translation, Hakesheth Publishing co, New York 1900

وانظر رحلة ابن يونة بين نصوص أركولف وويليبالد وسيغورد وماندوفيل وبروكيير وموندريل من أجل المقارنة:

"حدث قبل خمس سنوات أن سقط جدار البيعة التي على جبل صهيون، فأمر البطريق أتباعه الرهبان بإعادة رمه، وأوصاهم بأخذ الحجارة من صهيون الشرقية، فعكف عشرون عاملا على اقتلاع الحجارة من الجبل، وحدث أن عاملين تربط بينهما صداقة متينة كانا قد تأخرا عن موعد العمل لانشغالهما بمأدبة. فانحنى عليهما رئيس العمل بالتقريع، ووعدا بأن يكملا العمل المرصود خلال أوقات الراحة عندما ينصرف رفاقهما للغذاء، وبينما هما ينشغلان منفردين، اقتلعا حجارة وجدا تحتها فجوة تؤدي إلى غار، فقال أحدهما للآخر: هلم نر ما في هذا الكهق عسانا نعر على كنز. ولما ولجا الغار وجدا نفسيهما داخل قاعة كبرى مُحكمة، معقود يقفها على أساطين من رخام موشاة بالذهب والفضة. وفي القاعة خوان عليه صولجان وتاج من خالص الذهب، ويتوسط القاعة قبر داود ملك إسرائيل وإلى يساره قبر ولده سليمان وقبور آل داود، ووجدا كذلك صناديق موصدة لم يعرفا ما بها. وبعد حين هبت عليهما ريح عاتية طوحت بهما إلى وجه الأرض، وبقيتا ساكِنَيْنِ إلى أن حان الغروب، وهتف بهما هاتف دعاهما إلى مغادرة المكان، فأسرعا إلى البطريق وقصا عليه ما شاهداه وسمعا، فاستدعى البطريق الربان إبراهيم القسطنطيني الناسك من بكائي أورشليم، وقص عليه الحادث، فأكد الربان أن هذا الكهف هو مرقد الملوك من آل داود...هذا ما قصه علي إبراهيم الناسك نفسه"

Early travels in Palestine, comprising the narratives of Arculf, Willibald, Bernard, Saewulf, Sigurd, Benjamin of Tudela, Sir John Maundeville, De la Brocquière, and Maundrel, edited with notes by Thomas Wright; Bohn's antiquarian library, London 1848.

ونفس الافتتان الذي أبداه بنيامين التطيلي الأندلسي بالبحث عن قدس العهد القديم وقفنا عليه في كتابات رحالين يهودا آخرين مثل صموئيل بن شمشون⁶⁹ Samuel Ben Samson وإسحاق شيلو⁷⁰ Isaac Chelo ومشولام دا فولطيرا⁷¹ Mesul-lam da Volterra ويعقوب هاكوهن⁷² Jacob HaCohen وغيرهم⁷³.

فهذا الربى مشولام بن الربى مناحى مدي فولطيرا يقول :

"وصلنا إلى المدينة المقدسة أورشليم يوم الأربعاء 29 يوليو، وحين رأيت خرائبها شققت ملابسى، وارتعشت يدي، وبمرارة فى قلبى أنشدت الصلاة المعينة، قرأتها من كتاب صغير كان معى.." ⁷⁴

أما إسحاق بن يوسف ابن شيلو الذى زار القدس سنة 1334، فقد آثر الإطناب فى وصف البقاع المقدسة يقول :

"نظرا لعشقى لأورشليم، لن أصمت، نظرا لحبى لصهيون لن أهدأ على الرغم من أنى كتبت إليك (متوجها إلى أستاذة) مرتين وثلاثة..." ⁷⁵

⁶⁹ - زار القدس سنة 1210

⁷⁰ - كتب عن فلسطين سنة 1334

⁷¹ - حج إلى القدس سنة 1481

انظر

Viaggio in terra d'Israele, Masa' Meshulam mi-Volterah, Meshulam ben Mena'hem da Volterra, traduzione, introduzione, note e appendice di Alessandra Veronese, Alessandra Veronese; Serie erranti -2, 1989, Luise Rimini

⁷² - زار القدس زمن الصليبيين

⁷³ - أحصت الباحثة إلكا فيبير أربعة عشرة رحلة وصلتنا نصوصها تغطي ما بين القرنين الثانى عشر والخامس عشر الميلاديين. أنظر

Sharing the sites : Medieval Jewish travellers to the Land of Israel, Elka Weber, in *Eastward bound: travel and travellers, 1050-1550*, edited by Rosamund Allen; Manchester University Press, 2004, P:35

⁷⁴ - *Jewish Travellers (1930)*, Sir E. Denison Ross ; Hesperides Press, 2006, P:189

أما الربّي يعقوب بن الربّي نتيال هكوهن فقد اكتفى بمراجعة الأماكن ذات الدلالة بالنسبة لليهود: الهيكل، حصن داود، إسطبلات سليمان... إلخ مسترشداً بالتوراة ومصرحاً بأنه لم يدون إلا ما شاهدته عيناه⁷⁶، لكن الواقف على نص رحلته يحس بالاضطراب الذي كان عليه المؤلف، حيث كان كما من تلقى جرعة عالية من الدواء، وهو يعدد تلك المواقع بسرعة توحى بوضعه المضطرب وسط زخم التاريخ وثقل الموروث، وهما مما تأسر به القدس زوارها.

هكذا يمكننا أن نؤكد أن التعبير عن الإحساس الذي يتتاب حجاج القدس في البداية يتحول إلى ما يمكن وَسْمُهُ بلازمة ضرورية لا تخلو رحلة إسبانية مقدسية منها. ولعل في ذلك ما يؤكد ذلك التعلق بالمدينة المقدسة الذي أشرنا إليه سابقاً والذي غذى الآداب الإسبانية.

وكل ذلك الصمت عند أسوار القدس، وكل ذلك الخفقان، والصلوات، والإطناب في البحث في قدس الحجر عن القدس السماوية، وكل الدموع المذروفة عند رؤيتها من بعيد، والخشوع والرغبة في اغتنام الفضل، هي بقصد تحصيل نوع خالص من السكينة الروحية. وكل الطرق التي عبّر بها من طرف أولئك الرحالين، مثل بعمق داء القدس الخالد.

⁷⁵ - *Jewish Travellers*, Elkan Nathan Adler, Vol 12 Broadway travellers, Reimprinted by Routledge Curzon, 2005, P:130

⁷⁶ - نفس المرجع، ص: 98-99.

القدس والأندلس

ظل الزوار الإسبان للقدس وثيقي الصلة بالأجواء الأندلسية ، حتى إنهم راحو يبحثون عما يحيل عليها في القدس. وقد وقفت في تلك الرحلات على مجموعة من النماذج الدالة على ذلك أورد بعضها فيما يلي :

كان من بين ما أثار الرحالة القطلاني دومينغو باديا Domingo Bada الذي طاف العالم الإسلامي تحت اسم مستعار هو علي باي العباسي⁷⁷ تمسك

⁷⁷ - هناك طبعات عديدة لرحلة علي باي العباسي منها:

Voyages d'Ali Bey El-Abbassi En Afrique et en Asie pendant les années 1803-1807, Tome III, P : 167, Paris 1814.

Viaggi di Ali Bey el-Abbassi in Africa ed in Asia dall'anno 1803 a tutto il 1807, Domingo Badia y Leblich, Tradotti dal Stefano Ticozzi. Con tavole in rame colorate, Raccolta de'viaggi, Vol. 29 , Tip. Sonzogno, Milano ;1816.

Viatjes de Ali Bey el Abbassi (Domingo Badia y Leblich) per África y Assia, durant los anys 1803, 1804, 1805, 1806 y 1807, Domingo Badia y Leblich ; Imprenta La Renaixensa, Barcelona, 1888.

Els viatges d'Ali Bei, Ali Bey, il·lustracions, Núria Tarrau ; L'Atzar (Barcelona), 1984

بعض رجال الدين الإسبان الذين عاشوا في القدس لما زارها سنة 1806 بلغتهم القشتالية قال :

" لقد تحاورت مع قسيس إسباني من مواليد أوكانيا *Ocaña* اسمه رميرث داريانو *Ramirez d'Arellano* وهو امرؤ ذو دعاة ، وبعد بعض الهزل أرسلني إلى المسؤول العام (عن المدفن المقدس) وكان كذلك إسبانيا لألتمس الإذن بفتح الباب".

وهذا التمسك باللغة كان محط اعتبار من الرحالة دومينغو أروسمينا كيسادا ، وهو يحكي أنه بعد طول عناء سفر ، واضطراب نفسي عند رؤية المدينة المقدسة ، وتعدد إجراءات الترخيص للدخول إليها ، وجد نوعا من المتعة حين رأى قسيسين يتحدثون بالإسبانية يقول⁷⁸ :

"إن مما رفع من متعة وصولي إلى المدينة المقدسة ، رؤيتي لرجال دين عديدين من الإسبان يتحدثون كلهم اللغة القشتالية"

أما غريغوريوس أنديس إسبالا فقد أحس كما لو كان في الأندلس حينما وصل مع ركب الحجاج إلى الدار الجديدة. يقول :

"و حين وصلنا إلى خان الدار الجديدة ، كنا تحت الرعاية السامية للفريلي سيغونديو فرنانديث *Fray Segundo Fernandez* نائب الوكيل العام للأماكن المقدسة ، وتحت عناية الفريلية الإسبان. وقد جَعَلْنَا هَؤُلاء ننسى ، وبسرعة ، مَلَلَ يوم مُتْعَبٍ ، إنهم بشوشون ومُتَواضِعُونَ ، مُتَحَضِرُونَ ووقورون ، لم

⁷⁸ - *Sensaciones en Oriente, ó Impresiones biblicas de un granadino en la Tierra santa*, Domingo Arosemena Quesada, Nueva York, Imprenta de Robert Craighead, 1859, P:127

يُزعجوننا بأسئلة تحمل على الكسل. إنهم على العكس من ذلك قليلو الكلام، وذووا تجربة عميقة. وقد أرشدونا إلى أيسر السبل لزيارة ذلك البلد الهام بطريقة مثمرة، كما قدموا لنا تعليمات وأخبارا جعلتُنا نستفيد من الزمن المحدد لهذه الزيارة. وأراحت تلك المائدة الغنية والنقية، وذلك المقام المناسب قِوانا الخائرة"⁷⁹.

وهو يقول في ختام رحلته :

"ولإسبانيا هناك ذكريات لأعجاد سالفة، ولا زالت هناك هدايا عظيمة من ملوكها في كل المزارات، ولها هناك بعثة من الفريلية، وغالبا ما تُنفق هذه البعثة قوتها في إغاثة الفقراء، لكن انعدام الموارد لا يسمح لها تحمل مصاريف ملجأ صغير ترفرف عليه ألوان قشتالة وأراغون وجها لوجه مع ألوان أعلام الشعوب المسيحية الأخرى.."

أما دانييل ماتيث فراندو فقد أفاض في الشاء على الفرنسييسكاني الإسباني الذي كان يرافقه في زيارته للقدس. إنه دمث الأخلاق، لا يحشر نفسه فيما لا يعنيه، وهو على طرفي نقيض مع القسيس الإغريقي الذي كاد يبتزهم داخل المدفن المقدس. وأثناء زيارته لأحد أديرة القدس قال :

"فالأحجار هي نفسها أحجار المأساة يحرسها الفرنسييسكان بحماسة. وبها بعض ذكريات إسبانيا البعيدة.."

⁷⁹ - انظر رحلة إسبانيا في القسم الثالث من هذا العمل. وانظر الصفحة 125 من هذا البحث حيث يصرح روليدو أن بعد أن أنهى جولته ذهب ليقضي أوقاتا ممتعة مع أبناء بلده الإسبان في الدير

وفي مكان آخر تسترعي اهتمامه أشجار الزيتون في الجبل المقدس لتحمله إلى ربى بلنسية التي تُهممها أشجار زيتون مماثلة ، ويطيب الكلام ويعذب حين يتم التحدث في تلك الربوع بالإسبانية. يقول :

"بعد ذلك أشرف أمانا الجبل المقدس يرتفع في شموخ إلى عنان السماء. لقد أشرف منذ عهد قريب إلى الجذب مثله مثل العديد من قمم الربوع الفلسطينية ، لكن يد فلاح خير بلنسي زرعت الأشجار الحالية التي تلتصق في الجبل المائل مثل سحابات صغيرة واضحة. إننا ننظر إليها بحبة متناهية ، ونتنفس بعذوبة ريحا خفيفة تصلنا عبر أغصانها. إن أشجار الزيتون دائما جذابة ، ولها سحر خاص. أما حفيف أوراقها فيجعلنا نتصور أسرار الوجود الغريبة. إنه سر من أسرارها ، وهو بالتحقيق عنصر جاذبيتها.

وتحوّل أشعة الشمس المنسدلة جبل الزيتون إلى شلال من الذهب القديم. وفي سفح الجبل يوجد جشتماني. إنه بستان بسيط ، لكن الداخل إليه يحس بتأثر. خطونا خطوات قليلة مع مرشدنا الذي لا نفارقه ، وخلال ذلك توقفنا عن الكلام بعض الوقت. توجد أمانا أشجار زيتون عتيقة ملتوية ومفتولة ومعوجة بشكل شديد مثل أشجار ميورقة ، كما توجد أشجار سرو قديمة وورود... جمال لا يفسر ولا يوصف. وارتفع معبد في جانب آخر. قدمنا مرافقنا الفرنسيكاني إلى جماعة من الفريلية البلنسيين ، وتقدمنا نحو باب صغيرة. لم يمر علينا وقت طويل لنحس أننا كما لو نقلنا إلى الجبال البلنسية. لقد كان المحيط والفريلية واللغة والمكان والزيتون وهدوء المنظر يبعثون على هذا الإحساس".

في موضع آخر، يحكي روبرتو كيف رأى في عنق فتاة عربية قلادة، لم تكن إلا قطعة نقدية إسبانية تحمل إيقونة فرناندو أب إيزابيلا، وقد انفلج وهم بلمس القطعة لاختبارها لكن الطفلة فرت منه⁸⁰. وقد وجد نفسه حينما راح يلتمس الدخول إلى كنيسة المدفن المقدس ليلا متقدما عن موعد الزيارة بالوقت الفاصل بين إسبانيا والقدس، فهو بقي كما قال على قمر بلنسية⁸¹، وحين ولج قبرا قال في مقارنة عجيبة "إنه أكبر من فرن بلدي ست مرات"⁸²

هكذا راح الرحالون الإسبان يقرنون صور آفاق القدس بصور مماثلة أندلسية إسبانية، إنه البحث عن الامتداد والرغبة في إقصاء المغايرة الباعث عن توليد صور جديدة للقدس فيها من النفس الإسباني ما يسلب عنها شرقية المدن الشرقية، وفيها من الذات الإسبانية ما يُكسب الحجاج الإسبان والقساوسة الإسبان إحساسا بالانتماء العميق إلى المدينة المقدسة.

ولا يفوتنا في هذا الصدد أن نشير أن القدس كان لها صدى مماثلا عند إيبريين آخرين يتعلق بأعمال الرحالين المسلمين واليهود وفي أعمال بعض الموريسكيين مثل ابن الصباح في مرحلة ما بعد صدور قرار الطرد على عهد فيليب الثالث.

فالشريف الإدريسي قارن بين الأقصى ومسجد قرطبة كما ذكرنا، وابن يونة أشار إلى أن كثيرا من الأمم اجتمعت في القدس واختلطت فيها أمم من كل لسان، و كان يتفحص أصل اليهود الذين قابلهم باحثا عن بلدييه. أما



⁸⁰ - انظر النص في قسم الترجمة

⁸¹ - انظر النص في قسم الترجمة

⁸² - انظر النص في قسم الترجمة

الموريسكيون الذين زاروا القدس في طريق حجههم إلى مكة، فقد زاروها وهم يحملون أسي ما خلفوه في وطنهم الأندلس المنصّرة (رحلة ابن الصباح مثلاً)، وكانت بالقدس جماعة موريسكية قال عنهم أندريس دي مونتويا ⁸³ *Andrés de Montoya* أنهم انتقلوا إليها بعد أن مكثوا قليلاً ببلدان المغرب، أما المؤرخ فرانسيسكو خيسوس ماريا خوان ديل بويرطو *Francisco Jesús María de San Juan del Puerto* ⁸⁴ فقد تحدث عن عرقلتهم لأعمال إصلاح المدفن المقدس واحتجاجهم.

وقد أشرنا أعلاه إلى ذلك الاقتران بين القدس والأندلس عند الإيبيريين بوجه خاص، ففي مرحلة من مراحل ما اصطُلح عليه في الأدبيات الإسبانية بـ"الاسترجاع" *Reconquista* اعتبر مسيحيو قشتالة وأراغون حروبهم مع المسلمين في الأندلس حرباً مقدسة، حرباً لصالح الصليب، وفي وقت مبكر من تاريخ ذلك الصراع قام ويليم مونتراي *William of Montreuil* وهو جندي نورماني في خدمة البابا بتجنيد العديد من الجنود من إيطاليا وفرنسا للمساهمة في الاسترداد، ونفس العمل قام به إبلس كونت روسي *Ebles of Roucy* شقيق فليشيا *Flicia* ملكة أراغون ⁸⁵، فجمع جنوداً من فرنسا وأخذ يهاجم شمال الأندلس بمباركة من البابا غريغور. وشكل ذلك مرحلة من

⁸³ - انظر

Breve Nota sobre descendientes de Moriscos en Jerusalén a comienzos del siglo XVIII, Eva Lapidra, Revista Sharq al-Andalus, V 16-17, 1999-2002, P: 363-366

⁸⁴ - انظر المقال نفسه ص: 364-365

⁸⁵ - تاريخ الحروب الصليبية، ستيفن رنسمان، نقله إلى العربية د. السيد الباز العريني، نشر دار الثقافة - بيروت، الطبعة الثانية، 1981، ص: 146-147.

مراحل الحرب التي ستجعل هدفها الأساس بعد سقوط الأندلس سنة 1492 ،
استرداد البقاع المسيحية المقدسة ، واسترداد القدس. وقد ذكرنا أن الملوك
الإسبان جعلوا من بين ألقابهم المتعددة ملك أورشليم. وقد تسمى ملك
أراغون بيدرو الثالث بـ *Rey de Jerusalén* عند زواجه من حفيدة فيديريك
الثاني ، وظل هذا اللقب متوارثا إلى الآن من طرف الملوك الإسبان.



مسجد شيخنا المشهور المشرف على القريّة وبيوتها عام ١٩١٥ م

الصخرة وحدث الإسراء والمعراج

ظلت سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم⁸⁶ حية في أرض الأندلس في أوساط الموريسكيين بعد صدور قرار التنصير القسري للمسلمين بها على يد الملكين الكاثوليكين فرناندو وإيزابيلا. وتناقل هؤلاء الموريسكيون الذين اضطروا في الغالب الأعم إلى إظهار المسيحية وإخفاء الإسلام خوفا من محاكم التفتيش العنيفة علوم الإسلام سرا بلغتهم الأحميادية، وتمسكوا بسيرة الرسول الكريم، وتداولوا فيما بينهم ما ورد من قصة الإسراء والمعراج، تلك المعجزة الخالدة التي كانت القدس مسرحا لها بعد أن أسرى الله عز وجل نبيه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى. وأضحت قصة الإسراء والمعراج من النصوص المتداولة بين الإسبان إلى حد أن ألفونسو العاشر الحكيم Alfonso X Sabio أمر أحد تراجمة مدرسة طليطلة، وهو أبراهام الطليطلي Abrahan el Alfaquin de Toledo بترجمة نصها من العربية إلى

⁸⁶ - أنظر بحث د.مهديه أمنوح المقدم في المؤتمر الدولي حول الاستشراق والدراسات الإسلامية المنظم بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بنطوان بتعاون مع المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة في نوفمبر 1996: "بين الإقصاء والإثبات قراءة في كتابات إسبانية عن السيرة النبوية"، وقد أوردت فيه الباحثة أهم الكتابات الإسبانية التي تناولت سيرة الرسول الكريم وناقشت ما ورد فيها.

الإسبانية⁸⁷. وقد وجه هذا النص المترجم والتعليقات التي حُشي بها أعمال كل الذين ألفوا في سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم من الإسبان، بل تم توظيف معانيه حتى في الآداب الشعبية الإسبانية. وقد وجد الرحالون الإسبان إلى بيت المقدس فيه مرجعا استعانوا به في تمطيط الحكايات المتعلقة بالصخرة المشرفة ومسألة الإسراء والمعراج. ونورد هنا بعض النماذج، ونخالها كافية لتبيان ما طرحناه سابقا من كون تناول الإسبان لموضوع القدس في رحلاتهم مغاير في كثير من جوانبه لتناول غيرهم من الأوربيين لنفس الموضوع. فهي بالنسبة إليهم شرق لكن ليس كما باقي مدن الشرق، كما أنها جزء من ذاتهم الشرقية التي عمقتها الثقافة الأندلسية ومعرفتهم بالإسلام المغايرة لمعرفة غيرهم من الأوربيين به.

قال غريغوريوس إسبالا :

"والصخرة المبجلة من طرف المسلمين موجودة في الحقل الذي اشتراه داود من أرنان اليبوسي، وفيها أكلت نار السماء القربان المقدم من طرف الملك

⁸⁷- *La Escala de Mahoma*. Traducción del árabe al castellano, latín y francés, ordenada por Alfonso X el Sabio. Edición, introducción y notas por José Muñoz Sendino. Madrid, Ministerio de Asuntos Exteriores, 1949

وانظر

La Escala de Mahoma según la versión latina del siglo XIII de Buena Ventura de Siena, Prólogo de María Jesús Viguera Molin, ed.Siruela

وانظر تأثير هذا الكتاب في الكوميديا الإلهية لدانتي في

Il "Libro della scala" e la questione delle fonti arabo-spagnole della Divina Commedia, A cura di Enrico Cerulli, Città del Vaticano, Biblioteca Apostolica Vaticana, 1949.

وانظر

El libro de la Escala de Mahoma. Relaciones, contextos españoles del Medievo y el Renacimiento tesis doctoral presentada en la Universidad de Sevilla .

النبي. وعليها وُضِعَ تابوت العهد مدة خمسمائة سنة في هيكل سليمان. ولذلك سموا ذلك المكان قُدُس الأقداس الذي لا يمكن لأحد أن يقترب منه إلا الكاهن الأعظم يوم الغفران مرة كل سنة. وغرب الصخرة يُميز أثر يد. وتُفسر الرواية الإسلامية هذا الأثر كما يلي:

لما احتاج محمد أن يصعد إلى السماء، ركب البراق العجيب، وهو فرس أبيض اللون أهده له جبريل، فاستعمل الصخرة من أجل الصعود إلى حمى الرب، وشرع في الارتقاء إلى درجة لم يسمح الرب بالمزيد حتى لا يحرم العالم من تلك الجوهرة (أي الصخرة)، وقام الملاك بإيقافها، وبصمة اليد هي للحامي السماوي محمد. ويرشد المسلمون إلى راية ومقعد الفرس المُستعملين في ذلك المعراج السماوي.

وقرب الصخرة توجد خلوة صغيرة دائرية مكسوة بيشب ثبت فيه الرسول تسعة عشر مسماراً من الذهب تُبين ما بقي من عمر العالم. وبعد قرن من ذلك ائترع مسمارٌ واحدٌ، ويقال: إنه اختفى ليدعم عرش الرب. وحاول الروح الشرير الراغب في التعجيل بنهاية العالم سرقة المسامير المتبقية في يوم من الأيام، غير أن الملاك جبرائيل فاجأه وطرده من هذا المكان إلى الأبد.

ولم تبق إلا ثلاثة مسامير اختفى آخرها منذ خمسين سنة خلت. وهم يعتقدون بنفس الطريقة الشكلية، أن الصخرة المشرفة مُعلقة في الهواء دون ركيزة، اللهم النخلة المخفية المحمولة بأيدي النبيين الكبيرين عيسى المسيح ومحمد. ويحول حائط قوي دون تمكن الناس قليلي الإيمان من التحقق من صدق هذه الحكاية.

لكن المؤمنين بذلك الأمر لا يترددون في الاعتقاد حينما يلاحظون صدى تلك الأحجار ، أن التجويف المفترض شبيه ببئر الأنفس التي يجتمع فيها المختارون الذين يذهبون إلى الجنة لينعموا بجوار الرب.

ويوجد الرواق حيث يُعلق الميزان الذي سيزن حسنات وسيئات الناس يوم الحشر جنوب المسجد. وهناك سيجتازون الصراط. وهذه القنطرة تمتد من مسجد عمر إلى قُنة جبل الزيتون ، وهي تعلو وادي يوشافاط. وهي رقيقة كحد سكين الحلاقة. وهذه الدقة تجعلها غير مرئية من طرف كثير من الناس. يجتازها الصديقون بمساعدة الملائكة دون أدنى خوف ، أما المذنبون الذين لا مُساعدة ربانية لهم فيسقطون في الأعماق حين يهتمون باجتيازها فيُعانون من شر خطاياهم"

ولعل قارئ هذا النص يقف على التمثيط الذي طال حدث الإسراء والمعراج من طرف هذا الرحالة ، وكيف خلط كلامه ببعض الحكايات الشعبية ليخدم الصورة التي استقرت لدى الإسبان حول سيرة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم خلال وبعد حملات ما سمي بالاسترداد.

إن هناك رغبة دفينة للإقصاء تنقلب إلى إثبات لنبوة محمد صلى الله عليه وسلم. إن حدث الإسراء فرض نفسه بالحاح على الحاج الإسباني إلى القدس ، وهو وإن كان حاول التملص منه بذكر أن قدسية الصخرة ترجع إلى كونها كانت المكان الذي وُضع عليه تابوت العهد خلال خمسمائة سنة في هيكل سليمان ، لم يستطع تجاهل مرور الرسول الكريم من تلك النقطة من الأرض ؛ وقد سبق لنا أن أشرنا إلى أن الهيكل ارتبط في الذاكرة الإسبانية

- بعد استرجاع صلاح الدين الأيوبي للقدس ، وبعد أن قرن ملوك إسبانيا أسماءهم بأورشليم فسموا بملوك أورشليم - بآداب إسبانية حول الهيكل⁸⁸ . وتتجلى الرغبة في الإقصاء في كثير من عبارات النص . والمثير في كلام إسبالات قصة المسامير الذهبية المرتبطة بعمر العالم حسب رأيه ، وقصة النخلة المحمولة بأيدي عيسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم ، والتي عليها تستند الصخرة المشرفة ، وقصة ميزان يوم الحشر . لقد حرص إسبالات على إيراد هذه القصص والتفاصيل إشباعا لرغبة القارئ الإسباني أولا وانسجاما مع أدبيات راجت حول تلك المواضيع في شبه الجزيرة الإيبيرية ثانيا .

وحرص الرحالون الإسبان على ترديد أفكار شبيهة بما أورده الرحالة إسبالات⁸⁹ ، أما الرحالة أريباس سيفيرو *Arribas Severo* فيتحدث عن الصخرة المشرفة وحدث الإسراء أثناء حديثه عن مسجد الصخرة⁹⁰ ، وهو بعد أن ذكر أن الصخرة هي الصخرة التي وجد بقربها آدم حواء بعد أن تاهوا في الأرض مائة سنة ، قال إن الشرق هو بلد الأسطورة والشعر ، واسترسل عارضا

⁸⁸ - من الذين ألفوا في موضوع هيكل سليمان وقرنوه بهياكل الملوك الإسبان التجريبية مثل الإسكوريال نجد: في القرن السادس عشر *Juan Calvete de Estrella* و *fray julio de Tricio* و *fray diego de la Cruz* و *luis de Gongora* و *diego Pérez de Mesa* و *Vergara* و *fray Juan de la Cruz* و *fray Alonso de Cabrera* و *Morigi Milanesi* . ومن الذين ألفوا في نفس الموضوع في القرن السابع عشر نجد: *fray Juan de Salazar* و *Fray Jeronimo de Seplveda* و *baltasar Porreo* و *Cordoba* و *Don Diego Enriquez* و *fray Juan de Avellaneda* و *Juan de Caramuel* و *fray Luis de Santa Maria* و *Francisco de Santos* . ومن الذين كتبوا فيه في القرن الثامن عشر نجد *Fray Andrés Ximénez* . أما من القرن التاسع عشر فنجد *José Antonio Rotondo* و *Quevedo* .

⁸⁹ - انظر مثلا ما قاله الفريلي أنطونيو ديل كاستيو في رحلته *El devoto peregrino* ، ص: 103

⁹⁰ - 159-162 : *Arte y Fe*, P

لقصة الإسراء، واعتلاء الرسول للصخرة، وأثر قدمه الشريفة عليها و ذكر أن عليها شعرتان من لحيته، وأثر يد جبرائيل، ويجانب ذلك لواء عمر.. أما لويس ريبس بلانك، فقد تحدث عن الإسراء قائلاً⁹¹:

"إلى هنا جاء محمد من مكة راكباً على بُراق، لقد قام بالرحلة في ليلة واحدة. بحث عن الصخرة التي قرب عليها إبراهيم إسحاق، فصلى فوقها وخرج إلى السماء مع الصخرة. وكان على الملاك جبريل أن يتعلق بالصخرة حتى يعيدها إلى الأرض، وقيت بها بصمة محمد، وعلامات أيدي الملاك". وإيراد هذا الرحالة لهذه الحكاية جاء لوضع ميهاذ يُمكنه من طرح استنتاج بنى عليه الفصلَ المعنونَ "الحرم الشريف" كله، وهو أن ذكر إبراهيم وإسحاق ومحمد وجبرائيل في قصة واحدة يحمل على استنتاج مفاده: إذا كانت القدس عقبة أمام سلام نهائي بين الفلسطينيين والإسرائيليين، "فإن ساحة الحرم حيث المساجد بالنسبة للبعض، والهيكل بالنسبة للآخرين هي نقطة احتكاك وصدام"⁹².

⁹¹ - *Viaje a Palestina*, P :71-72

⁹² - نفسه، ص: 72.

القدس والتحول

القدس فضاء مقدس ، وليس هناك من زوار القدس من لم يصرح بهذه الحقيقة ، ويكفي أن يفكر المرء في التوجه إليها لتنساب في مخيلته لوحات من عظمتها وقوة فعلها في التاريخ. وقد سبق لنا أن قلنا أن القدس مدينة مؤرخة ، وربما كان لأجل ذلك لاحظنا تهاب الوافدين عليها منها لمجرد أن تلوح لهم في الأفق. ورغم اختلاف عقائد الوافدين عليها تظل القدس جامعة ومتماسكة ، فتاريخها واحد لا تنفك حلقاته ولا تنفصل ، وليس هناك من يمكنه تصور تاريخ للقدس يجعله وحده يستأثر بسحرها ويتشي بقدسيته. فزيارة المسيحيين للقدس تذكر للمسيحية الأولى ولآلام السيد المسيح ، وهي كذلك تحقيق لرغبة في الاجتماع دعا إليها عيسى عليه السلام

حينما قال: "أورشليم أورشليم، ياقاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها، كم مرة أردت أن أجمع أبناءك مثلما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها..."¹. وهي مسرى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم، وبها أولى القبلتين وثالث الحرمين، وهي أرض المحشر والمنشر، وهي بذلك حافظة للخط التوحيدي الذي دعا إليه الإسلام من آدم إلى محمد خاتم النبيين. ومع هذه الدعوة التوحيدية التي تعتبر القدس عنوانا لها تحقق تاريخ القدس المصارعة لكل الدعاوى الشريكية والاستكبارية.

وعكسَ المسلمين والمسيحيين، استخدم اليهود القدس وسيلةً لتبرير التناقضات التي طالت حدث الانتقال من دولة الأنبياء إلى سلطة سلطة الأحبار. وقد حاك هؤلاء الأحبار سلسلة من الأساطير حول القدس ظلت تتفاعل وتتعدد عقودا عديدة، لتُصبح القدس عنوانا لـ "الدولة" بعد أن اغتصبوا فلسطين، وحققوا حكايات اجتياح المدائن الفلسطينية فأحرقوا ودمروا، لكن القدس ظلت عصية على أن تلبس جبة الأسطورة الصهيونية، فقاومت أحجارها السنين وأيدي العابث المحتل، لتُعلن عند كل فجر وظهر وعصر ومغرب وعشاء نداء القدس التوحيدي ولتتجاوب مع صدها نواقيس كنيسة القيامة وتتألف الفصائل المسيحية التي طالما تطاحت في فترات سابقة لتحظى بشرف صيانة بقية مما ترك السيد المسيح.

وعلى الرغم من بروز القدس في كتابات الرحالين الإسبان فضاءً مقدسا، فإن اهتمامهم انصب على مواقع بعينها مثل: كنيسة القيامة، طريق

¹ - إنجيل متى، الإصحاح الثالث والعشرون، 37.

الآلام، بستان جشتماني، جبل الزيتون، ومرتفع الحرم الشريف، وبعض الكنائس والمزارات الصغرى. وشكلت الأسواق المقدسية فضاءات مقدسة من درجة ثانية، فكل ما هو معروض فيها مرتبط بالطابع المقدس للمدينة المقدسة.

ووقوف هؤلاء الرحالين على الفضاءات المقدسة المقدسية، مكن من التأريخ لتلك الفضاءات انطلاقاً منها خلال المائة والخمسين سنة الأخيرة. أي خلال الفترة العثمانية، ثم فترة الانتداب البريطاني فترة تقسيم فلسطين وفترة الاحتلال الإسرائيلي وصدور ما يسمى بقانون القدس الموحدة أو العاصمة الأبدية للكيان الصهيوني.

وسوف أعرض هنا لأهم ما أورده هؤلاء حول تلك الفضاءات المقدسية التي تأثرت بفعل الصراع والحرب في فلسطين.

يقف الرحالة لويس ريس بلانك على حادث تحطيم باب "ستي مريم"⁹³، فقد حدث في السابع من شهر يونيو من عام 1967، في اليوم الثالث من الحرب الموسومة بحرب الأيام الستة، قال: إن جينرالا يدعى مردخاي موتا غور، قائد سلاح المظللين الإسرائيلي، اعتلى ذبابة واتجه في أقصى سرعة نحو باب ستي مريم، ولم يتوقف إلا والباب هشيم. وانطلاقاً من تلك البوابة تم التسلل إلى داخل المدينة نحو حائط البراق.

يقول بلانك: وبعد أن احتل الإسرائيليون القدس أصبحت ساحة الحرم الشريف تحت إمرتهم، لكن لما كان الحرم الشريف يضم مقدسات إسلامية،

⁹³ - رحلة إلى فلسطين، ص 39-45.

فقد رأى الإسرائيليون أنفسهم كما لو كانوا مستقصدين من طرف عقاب
ميثولوجي. فقد بقي الحرم محرماً عليهم كما في زمن الأتراك والصليبيين
والرومان.⁹⁴

يقول بلانك: "الإثيمولوجيا كما الطبونيميا والأركيولوجيا في فلسطين
أسلحة مميتة"⁹⁵. وعليه فإن ما لم يتمكن الصهاينة من الاستحواذ عليه بالقوة
وتهويده التمسوا سلاح الأركيولوجيا لتدميره والوصول إليه. وهنا يُطرح
موضوع غاية في الأهمية. ويتعلق بالخطورة التي تشكلها تلك الممرات التي
شجعته السلطات الإسرائيلية تحت الحرم الشريف. يرى بلانك أن بيعه
الحائط *Sinagoga del Muro* صاروخ يوشك بالانفجار، وكل شيء بالحرم
الشريف قابل للاحتراق كما لو كان ذلك المكان مخزناً عظيماً من الغاز
والبارود.⁹⁶

لقد حاول المتعصبون اليهود أكثر من مرة وضع متفجرات داخل الدهاليز
تحت أرضية لساحة الحرم في الأوقات التي يعمره فيها كثير من الفلسطينيين.
ففي سنة 1982 قام عضوان من جماعة غوش إيمونيم، وهما إيتزيون *Etzion*
وليفني *Livni* ومعهما قبالي يدعى يهوشع بن شوشان *Jehoshua Ben Shoshan*
بإعداد مخطط لتنفيذ التفجير، وحصلوا على كميات من المتفجرات من
معسكر في الجولان، وقدروا أن الساحة يمكن تفجيرها بثمانية وعشرين
رزمة.⁹⁷

⁹⁴ نفسه، ص: 73.

⁹⁵ نفسه، ص: 235.

⁹⁶ - نفسه، ص: 75.

⁹⁷ - نفسه، ص: 75-76.

وفي مناسبة أخرى سمع أحد حراس الحرم أصواتا غريبة تنبعث من بئر، أخطر الحراس، فلما نزلوا إلى أسفل البئر وجدوا رجال الربى جويت *Guetch*، وكان هذا الأخير هو الذي أسس بيعة الحائط التي أشرنا إليها آنفا. وبعد عراك، قررت السلطات الإسرائيلية إغلاق أبواب البيعة المذكورة المؤدية إلى الدهاليز تحت أرضية للحرم الشريف.

لكن الأخطار تجددت من جديد مع فتح ممر الأشمونيين في شهر شتبر 1996. وتسبب ذلك في مصادمات مع قوات الاحتلال قضى نتیجتها ثلاث وسبعون شخصا.

وشكلت منطقة الحرم مكانا للصراع منذ أواخر العهد العثماني، فبعد المساعدة التي تلقتها الدولة العثمانية من دول أوربا الغربية في حربها مع روسيا، اشتد نفوذ القناصل في القدس، وأصبحت وفود الحجاج الأوروبيين تزور حتى ساحة الحرم الشريف بحراسة تركية، وقد نقل إلينا غريغوريوس أندريس إسبالا صورة للنساء والأطفال وقد وشكلوا حاجزا بشريا ووقفوا ضد من يرومون تدنيس الحرم. يقول:

"دخلنا باب السلاسل التي تُفضي إلى تلك الساحة الواسعة حيث يلمع مسجد عمر بأناقة. ولم تكن الحراسة أمرا زائدا، فبمجرد اقترابنا من المسجد المذكور حاولت سحابة من النساء والأطفال منعنا وعرقلة تقدمنا بأصواتهن وتهديداتهن. ولكن الكواس والجنود كانوا يُمهدون الطريق ويفتحون لنا

سُبُلًا ضيقة بين ذلك الجمهور الهائل من الأتراك من الجنسين الموجودين في الساحة المذكورة"⁹⁸.

وقبل ذلك بثلاثة قرون وصف الرحالة الإسباني فرانشيسكو غريرو *Francisco Guerrero* مشهدا مماثلا قام فيه المقدسيون برمي الحجارة وشتم الزوار الذين راموا زيارة الحرم معتقدين أنه مكان الهيكل السليماني.

ومن الموضوعات التي ترددت عند الرحالين الإسبان لما بعد سنة 1967 مسألة هدم حي المغاربة. يقول لويس ريس بلانك :

" في ليلة السبت العاشر من يونيو 1967 ، بعد ثلاثة أيام من اجتياح القدس الشرقية من طرف الجيش الإسرائيلي توجهت الجرافات الإسرائيلية نحو حي المغاربة الذي ضم ساكنة من المغرب منذ القرن الثاني عشر الميلادي. لقد أعطى الإسرائيليون مهلة ثلاث ساعات لسكان ذلك الحي الذين كان يقدر عددهم بـ 619 نسمة ، أمروهم بمغادرة الحي. وفي خضم صراخ النساء والولدان شرعت الجرافات في هدم حي المغاربة ومعه المدرسة الأفضلية التي تعود إلى القرن الثاني عشر"⁹⁹.

ولعل التحول الديمغرافي هو من أهم ما طرأ على مدينة بيت المقدس ، وقد وجدنا صدى ذلك يتردد عند أولئك الرحالين الإسبان الذين انتخبنا رحلاتهم أساسا لهذا العمل.

فإسبالا الذي زار القدس سنة 1870 ذكر أن عدد ساكنة القدس هو زهاء 21000 ، قسم هذه الساكنة حسب الانتماء العقدي ، المسلمون 7565 نسمة ،

⁹⁸ - أنظر تفاصيل هذا الحدث في رحلة إسبالا ضمن الترجمة التي قدمناه في الجزء الأخير من هذا الكتاب.

⁹⁹ - رحلة إلى فلسطين، ص: 92.

اليهود 8000 نسمة ، الكاثوليك 1500 نسمة ، الإغريق المنشقون 2800 نسمة ، الأرمن 510 نسمة ، البروستانت 300 نسمة ، الأبيسينيون 75 نسمة. ونسبة اليهود التي بدت عالية حسب إسبالاتمكن في كون القدس شهدت وفود فرق عريضة من اليهود السيفرديين المهجرين من الأندلس ، وقال إن هؤلاء مسجلون في القنصلية الإسبانية في القدس على أنهم إسبان. وحين نقارن تلك الإحصاءات بما أورده المرحوم روهي الخطيب في كتابه المختصر في جغرافية القدس¹⁰⁰ أي بعد ثلاث وخمسين سنة من رحلة إسبالاتقف على أن تلك الأعداد قريبة من الصحة. فساكنة كل لواء القدس هي 262198 نسمة. وهي مقسمة إلى ما يلي :

155333 مسلما ، و 62517 يهوديا ، و 42685 مسيحيا ، و 1242 هنديا ، و 405 من السيك ، و 8 دروز ، و 8 سامريين. وهذه الساكنة تشمل ساكنة قضاء القدس ، وقضاء رام الله ، وقضاء بيتن لحم ، وقضاء أريحا ، وقضاء يافا ، وقضاء الرملة. وبالتالي تبقى الأرقام المقدمة من طرف إسبالاتمقبولة جدا.

وحدث بعد العدوان على القدس من طرف المحتلين الصهاينة أن تم التضييق على الساكنة المسلمة والمسيحية في القدس ، وأجبر العديد من المقدسيين من مغادرة بيت المقدس. وقامت سلطات الاحتلال بتطويق المدينة بالمستوطنات ، واستقدمت جحافل من الأثيوبيين والفلاشا إلى المدينة ، وهو الأمر الذي استرعى نظر الرحالة لويس ريبس بلانك فكتب فصلا في رحلته عن التخطيط ، الأركيولوجيا والتطهير الإثني ، فوقف على ما يقوم به زهاء

160000 مستوطن من جماعة كاخ الإرهابية. كما كتب فصلا آخر حول أثيوبيا وفلسطين، تعرض فيه إلى تلك الساكنة التي تم نقلها إلى القدس خاصة وفلسطين عامة من أثيوبيا في تلك العملية التي وسموها "عملية موسى" التي مدعين أنهم عثروا على قبيلة دان.

نصوص شاهدة

القدس كما رآها فرانسيسكو غريرو

ترجّلنا كلُّنا، الحجاجُ اللاتينُ والإغريقُ، قَبَّلنا الأرضَ مراتٍ عديدةٍ شاكرينَ الربَّ كثيرا، وتنهدنا أَلْفَ تنهيدةٍ عميقةٍ، وكلُّ فردٍ عبرَ عن إخلاصه للمدينة المقدسة مُردِّداً مراتٍ عديدةٍ: "مباركةٌ يا مدينةُ السلام".

في هذه اللحظة، كان مسيحي يُسمى بَوْتَيْسْتَا يقوم بالترجمة بين الفريلية والعرب والأتراك، كان يتحدث الإيطالية، وقد خرج للقائنا لأن الأب الوصي كان على عِلْمٍ بمجيئنا. ولما وصلنا إلى باب المدينة أُجْلِسْنَا وانتظرنا إذْ الأب الوصي الذي جعله البابا على رأس اللاتين بهذه المدينة.

بعد نصف ساعة جاء فريليةٌ إيطاليون، حَيَّوْنَا باسم الأب الوصي ورحبوا بنا ثم انصرفوا ووعدونا بالرجوع بعد أن يُعْلِمُوا الأتراك ويُرَخِّصَ

هؤلاء لنا بالدخول. وقد أتى هؤلاء الأتراك إلينا ليروا ملابسنا وما لدينا من متاع. كانت أمتعتنا قليلة، ليس فيها إلا ما يليق للحاج.

وبعد رؤيتنا، سمحوا لنا بدخول المدينة، وأدى كل واحد منا قطعتين ذهبيتين. أما الإغريق، فلما كانوا من خدم وأتباع سلطان الترك، فقد دخلوا بعد ذلك، وتوجهوا نحو طريقهم. عاد الفريلية إلينا، وكُنّا ستة لاتينيين. دخلنا المدينة المقدسة يوم سان مَاوريسِيُو في الثاني والعشرين من سبتمبر سنة ثمانية وثمانين وخمسمائة وألف بعد أن مضى على خروجنا من مدينة البندقية سبعة وثلاثون يوما.

أَخَذْنَا الفريليةُ إلى الدير المسمى سان سالفادور ؛ وهو الدير الرئيسي في كل المدينة المقدسة. انتظرنا في موكب كل رجال الدين بالدير وأنشدنا " نحن نُثني عليك يا إله " *Te Deum laudamus* ، وتوجهنا إلى الكنيسة وهي في الطابق العلوي من الدار، وبعد الصلاة، ورد علينا فريلي وباللغة الإيطالية ألقى خطبة مؤثرة ذكر فيها لطف ربنا بنا حيث أتى بنا لرؤية تلك الأماكن المقدسة، وكيف ينبغي لنا أن نغتم ذلك ونعترف بذنوبنا ونُناجي.

بعد الانتهاء من هذه الموعظة، أخذونا في موكب إلى غرفة حيث غسلوا أرجُلنا بمناجاةٍ شديدة وهم ينشدون تراتيل وصلوات. وبعد الفراغ من الغسل، قدموا لنا العشاء، ثم صحبونا إلى بعض الغرف، وأشاروا لكل واحد إلى سريره، فمنا واسترحنا ونحن في غاية الفرح إذ أن الرب خَصَّنَا بهذا الفضل الذي لا يَمُنُّ به على الكل ولو كانوا ملوكا وأمراء يرجونه.

في اليوم الموالي استعدنا للاعتراف، وقد أعطى الأب الوصي السلطة للقائمين على اعترافنا لتبرئتنا بشكل كامل لأنه يمثل البابا، ولما أريناه وثائقنا الكهنوتية لقول الصلاة، رخص لنا.

توجد في هذه الكنيسة مذابح ثلاثة، وهي مفضلة، وهذا ما يأخذ نفسنا من العذاب.

بعد الفراغ من ذلك، أَوْعَزَ لنا باتباع فريلي^{*} تقي وفاضل يُدعى سلاندريا، وهو إيطالي أقام بالأرض المقدسة مدة عشرين عاما. وهو وصديق له، إضافة إلى بوتيسا الذي أشرنا أعلاه أنه مترجمنا يتحدث إلى العرب بلغتهم العربية، يحموننا من شرار الأطفال الذين يرموننا بالحجارة في الشوارع، وإضافة إلى ذلك يعلمنا هو بما يتعين علينا فعله، كأن لا نسعل ولا نبصق حتى لا يظن العرب أننا نستهزئ بهم.

شرعنا بفرح شديد وخشوع في محطات الزيارة، ستة حجاج وبعض الفريلية الذين وإن كانوا رأوا تلك الأماكن المقدسة يجتهدون في العودة إليها لاغتنام الغفران الذي يتحقق فيها.

المحطة الأولى كانت إلى كنيسة الرسول سانتياغو، حيث دُبِحَ هذا الأخير. وهي كنيسة للأرمن عظيمة جدا، وحسنة البناء. ومصلى المذبح هي على يسار مدخل الكنيسة، ويوجد بها أسفل المذبح قطعة من المرمر لمسناها ووقرناها. وللأرمن بيت جيد متصل بهذه الكنيسة، وهو لهم بمثابة دير.

من هنا توجهنا إلى بيت أناسٍ وهو المكان حيث جيء إليه بالمسيح بعد حبسه. وهي كنيسة للأرمن. هنا كان حيث صفعوا المسيح. تبدو هنا زيتونة قيل إن المسيح رُبط بها في انتظار خروج أناسٍ لرؤيته. يُوجد خشوع كبير هنا. وينبغي أن يُعلم، أن أول ما يُفعل عند كل المزارات في الأرض المقدسة، ترديد نشيد أو شعر أو صلاة؛ والكل يأخذ كتابا معه بذلك لتلك الغاية، وبعد الصلاة بـ *Pater noster* و *Ave Maria* يبدو لنا سر ذلك المكان.

من هنا ذهبنا إلى بيت قيافا، وتوجد به كنيسة في المكان الذي اتهم فيه المسيح وأشياء أخرى يضيفها الإنجيل. زرنا المنبر الأكبر وغطاؤها هو الحجر الذي كان عند المدفن المقدس، والذي استشكلت مريم ومريم المجدلية أمره متسائلتان عن من يزيحه للدخول لأن طوله حوالي عشرة أذرع وعرضه أربعة أذرع وشيء.

وفي هذه المصلى، توجد غرفة صغيرة في الحائط تسع لشخصين، وللدخول إليها يتعين الانحناء لأن الباب جد صغيرة، وهو المكان الذي حُبس فيه المسيح بينما كان الكاهن يخرج لمقابلته. وخارج هذه الكنيسة، يوجد على مقربة منها فناء به شجرة نارنج، وفيه كان مبعوثو قيافا ينتظرون على نار، وحيث أنكر القديس بيدرو المسيح.

ومن أعلى تلك الدار (التي هي خارج أسوار المدينة قليلا) صلينا وغنمنا فضل العليّة المقدسة القريبة منها على قمة جبل صهيون، والذي هو من هذه الجهة أقل علوا من المدينة. لم ندخل العلية لأنها أصبحت الآن مسجدا. هنا

كان عشاء المسيح وسر الكنيسة المقدس ، حيث غسل المسيح أقدام تلاميذه ،
وحيث أتى الروح القدس يوم عيد العنصرة ، وحيث كانت تسكن سيدتنا .
كانت هذه العلية ديرا يسكنه الفريلية الفرنسييسكان ، وقد أخذه منهم كبير
الترك قبل ثلاثين سنة . والسبب ، أن بعض اليهود قالوا له إن قبر داود يوجد
هناك وإنه لم يكن من المعقول أن يمس المسيحيون قبر النبي والملك داود . وبما
أن الأتراك يبجلون أنبياء العهد العتيق ، أمر للفريلية بدار وسط أورشليم .
هكذا دخلوا المدينة واقتنوا دارا جيدة ، وهي حيث يعيشون الآن والتي تسمى
سان سالفادور كما أسلفنا . وإن كانت تقع في مكان مرتفع مثل الحصن . الذي
هو قلعة المدينة ، فإن الأتراك قد هدموا قسما كبيرا من الدور المرتفعة لأنها لم
تكن ملحقة بالحصن ، هكذا ما كانت في السابق دُورا هي الآن سطوحا .

وهذه العلية المقدسة كانت المنزل الملكي ، وكل ما أُخلي من حَوَالِيهَا ،
كان القسم الرئيسي من بلاط الملك داود وباقي الملوك . الآن يوجد فيه فقط
بيت وكنيسة العلية المقدسة ، والباقي خال .

عند الخروج من منزل قيافا ومن المدينة ، نزولا قليلا في جبل صهيون إلى
الشرق ، يوجد المكان الذي حمل فيه الرسل جثمان سيدتنا العذراء فاعترض
اليهود طريقهم وأرادوا أخذه منهم وحين اقتربت يد كاهن منهم إلى النعش ،
تصلبت ذراعه ثم عادت كما كانت فانقلب إلى عقيدة المسيح . ليس هناك أي
أثر لهذا الضريح إلا كومة من الحجر . هنا توجد فضائل عديدة .

نزولا مع جبل صهيون، بجانب صور المدينة، يوجد المكان حيث كان سان بيدرو يئن *flevit amare* ويبكى بمرارة. وإلى الأسفل قليلا، نصل إلى السور القديم حيث توجد دار كبيرة وكنيسة مثل دير، والجانب الذي رأينا منه غاية في الجمال، وفي أعلى الحصن يوجد هلال كبير من حديد. وهذه الكنيسة هي في المكان الذي ذهبت إليه سيدتنا العذراء في طفولتها مع باقي العذاري.

وهي الآن مسجد رئيسي للمسلمين، وهي داخل المجال حيث كان هيكल سليمان داخل الأسوار.

بالنزول مما بقي من جبل صهيون، رأينا وادي يهوشفاط، ومنه علينا أن نتابع المحطات في الجانب الآخر من المدينة. عدنا إلى ديرنا دير سان سالفادور ومنه سنتابع.

في اليوم الموالي شرعنا في زيارة ما بقي من المحطات، أتينا من طريق الآلام، وهي الأزقة التي أخذ فيها المسيح للموت حاملا الصليب من منزل بيلاطس إلى الجلجثة. تركنا على يسارنا كنيسة الجلجثة والمدفن المقدس لم ندخل إليهما لأننا احتفظنا بهما للمحطة الأخيرة.

رأينا البيت الذي يقال إنه للسيدة التي بفضل سيدنا ترك أثر وجهه المقدس في قماش لها من طرفين، نرى أحدهما في روما ويسمى *el Vulto Santo* ويوجد الطرف الثاني بكنيسة جيان بإسبانيا. رأينا في هذا الشارع منزل الرجل الغني الذي رفض إعطاء الفقير الأعمى من فتاته.

ورأينا المكان حيث أخذ القيرواني صليب المسيح ليساعده على حمله ،
هنا في نفس هذا الزقاق بكت النسوة المسيح فأجابهن: *filiae Hierusalem* بنات
أورشليم إلخ.

رأينا بعد ذلك منزل بيلاطس ، ويبرز منه قوس به نافذتان وهو من حجر
ذلك الوقت ، ومنه أظهر بيلاطس المسيح للشعب قائلا: "*Ecce homo*" هو ذا
الإنسان."

وتحت هذا القوس يوجد الزقاق الرئيسي. ودار بيلاطس هذه هي اليوم
بيت للعدالة .

وهناك مزارات عديدة مهدمة ذات أسرار كثيرة. ومن تلك المزارات ،
المكان حيث رأت سيدتنا المسيح حاملا للصليب على كتفيه ، فأحست بألم
هو من أكثر الآلام مرارة مما يمكن تصوره. وفي كل هذا توجد كثير من
الفضائل.

رأينا قريبا من هذه الدار في الشارع الذي بعده ، بيت الملك هيرودوس ،
حيث بعث بيلاطس المسيح ، وحيث سيُهان المسيح من طرف الملك وجيشه ،
وسيلبس ثوبا أبيض ليعاد إلى بيلاطس.

رأينا سجن القديس بيدرو ، من حيث أخرجه. هنا يوجد جزء من كنيسة
جيدة البناء.

واصلنا طريقنا عبر هذه الأزقة حيث سكب المسيح دمه الزكي، رأينا هيكل سليمان، دون أن ندخل إليه (لأنه ليس لأي مسيحي إذن بذلك، وإذا دخل بمحض رغبته ستكون حياته ثمنا لذلك، أو يكون عليه أن يرتد عن عقيدتنا) رأينا الصهريج الذي بجانب ذلك الهيكل حيث أشفى المسيح ذلك المريض ذي الثمانية والثلاثين سنة من مرضه، وهو اليوم بدون ماء قد ملأه العشب والأشجار الطفيلية، وهناك نموذج للأبواب التي كانت في ذلك الزمان.

وهذا الصهريج هو بجانب باب المدينة، قريب من منزل القديس خواكين والقديسة هيلانة آباء سيدتنا العذراء، وحيث كان حملها المقدس. هنا، دخلنا إلى هذا المكان المقدس، وهو يكاد يكون تحت الأرض، وأغلب المباني هكذا عامة؛ فمع تقادم الزمان، نمت الأرض وسقطت بعض المباني على أخرى.

خرجنا من باب المدينة (وتسمى باب سان إشتبان) نزلنا قرابة ستين خطوة فوجدنا علامة من أحجار عديدة في المكان حيث رُجم.

عن وادي يهوشفاط

نزولا بإثنتي عشرة خطوة أخرى، نصل إلى وادي يهوشفاط وهو جد ضيق. وهذا الوادي يفصل بين جبل الزيتون وجبل صهيون أو أورشليم، وكل ذلك شيء واحد؛ لأن المدينة بنيت على جبل صهيون المذكور فيبدو ذلك الوادي كما لو كان خندقاً للمدينة. وهو في الوقت الحالي جاف، ويقولون إنه يصبح مليئاً حين الأمطار؛ لأن المياه التي تنزل من جبل الزيتون وجبل صهيون تجتمع في هذا الوادي.

وتوجد فيه أشجار زيتون جيدة وبعض أشجار التين والبقل. وأول ما نزوره بعد المرور من جسر يوجد هناك، كنيسة جميلة جيدة البناء من حجر منحوت. حين ندخل إليها، ننزل في سلم واسع من حوالي أربعين درجاً. يوجد على يمين السلم قبران في مصلى، أحدها للقديس خواكين، والآخر للقديسة هيلانة أباء سيدتنا. وفي الجانب الآخر، في المصلى المقابلة يوجد قبر القديس يوسف زوج العذراء سيدتنا.

وفي المصلى الكبيرة، ووسطها من دون لمس الحيطان كما في جزيرة، توجد مصلى صغيرة لا تسع لأكثر من ثلاثة أشخاص، وبها القبر السعيد لسيدتنا؛ إنه هذا القبر من الحجر المكسو بالزليج، صلينا أمامه. ومفاتيح

هذه الكنيسة المقدسة بيد الفريلية الفرنسيسكان ولباقى الشعوب المسيحية أن يدخلوها متى شاؤوا. أغلقنا الأبواب من الداخل حتى لا يدخل الأتراك والعرب ويفتنونا ، وهكذا أدينا نحن أربعة قساوسة صلاتنا في هدوء على قبر العذراء. وأداء الصلاة هنا هدية كبيرة ومغرم لكسب فضائل عديدة. والشعاع الموجود هنا هو من نافذة موجودة في المصلى الكبرى الموجودة شرقا، كما يدخل بعض الضوء من باب الكنيسة لكنه لا يكفي للمشي بداخلها دون ضوء الشمع الذي نحمله معنا. والجزء الأكبر من هذا المبنى يقع تحت الأرض. وإلى هنا يأتي كل القساوسة من كل الأمم المسيحية لإحياء يوم انتقال سيدتنا الخاص. ويوجد في هذه الكنيسة جب به ماء جيد.

وحين تغادر هذه الكنيسة المباركة ، وعلى بعد خطوات منها نلج كهفا كبيرا دائريا علوه بقدر رمح ، كله من الصخر ، جيد الإضاءة لوجود فتحة في أعلاه يتسرب منها ضوء كثير. وهذا الكهف هو في دار وحديقة جشتماني ، حيث صلى المسيح تلك الصلاة الأبدية لسيدة ، وحيث تصبب منه عرق بقطرات من الدم حين التقى به الملاك وسلاه. مجرد اعتبار هذا المكان المقدس الذي سكب فيه المسيح عرقا دمويا ، يحرك القلوب أنى كانت صلبة إلى المناجاة و الندم. بخروجنا من هذا الكهف الذي كان مصلى للمسيح ، وعلى بعد حوالي أربعين خطوة يبدو لنا المكان الذي كان فيه تلاميذ المسيح الثلاثة القديس بطرس والقديس يوحنا وسانيتاغو نائمين ، فأيقظهم المسيح وأنبهم لأنهم لم يكونوا يراقبون ويصلون. وعلى مرمى حجر من هناك يوجد المكان الذي بقي فيه التلاميذ الثمانية. وعلى بعد أربعين خطوة إلى الأمام يوجد

المكان حيث خان يهوذا المسيح وسلمه. وقد جُعل هنا زقاق من ثمان خطوات إشارة إلى ذلك المكان. وفي كل هذه المزارات فضائل عظيمة.

وعلى خطوات قليلة إلى الأمام يوجد جسر وادي قدرون. وكل ما قلناه من حديقة جشتماني إلى هنا يمر بخط أسفل جبل الزيتون وبجانب وادي يهوشفاط حيث يوجد هذا الجسر جسر قدرون. عند اجتياز هذه القنطرة تبدأ في الصعود في منحدر كبير بجانب سور المدينة حيث أخذوا المسيح مخلصنا مقيدا إلى منزل أناس.

وفي نفس الوادي توجد أشياء قديمة للتعبّد. هنا يوجد مبنى محفورا في صخر على شكل مصلى دائري قطعة واحدة، إلا تاج العمود. وهذا هو قبر أبشالوم ابن داود. وتوجد داخله فتحة نشأت من الحجارة التي يرميها سكان هذه الأرض عقابا لمن كان ابنا سيئا لاحقه أبوه.

وقريبا من هنا يوجد مبنى آخر نصف مهدم يخلد ذكرى سنتياغو الأصغر الذي كان هنا منذ قبض على المسيح حتى بعث وظهر له وطلب منه أن يأكل، وقد كان نذر أن لا يأكل حتى يراه مبعوثا.

وقريبا من كل ذلك يوجد *Aceldemach* حَقْلُ دَمَا، ويسمونه الحقل المقدس. وهو مبنى من أربعة حيطان صلدة عليها شرفة طولها أربعون خطوة وعرضها ثلاثون أو أكثر أو أقل. وبها أربعة أو خمسة فوهات من حيث يرمون بالموتى فيدفنونهم هنا. ابتيع هذا الحقل بالثلاثين قطعة التي تلقاها يهوذا من الفريسيين ثمنا لبيعه للمسيح مخلصنا. وهي قبر للحجاج من ذلك الحين إلى

الآن. وقريبا من هنا أُطْلِعْنَا على المكان الذي شُنق فيه يهوذا سيء الحظ نفسه. بجانب هذا المكان توجد قبور اليهود، ويبدو أنهم اعتبروه نصيرهم ليرافقهم إلى الجحيم.

وعلى بعد مائة خطوة من هنا، يوجد الكهف حيث اختفى الرسل إلى حين بعثة المسيح. وإلى الأمام من هناك، يوجد البيت الذي يقولون إنه بيت المشورة السيئة، حيث قُرِرَ موت المسيح، حين قال قيافا: إنه من اللائق أن يموت رجل واحد من أجل الشعب بدلا من أن يموت الناس.

من هنا ذهبنا إلى الجانب الآخر من وادي يهوشافاط، وقرب سور المدينة يوجد نبع يسمى نبع السيدة العذراء التي كانت تنزل كما يقولون من الهيكل الذي ذكرنا، حيث نشأت، لتنهل ماء الشرب والماء لأشغال البيت. وماء هذا النبع جيد، وقد شربناها بخشوع لأن سيدتنا العذراء شربت منها.

وهناك نبع آخر قريب من هذا النبع، ويسمى عين سلوى، حيث أرسل المسيح الأعمى ليغسل الطين الذي وضعه له في عينه والمكون من التراب وريقه المبارك فارتد بصيرا. وماء هذه العين جيدة، ومن فضلة مياه هذه العين تُسقى بعض الحدايق الصغيرة.

ويوجد نبع آخر عند مخرج المدينة في الجهة الجنوبية، يقولون أن الملك سليمان بناه وجلب إليه الماء بأنابيب من بيت لحم من *fon signato*. وينتهي النبع عند منزل أمه بيرسابي. وقد شربنا منها عند ذهابنا ومجيئنا من بيت لحم، فقط لفضول أنها قديمة ولكونها من عمل الملك سليمان. ولم أرَ ينابيع أخرى

لا داخل أورشليم ولا خارجها، والماء التي تُشرب في المدينة ومياه سقي الحقول، هي مياه صهاريج يجمع فيها ماء المطر، وهي مياه جيدة وإن كانت تتسبب للبعض في ضرر بسبب برودتها.

عن كنيسة الجلجثة والمدفن المقدس

بعد رؤيتنا لكل ما يتعلق ببيت لحم، التمسنا من الأب الوصي أن يأمر لنا بالدخول إلى كنيسة المدفن المقدس والجلجثة ويعين اليوم والساعة مع الشُّبَّاسي الذي هو حاكم المدينة والذي توجد مفاتيح الكنيسة المقدسة في عهده. وهذه الكنيسة مقفلة دائما ولا تُفتح إلا بأمره، أو حين يُعْلِمُهُ الأب الوصي لكي يدخلها الفريلية أو الحجاج أو شخصيات أخرى من الشعوب المسيحية. ولما حان يوم الزيارة، وكان يوم الخميس مساء، جاء الشبَّاسي مع كاتب وحارس وجلس عند باب الكنيسة المقدسة على مقعد وُضع على حصير ومساند مخملية، وجاء الأب الوصي مع فريلية آخرين ومسيحي .. وهو رجل طيب ومترجم مخلص للدير، يتحدث الإيطالية جيدا إضافة إلى لغته العربية اللغة السائدة في فلسطين وسورية. وعند وصول الحجاج الستة وهو عددنا، قدمنا الأب الوصي للشبَّاسي التركي، فسألني مترجمنا عن اسمي (وكنت الأول)، فأجبت أنه اسمي هو ألبرطو ليدو اسما ألمانيا وليس

إسبانيا؛ فمن الخطر أن يعلموا أننا إسبانيا، لأنهم يظنون أننا جواسيسا
فيأخذوننا عبيدا، وبالحدث بالإسبانية نتحاشى هذا الاشتباه.

كتب التركي اسمي بقلم من قصب وأعطيته تسع سِقِيَّاتٍ تساوي كل
واحدة منها خمسة عشرة ريالاً، وقد سدد مرافقي نفس الثمن. أما الفريلية
والقساوية فلا يؤدون شيئاً، بينما يؤدي الرهبان الخدام النصف. هذه هي
المرّة الأولى التي ندخل فيها الكنيسة المقدسة، وفيما بعد يمكن الدخول بأداء
واحدة أو مَئِدَينَتَيْنِ للحارس.

دخلنا باب الكنيسة المقدسة، لا يمكن أن تكون هذه اللحظة لحظة
خمول، وقد انشغل كل منا بالنظر إلى كل ما بها من فوق ومن تحت.

وأول شيءٍ يستقبلنا، المكانُ الذي دُهِنَ فيه مخلصنا من أجل دفنه. وعلى
اليمين في نفس المدخل جبل الجلجثة المقدس.

وإلى اليسار من ذلك في وسط الغرفة قرب الباب الغربي، يوجد المدفن
المقدس ويشتمل على أربعة مقاعد بطريقية، وكانوا في زمن ما مجتمعين
يمثلون بطارقة المسيحية. وحين أصبح في عهدة الإغريق، أصبح لهم هناك
بجانب المنبر الأكبر إيقونات قديسين مرسومين جيداً ومُذهَّبَيْن. الغرف عادية
إلا في الجانب الشرقي والغربي حيث اتخذت شكلاً دائرياً يُذكرُ بطريقة
المرج. والكنيسة حسنة البناء، وبعض أجزائها العلوية بالفسيفساء، وقد
كسيت حيطانها في زمن آخر بالمرمر، أما الآن فأحجارها مكشوفة، ولا
ينقص ذلك من حسناتها لأنها متقنة غاية وإن بدون مرمر.

والشعوب المسيحية الموجودة في أورشليم من ممالك مختلفة وأقاليم ولغات متنوعة، وهي: اللاتين، واليعاقبة، والإغريق، والأيسينيون، والأرمن، والجنوبيون، والجرجيون، والمارونيون

ومن كل شعب من تلك الشعوب، يوجد رجلي دين أو ثلاثة موزعين على مصليات هذه الكنيسة المقدسة، يُحيي فيها كل واحد قداسه الإلهي بطريقته ولغته، ويرعى مصابيحهم لكي تبقى نظيفة ومشتعلة. ومكان فريليتنا الفرنسي سكان اللاتين هو الأحسن؛ لأن لديهم غرفة للأكل والنوم تسع لثلاثين شخصا. وهذه الشعوب تأكل وتنام داخل هذه الكنيسة المقدسة، ونفس الأمر بالنسبة للحجاج الموجودين بها، حيث يُقدّم لهم الطعام وكل ما يطلبونه من فتحة بمثابة نافذة في الباب عليها قضيبين من حديد. من هذه النافذة، يتحدثون و يتفاوضون، ويبدو جزء من الكنيسة من الباب. ومن نفس النافذة يصلي الذين هم خارجها. وقد وضع التركي قانونا ليكون بين تلك الشعوب توافق وأخوة، حتى أنه إذا انطفأ مصباح ورام جار إذكاءها تأدبا، يُعاقب بأداء دوقيات كثيرة. وهكذا، وبهذه الصرامة هناك سلام تام بينها جميعا ولا أحد ينحشر في مصالح الآخر.

والمزارات مشتركة بين الجميع، يمكن زيارتها في كل ساعة أرادها الزائر، لأنها مفتوحة على الدوام. ولما كانت باب الكنيسة دائما مقفلة، فإن ما بداخلها محفوظ جيدا، ومن السعادة الكبيرة والإخلاص أن تتمكن من الدخول بحرية إلى كل مزارات هذه الكنيسة المقدسة سواء في الليل أو في النهار، وذلك للفرحة الغامرة التي فيها بسبب وفرة ضوء المصابيح المشتعلة

دائماً. وصار شائعاً أن يكون عدد من المصاييح في كل مزار تزيد وتقص،
على أن يهتم كل بمصايحه.

بدأنا حجاجاً وفريلية موكبنا في هذه الكنيسة المقدسة، نحمل شموعاً
مشتعلة، نشد ترانيم المزار المراد زيارته، جاء قسيس وذكر لنا الذي تحقق
هنا، والفضل الذي يمكن اغتنامه.

كانت المحطة الأولى في المصلى التي قيل إنها كانت سجننا لمخلصنا، حيث
كان بينما كان اليهود ينتظرون أن يُعَيَّنَ الصليب والمكان الذي يُهيأ لوضعه.

وشيئاً ما إلى الأمام زرنا مصلى في المكان الذي كان فيه الجنود الذين
اعتقلوا المسيح يقترعون على ملابسه.

وإلى الأمام ولجنا باباً ثم نزلنا ثلاثين درجاً فوصلنا إلى مصلى القديسة
هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين، وبها كرسي من حجر بجانب منبر حيث
كانت تجلس بينما كانوا يبحثون عن الصليب.

هنا على ذلك الكرسي للقديسة هيلانة توجد الكثير من المغفرة. نزلنا إثنا
عشر أو أحد عشر درجاً آخر من حجر جبل الجلجثة حيث وجدت القديسة
هيلانة صليب مخلصنا، اللوحة والمسامير وصلبان السراق، وُسِمَت هذه
المصليات بمصليات اختراع الصليب، وهي متسعة وجيدة البناء وإن كانت
أسفل الأرض.

وبخروجنا من هذه المصلى، زرنا مصلى أخرى، وهي في المكان حيث توجد قطعة من العمود حيث أُجلِس المسيح في محكمة بيلاطس، بعد أن ضُرب وهُمِّمَ بتاج من شوك. من هنا ذهبنا لزيارة جبل الجمجمة المقدس؛ وقد صعدنا إليه بتسعة عشرة درجا فكنا كما لو عرجنا إلى السماء. وفي الأعلى توجد مصلى من غرفتين بشكل منصة تتطابق والغرفة الأولى في الكنيسة. إحداهما في المكان المقدس حيث أُصعد المسيح على الصليب، وبها الثقب الذي نُبت فيه الصليب المقدس وبه خَرَزَةٌ من فضة. نظرنا إليه وقبلناه ومجدناه لأنه مزار عجيب. وداخل هذا الثقب الثمين جعلنا أذرعنا العارية، وعمقه ثلاثة أشبار.

وعلى الجانبين أُشيرَ إلى مكاني صليبي السراق، وبدا لي أنهما كانا متلامسان. وتوجد بين صليب المسيح وصليب السارق الشرير فتحة في الصخر طولها سبعة أشبار وعرضها شبر واحد وهي تصل إلى أسفل اختراع الصليب، وقد حدثت حين قضى المخلص. وفي الجانب الآخر من المصلى، على بعد ثلاث خطوات يوجد المكان حيث سُمِّرَ المسيح على الصليب وكان هذا الأخير على الأرض، ومن هناك أقاموه ووضعوه في المكان المشار إليه أعلاه.

هناك علامة على العديد من الأعمال على الشب والرخام حول متى جرى هذا اللغز. وهذه المصلى المسماة بالصلب والمكان الذي رُفِع فيه الصليب، كلها مغطاة بمرمر رائق وَيَشْبٍ وأعمال أخرى، وسقفها كله بفسيفساء عُلق فيها أكثر من خمسين مصباحا لكل الشعوب المسيحية. صلينا

في مكان الصليب المقسم برواق عن المكان حيث ثبت الصليب. رددنا تلك الصلاة في اليوم التالي يوم الجمعة، يوم آلام المسيح حسب القديس يوحنا. ولا يمكن وصف الخشوع الذي كان هناك خاصة حينما نعلم أن كل ما نقوله في الإنجيل حدث هناك.

والمكان حيث سُمِّرَ مخلصنا هو في عهدة الفريلية الفرنسييسكان، والقسم حيث صُلب هو في عهدة الفريلية الجورجيين، وهؤلاء غاية في التدين، لايفارقون هذا المكان، يصلون وينشدون، إنهم رجال صالحون، في رهبانية كبيرة وفقرة.

وهذه المحطة من جبل الجلجثة المقدس رائعة تبعث النفس والجسم على الورع، والوجود فيها لا يبعث على التعب، ونحن فيها كما لو كنا في جنة. ومن الحسن هنا، إنشاد بعض القطع الموسيقية المتفرقة وبعض مرثي أرمياء بينما يتم التدبر في الجلجثة والمدفن المقدس، وذلك لأنه يمكن رؤيتهما معا.

وحين ننزل من هذا المكان المقدس نصل إلى الغرفة الأولى التي أشرنا إليها. فعلى قطعة زليج كبيرة مثبتة على الأرض مسيجة بشباك حديدي علوه شبر واحد علقت فوقها ثمانية أو تسعة مصابيح لكل الأمام تم دهن المخلص قبل دفنه من طرف خدامه المخلصين، نيقودموس ويوسف الرامي بمحضر سيدتنا العذراء وباقي النساء المقدسات وتلميذه المحبوب سان خوان. وهذا المكان المقدس هو مقابل لباب الكنيسة، وهو يُرى من النافذة الموجودة فيها، ويُصلي الذين هم في الخارج متوجهين إليه اغتناما للفضل الذي فيه.

ومن هنا إلى المدفن المقدس حوالي أربعين خطوة إلى الغرب داخل هذه الكنيسة المقدسة، وهذا الأثر الذي لا يقدر بثمن، هو في عَهْدَةِ فَرِيْلِيَّتِنَا، واللاتين وحدهم يرددون هناك القداس. وشكل المدفن المقدس هو كما يلي: قبل الدخول، هناك مصلى صغيرة مربعة تسع لتسعة أو عشرة أشخاص، تتوسطها صخرة علوها شبران وسمكها شبران.

وعلى هذه الصخرة قيل إن الملاك كان جالسا حينما كلم مريم ومريم المجدلية وأخبرهما أن المسيح قد بُعث. ومن هذه المصلى يتم الدخول إلى أخرى أصغر منها عبر باب علوها أربعة أشبار وعرضها ثلاثة، وعلى اليمين منها، يوجد المدفن المقدس لسيدنا ومخلصنا، حيث كان جسده المقدس وحيث بُعث. إنها غرفة نصف دائرية مكسوة بمرمر. رددنا قداسا على هذا القبر الثمين، وليس ينتهي قداس الكاهن ومعاونيه. لا أحد يرى الفراغ، ومع ذلك الكل يقدر ما فوقه ويتحسس به يديه وفمه وعينه.

وفوق هذا القبر المقدس تشتعل مصابيح عديدة لكل الدول. وقد تَلَوْتُ هنا نشيدا برحمة الله، وكان الموضوع البعث، وكان من عظيم فرحي أنني رددت هنا قول الإنجيل *Surrexit non est hic, ecce locus, ubi possuerunt eum* "قد قام، ليس هو هنا. هو ذا الموضع الذي وضعوه فيه"¹⁰¹ مشيرا إلى الموضع الذي كان فيه حقا مخلصنا. وتتحرك هذه اللوحة الحقيقية بشكل عظيم.

¹⁰¹ - إحالة على إنجيل مرقس، الإصحاح السادس عشر، 6.

وهذه المصلى، مصلى المدفن المقدس وإن كانت في الداخل مربعة فإنها من الخارج دائرية، وحيطانها مكسوة بالمرمر. وفوقها تاج على أعمدة جيدة الصنع حسنة المشهد من الخارج، وهي تتوسط دائرة من الأعمدة دون أن تمس أي جانب، تعلوها قبة الكنيسة وهي من خشب الأرز قديم جدا، وفي وسطها فتحة كتاج يلج منه الضوء إلى الأسفل. وفي جانب من الأعلى توجد صورة القديسة هيلانة، وفي الجانب المقابل صورة ابنها الإمبراطور قسطنطين، وهي من فسيفساء ثمينة قديمة، كما توجد أيقونات أخرى لقديسين، لا تكاد تتشابه بفعل تقادم الزمن.

وبالخروج من هذا المكان المقدس، بزهاء عشرة خطوات إلى اليسار، يوجد حجران دائريان من المرمز على الأرض، قد بُعِثت إحداهما على الأخرى بحوالي ثلاث خطوات. كان المسيح على أحدهما حين بُعث، وكانت مريم المجدلية على آخر حين ظهر لها في صورة بستانى وقال لها: *Noli me tangere* "لا تلمسيني"¹⁰².

ومن هناك دخلنا مصلى الفريلية الفرنسيكان وهي في المكان الذي قيل أن مخلصنا ظهر فيه لأمه المقدسة بعد بعثه. وفي مدخل هذه المصلى يوجد على الحائط داخل شباك جزء من العمود الذي جُلد عليه المسيح، ويمكننا الوصول إليه بالأصابع. وبهذه المحطة ننهي ما يعتبر الكنيسة المقدسة. وخلال الأربعة أيام وليالي التي قضيناها هناك كررنا الوقوف على هذه المحطات

¹⁰² - إنجيل يوحنا، الإصحاح العشرون، 17.

مرات متعددة في موكب. و من السعادة العظمى سماع كل تلك الشعوب في منتصف الليل تردد تراتيل الفجر كل واحدة بلغتها ونشيدها.

سلمنا الأب تراخيص وشهادة دخولنا أورشليم مكتوبة على رق وبطابع العلية المقدسة.

ولما حان وقت خروجنا من أورشليم، أوصى الأب الوصي ترجماننا، ومسلمين من سكان القدس فأوصلونا إلى دمشق على بعد ثمانين فرسخا .. خرجنا مع هؤلاء المسلمين على حميرنا لأنه يُمنع على المسيحيين ركوب الخيل في هذه الأرض، وكنا سبعة فريلية فرنسيسكان وستة حجاج. إثنان من هؤلاء الفريلية ذهبا إلى حلب، وذهب ثلاثة آخرون إلى القسطنطينية، أما الفريليان الباقيان؛ الأب ساليمو ومرافقه المسمى الفريلي سيرافين مع راهب خادم يدعى خوليان وهو إسباني، فقد رافقتهم مع بيدرو الألماني ونيكولاس البولوني حتى البندقية.

بعد وداع الأب الوصي ومعانقته خرجنا وخرج هؤلاء الفريلية المباركون معنا إلى ضاحية المدينة لخطوات عديدة.

خرجنا، بدأنا المسير، كنا نعود بأعيننا بعد كل خطوة إلى الوراء، نرى المدينة المقدسة وتلك الجبال المباركة؛ صهيون والزيتون، إننا نودعها بحزن شديد. حزنا على مفارقة هذه الأماكن الأكثر قدسية، وبعد أن قطعنا نصف فرسخ، توارت عن أعيننا. وفي هذه المسافة رأينا كنيسة على المكان حيث كان أرمياء يرى المدينة المقدسة باكياً وناظماً للمراثي.



القدس كما رآها دون الفارور وروليدو

يوميات حاج بالأرض المقدسة

بدأنا نصعد وننزل في الجبال، حزانى وكأننا نعبّر صحراء حقيقية. كان صمت عميق يخيم على القافلة، لا أحد ينبت بنبت شفة، ولا يُسمع أي ضجيج عدى صوت سنابك خيولنا. لماذا كل هذا الصمت؟ إن القلب أخذ يخفق بقوة أخرست اللسان. حين تراءى لنا مرتفع. أخذ بعضنا ينظر إلى بعض. كلنا صار يجري ليكون أول من يشرف على المدينة المقدسة، وانبعث صياح: القدس القدس، فأجاب الكل: القدس القدس.

شكرا إلهي لقد رأت عيناى المدينة المقدسة التي اخترت في تقديرك لتكون مسرح قربان المسيح حيث انتهت رجعة الجنس البشري.

ترجلنا وسجدنا برأس مكشوفة دليل تقدير ديني وفرحة لا توصف،
رددنا بصوت واحد نشيد زكرياء: "مبارك هو الرب إله إسرائيل"
هل من الممكن نسيان هذه اللحظة؟، هل من الممكن نسيان هذه
اللحظات الأكثر عذوبة؟، قطعاً لا.

كانت الساعة الخامسة بعد الزوال حين دخلنا القدس من باب يافا. توجهنا
شمالاً عبر أزقة ضيقة لنصل إلى الدار الجديدة Casa Nova التي خصصها
الآباء الفرنسيون لإيواء الحجاج. كان كاتب القافلة يقسم الغرف بينما،
كان همنا الأول أن نغير لباسنا لأننا كنا مبللين كلياً. بعد ذلك توجهنا إلى دير
سان سالفادور. سألت عن رجال الدين الإسبان، وحين رأيتهم خلّصتني
مغموراً بإحساس عذب لا يُجرب إلا حين يتم اللقاء بالأقرباء بعيداً عن
الوطن. كانت رغبتني في معرفة المدينة كبيرة، ولم يكن من الممكن الشروع في
ذلك الآن. أصعدني الفريولي سالفادور خينير سطح الدير الذي يُشرف على
كل الفضاء الذي تشغله القدس.

أرسلت نظري بشوق لا يوصف إلى كل الجهات. أرشدني الفريولي
سالفادور بيده إلى أكثر النقاط أهمية: هذه القبة الكبرى في الأسفل، قال:
هي للمدفن المقدس، هناك توجد المُرِّيَّ، وهناك خارج السور، وادي
يهوشفاط الجليل، والجبل الذي خلفه هو جبل الزيتون.
ظَلْتُ ساكناً لهنيهة صامتة، ولا أقوى على التعبير عن الذي تُمثله لي
القدس حينئذ.

حين يُنظر إلى يروشاليم يوقن أنها ليست تُشبه مدن أوربا. لم أر قرميدا، كل الدور لها سطوحٌ وقباب تُبرُزُ منها صوامعُ المساجد والراياتُ العاليةُ للقنصليات مع نخلةٍ وبعض الأشجارِ على ساحة المريا.

يُخَيِّم على القدس صمت عميق، لو كان بين يدي كتاب العهد العتيق لفتحت كتاب أرمياء لأقرأ على ذلك الجلال السماوي " كَيْفَ جَلَسْتُ وَحَدَهَا الْمَدِينَةُ الْكَثِيرَةُ الشَّعْبِ! كَيْفَ صَارَتْ كَأَرْمَلَةٍ الْعَظِيمَةِ فِي الْأُمَمِ. السَّيِّدَةُ فِي الْبُلْدَانِ صَارَتْ تَحْتَ الْعِزَّةِ! "

وقد سبب لي المسجد الذي يعتلي خرائب هيكل سليمان رعبا. إلى متى سيبقى هذا الشعب الهمجي سيدا للصهيون؟ أنا لا أعرف، لكن قلبي يحدثني أن ساعة انكساره أزفت. إذا كان على المريا هيكل غطت قبابه تابوت العهد العتيق، ألا يمكن أن يرتفع على نفس المكان المدنس بديانة خرقاء هيكل للعهد الجديد هيكل الصليب مخلص الرجال؟.

أخذ الليل يرخي سُدُولَهُ على السطح، فعدت إلى الدير الجديد، و في نفس المكان التقيت بثلاثة أشخاص في نفس القافلة، لقد حالفنا الحظ أن نترافق وهم: رفائيل دوق أوربي من غرناطة الجديدة، والسيد وايت من أيرلندا وأنا. كنا نحن الثلاثة من سن متقاربة مع فارق ضئيل، كنا كلنا أرامل وقد قادتنا إلى المدينة المقدسة نفس الرغبات.

كان القس ماثير من وهران معنا في نفس الغرفة منفصلا عنا قليلا. وحين كنا نأوي إلى فراشنا، كان حديثنا عن مغامرات اليوم، وكنا نستعد للذهاب صباحا قبل رفاقنا إلى المدفن المقدس.

آه، كم هو صلب هذا السرير، إنه يبدو كما صخرة.

عند الفجر انطلقت أنا والدوق أوريبى إلى الشارع دون أن نعلم إلى أين نتجه. كنا نروم المدفن المقدس. حين لاحظ شاب من الدير الجديد حيرتنا، اقترح مصاحبتنا. كنت أمشي وصديقي كما لو كنا أخرسين. وصلنا إلى الكنيسة، دخلت إلى الضريح، سجدنا، وقد لمست شفتاي مدفن السيد المسيح. قمت، وصعدت نحو الجلجثة، انخيت وقبلت المكان الذي ارتفع فيه الصليب الذي خلف المسيح. تجاوزت سياجا من فضة، ولمست يدي كرة الجلجثة.. إنني في نفس المكان الذي تلقت فيه العذراء مريم الجسد الساكن لابنها.

انسحبت دون أن أتمكن من الصلاة، لكن قلبي خفق من الحب والحظوة.

عند المساء

في كل المساءات، يُنظم في هيكل المدفن المقدس موكب يبدأ من المصلى اللاتيني حيث اجتمعنا كلنا نحن أفراد القافلة وحجاج كاثوليكيون آخرون بينهم الأمير كارلوس دي لوينستائيس *Carlos de Loewenstein* وسيدتين أوروبيتين.

والمصلى اللاتيني هي كنيسة للآباء الفرنسيسكان تُسمى كنيسة التجلي، وذلك لأنها تقع في المكان الذي تجلى فيه المسيح لأمه بعد بعثه. وهذه المصلى توجد قريبا من المدفن المقدس. وقبل الوصول إليها يتم المرور بالمكان الذي ظهر فيه المسيح للمجدلية. حين انطلق الموكب، وزع أحد رجل دين على

كل فرد من الحضور شمعة مدموغة بصليب، كما سلمهم كتباً يحتوي على نشيد الموكب. كانت جوقة كورال من الصبية العرب ترافق الفرنسيين، وغناؤهم غاية في التناغم. ومن مصلى أو كنيسة التجلي توجهنا إلى المصلى الإغريقي مصلى السجن، وتوقفنا عند أخرى لم أكن حينئذ أعلم لأي مذهب هي.

نزلنا إلى كنيسة القديسة هيلانة التي هي على شكل كهف كبير تحت صخرة الجلجثة؛ وهي في ملك الإغريق والأرمن، وعند نهاية ذلك الكهف يوجد الموضع حيث جُعل الصليب وهي لللاتين.

استمر الموكب نحو الجلجثة، وهي مقسمة إلى قسمين يفصل بينهما قوس؛ إحداهما هي المصلى حيث صلب المسيح، وهي في ملك اللاتين، والأخرى هي المكان الذي رفع فيه الصليب وهي في ملك الإغريق. وبين المصلين يوجد منبر عليه صورة عذراء الآلام.

وقد بدت لي المقاسات التي تقدم للجلجثة دقيقة: عشرون قدماً فوق مستوى رصيف الكنيسة، يتم الصعود إليها عبر أدرج من الجهتين، وستة وأربعون قدماً مربعا رصيف الجلجثة وجدرانها مكسوة بالمرمر. حين رُددت هنا كلمات: "أظلمت الشمس وانشق حجاب الهيكل من وسطه، ونادى يسوع بصوت عظيم وقال: يا أبتاه في يديك أستودع روحي. ولما قال هذا أسلم الروح"¹⁰³ تُتذكَّرُ تلك الأم المحبة التي كانت بجانب صليب ابنها؟

¹⁰³ - إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث والعشرون، 44-46

على صخرة الجلجثة، في الجانب الأيمن من المكان حيث ارتفع الصليب، توجد فتحة عميقة تخترق الصخرة إلى الكهف السفلي، وعلى هذه الفتحة شباك حديدي جعله الإغريق هناك. وقد قرأت أن تلك الفتحة حدثت جراء الزلزال الذي تزامن ولحظة الصلب، وقد قطع الطبيعيون الذين اختبروها أنها حدثت على عكس الترتيب الطبيعي.

يشتعل في الجلجثة عدد غير محدد من الفوانيس الذهبية والفضية. من هنا نزلنا إلى حجر الدهن الذي مسح فيه نيقوديموس جسد المسيح، وهذا الحجر مكسو بآخر من المرمر الأحمر الغامق.

تنتهي الجولة إلى المدفن المقدس. والضريح الذي يشكل ما يشبه معبدا في المدفن، إنه ضريح من المرمر الأبيض مع مساحات غامقة في بعض جهاته، ويسمى عند المدخل مصلى الملاك؛ لأنه المكان الذي كان الملاك جالسا فيه حين قال للنساء اللاتي أتين لتحنيط جسد المسيح: "لقد بُعث، هو ليس هنا". ومن مصلى الملاك يتم العبور عبر فتحة سفلية وضيقة إلى مجلس صغير طوله حوالي ثمانية أقدام، وهذا هو المدفن المقدس. والمقاسات التي أوردتها اقتبسناها من كتاب كان معي. ولم أتمكن من اختبار دقته على نفس المكان، كما أنني لست أريد القيام بذلك، فذلك لا يهمني، سيما وأناي أتيت إلى هنا لا لأنشغل بالمقاسات ووصف هذه الأمكنة المغمورة بدم المسيح، بل لأنال فرحة تبجيلها.

سلمت ليلا على الفريلي سالفادو خينير والأب أنطونيو رودريغيز،
واتفقنا على أن نذهب في الخامسة صباحا إلى دير سان سالفادور لتتوجه نحو
كهف جشتماني والممر من طريق الآلام. وعدم ثقتي في ساعتني، وحرصني
على عدم مخالفة الموعد جعلاني مستيقظا طوال الليل، إلى درجة أن دقة
ناقوس واحدة جعلتني أخرج من الدير الجديد. وفي الشارع أخذت أمشي
وحدي وسط عتمة عميقة بين الحوانيت، اصطدم بالحيطان وبعد جهد
وجدتني أمام باب الدير. أسخت السمع، فسمعت إنشاد رجال الدين،
طرقت الباب، فاقترب فريلي من الشباك الحديدي للنافذة وقال
بالإيطالية: "لا يُفتح إلا في الساعة الخامسة"، فسألته: "وكم تكون الساعة
الآن"، أجاب: "منتصف الليل" ثم أغلق النافذة. مدهش لقد بقيت على قمر
بلنسية. وعلى الأقل إذا أشع القمر سيمكنني الرجوع إلى الدير الجديد. لم
أستطع تمييز شبر واحد أمام أنفي لأن هذا القسم من الشارع مغطى، اقتربت
من الحائط دون أن أعرف أي اتجاه آخذ. حقا لقد كنت في وضع مرح للغاية؛
وحدي في دلجة الليل بزقاق من أزقة أورشليم، وهو ما يصعب تحقيقه لرحالة
حديث الورد عليها قادم من أوربا. فجأة، طرق سمعي همس بعيد، رأيت
ضوءا في اتجاه الدير، كلما اقترب ميزت جماعة من الرجال والنساء لم تبد
لي ملابسهم شرقية. كانت النسوة مكشوفات الوجه وعلى رؤوسهن غطاء
على شكل بطانية ولباسهن غامق.

وقف الجمع على مسافة أربع خطوات مني، ودخل منزلاً. وحده حامل المصباح بقي في الزقاق. وقد خلته كاهنا من الكنيسة الأرثوذكسية الروسية لأنه كان لابسا عباءة سوداء وقبعة أسطوانية. توجهت نحوه، كلمته بالفرنسية، لم يفهم قصدي، أجابني بلغة لم أفهمها بدوري.

خطرت ببالي فكرة: رددت بمهل وبصوت واضح اسم الدير الجديد "كاسا نوبا" أخذ الرجل حامل المصباح يمشي وأشار إلي بعلامة يأمرني من خلالها باتباعه. وصلنا إلى باب الدير الجديد، انحنى مومناً بتحية عميقة وانصرف مرددا كلمات لم أفهمها. أجبته بالإسبانية "شكرا جزيلا" وحييته برأسي.

في الساعة الخامسة بالضبط، عدت إلى الدير. نزلت والفريلي سالفادور والقسيس Peña بينا إلى طريق الآلام، مررنا بباب سان إشتييان وعبرنا وادي يهوشافاط، ومن دون أن نتوقف ولجنا كهف العذاب. في هذا الكهف افترق عيسى عن حواريه وصلى قائلاً: يا أبتاه إن شئت أن تُجيز عني هذه الكأس، ولكن لتكن لا إرادتي بل إرادتك" وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض¹⁰⁴

وفي نفس المكان سجدت بينما أحيى مرافقي القربان المقدس، ومن يده أخذت نفس الجسد لذلك الذي سجد هنا قبل تسعة عشرة قرناً. ما أسعدني بوجودي في هذا الجزء من الأرض.

ثم ذهبنا إلى حديقة جشتماني وهي في ملك الفرنسيين، وقد أحاطوها بجدار للحفاظ على شجرات الزيتون الثمانية التي تحكي الرواية أنها نفسها

¹⁰⁴ - إنجيل لوقا، الإصحاح الثاني والعشرون، 45-42.

التي كانت زمن المسيح. لا أحد يقترب من تلك الأشجار؛ ومن المحرم لمس أوراقها، ومن فعل ذلك يعرض نفسه للطرد من الجماعة.

في هذه الحديقة ظهر يهوذا على رأس جماعة من السراق في تلك الليلة التي عانق فيها سيده وقبله القبلية الأكثر خيانة، القبلية التي كانت إشارة إلى القبض على يسوع. سرنا في نفس الطريق التي اقتادوا فيها المسيح، عبرنا قدرون وصعدنا جبل صهيون، ثم دخلنا كنيسة الأرمن وهي واقعة في نفس المكان الذي كان عليه منزل أناس.

ولما كان يلزمنا وقت طويل لتتبع خطى السيد إلى المحكمة، أجلنا ذلك إلى يوم آخر.

الصباح جميل جدا، وقد أجبرني على صرف لحظة طويلة في تأمل المشاهد التي يمنحها جبل صهيون. وقد أطلعني الفريلي سالفادور من هنا على نقط عديدة سنزورها فيما بعد.

في المساء

اجتمع أعضاء القافلة، وخرجنا من باب يافا ثم انعطفنا نحو اليسار ودخلنا "حَقْلُ دَمَا" أو حقل الفخار. و "حَقْلُ دَمَا" تعني حقل الدم، وهو واقع جنوب أورشليم قبالة صهيون، وهو الحقل الذي ابتيع بالثلاثين قطعة ثمن خيانة يهوذا. ويوجد في هذه الحقل عدد من القبور المفتوحة في الصخر. وقد قادني الفضول إلى الدخول في إحداها قصد وصفها. تزودت بصندوق من عود الثقاب، انحنيت على الأرض، ومشيت على أربع، ونفذت من

خلال ثقب طويل وضيق إلى داخل القبر، أشعلت عود ثقاب فرأيت غرفة دائرية مغطاة مثل فرن لطهي الخبز لكن ست مرات أكبر من أفران بلدي. وحول هذه الغرفة توجد قبور من حجر جيدة الصنع تحتوي على عظام آدمية. وبعد اختبار هذه الدار المحزنة خرجت إلى الحقل حاملاً جمجمة، وهو أمر لم يرق رفاقي كما لم يرقني حين سمعت ملاحظاتهم، ولم أعد أرغب في الدخول ثانية إلى المدفن فعلقت الجمجمة على مدخلها.

نزلنا من حقل الدم حتى الوهد حيث توجد بئر نحمياس. هنا يبدأ واد يهوشفاط. وادي يهوشفاط! أي اسم هو هذا الذي رددته شفتاي بخوف مذ كنت طفلاً؟.

في كتاب يوثيل نقراً: "أجمع كل الأمم، وأنزلهم إلى وادي يهوشفاط وأحكمهم هناك على شعبي وميراثي إسرائيل"¹⁰⁵. جاء في تعقيب قراءته في التوراة بترجمة الأب سيو *P.Scio*: "يهوشفاط تعني حكم السيد. وسمي هذا الوادي كذلك يهوشفاط باسم ملك يهوذا لأنه بنى هناك قوساً للنصر بعد انتصاره على الآمونيين والإيدوميين"

تابعنا المسير نحو بطن الوادي، فنهلت من ماء سلوى الشهيرة في العهد الجديد بالشفاء المعجز الذي تحقق على يد المسيح عيسى حين أعاد البصر إلى أكمه. انفصلت عن رفاقي، فرأيت جماعة من العرب على مرتفع أشاروا علي بالاقتراب. ترددت في البداية، لكنني قررت الاقتراب منهم. أطلعني هؤلاء العرب على قطع من النقود القديمة، وأفهموني أنهم يبيعونها،

وسألوني إن كنت أرغب في اقتنائها. أخرجت من جيبي نقوداً، بسطتها على راحة يدي مومئاً لهم بالثمن الذي أقترحه. لاحظت أن لا شيء حدث. ولما كان هؤلاء ملحاحون، فقد انسحبت، فتبعوني إلى أن بادلت معهم ثلاث قطع. أجهل قيمة تلك النوميّات، قد تكون عديمة القيمة، وإذا كنت بادلت أو اقتنيت بعضها فلأنني سمعت وقرأت أن المياه في الأوقات المطيرة تجرف بعض النقود والأشياء الغريبة من بين خراب المريا.

وقد لاحظت أن فتاة بجانبني تعلق في عنقها قطعة نقدية إسبانية تحمل إيقونة فرناندو السابع. تلقائياً أطلقت يدي راغباً في لمس القطعة، فولت الفتاة هاربة ولم تفهم قصدي وهو مقارنة إيقونة فرناندو بإيقونة إبنته الفاضلة إيزابيلا.

تغطي القبور المفتوحة في الأرض كل وادي يهوشفاط وليست ترتفع به إلا أربعة قبور تحمل أسماء الملك يهوشفاط وأبشالوم، وسانتياغو، وزكريا. وأجهل لماذا يطلق ذلك الاسم الثاني على قبر هناك علماً بأن أبشالوم مات على الضفة الأخرى لنهر الأردن وأن جسده رمي في حفرة. بعد أن سجلت الملاحظة أعلاه قرأت في سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الثامن عشر سبب نصب ابن داود حيث يقول: "وكان أبشالوم قد أخذ وأقام لنفسه وهو حي النصب الذي في وادي الملك لأنه قال: ليس لي ابن لأجل تذكير اسمي. ودعا النصب باسمه وهو يُدعى يد أبشالوم إلى هذا اليوم"¹⁰⁶.

¹⁰⁶ - سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الثامن عشر، 18.

والنصب الذي يحمل اسم أبشالوم، هل هو نفسه الذي تحيل عليه التوراة في النص أعلاه؟ لا أدري، لكنني أميل إلى اعتبار أنه هو، ولا يمكنني أن أقدم دليلاً أحسن من الرواية الثابتة وموافقة الآراء الذين كتبوا عنه والشائع بين كل اليهود الذين كلما مروا بجانبه يرمونه بحجر. وبالمناسبة، وجراء كثرة الأحجار التي رُجم بها فُتحت به فجوة واسعة، وقد ولجت إلى داخله من خلالها. ومن عادة اليهود لعن أبشالوم لأنه خان أباه.

تابعت المسير نحو الأعلى، وزرت نفس الأماكن التي مررت بها هذا الصباح. وعند قبر العذراء الذي زرته على مهل في يوم آخر، أعطاني أرمني شمعة.

دخلنا المدينة من باب سان إشتبان، وبجانبها، زرنا كنيسة القديسة هيلانة التي سلمها السلطان مؤخراً لفرنسا. وهذه الكنيسة بنيت في نفس المكان حيث كان يسكن خواقين وهيلانة، وهناك في تلك الدار ولدت مريم العذراء. أذكر أن هذه الرواية هي رواية ورعة فقط، لكن الرواية المعتمدة هي أن مريم العذراء ولدت في الناصرة. وأنا أحس أنني جاهل جداً لكي أنشغل بمسائل خلافية ولا يهمني أن أعرف إن كانت أم مخلصنا ولدت في أورشليم أو في الناصرة، كما أن ذلك ليس ينقص شيئاً من محبتي لأحسن الأمهات.

قريباً من باب سان إشتبان يوجد صهريج شرعي سميت زمن العبرانيين "بيتسعيدة" وبها كانت تغسل القربات المهداة للهيكل. ومن الخسارة أن هؤلاء الهمج لا يعرفون كيف يحافظون على معلم قديم مثل هذا مليء بالذكريات. وقد أخذ هذا الصريج يمتلئ بالحجارة من جهة الزقاق.

الاشنين 22 مارس

قضيت الصباح في هيكل المدفن المقدس زائرا لكل الأماكن المخلدة لآلام المسيح الموجودة داخل كنيسة المهدي، وهي أماكن ستظل مرقومة في ذاكرتي، وأرغب في وصفها لكن معلوماتي البسيطة تحول دون ذلك، وأشعر بالسعادة أنني سمعت صلاة على حجر الجلجثة.

أُعلمنا أننا سنزور هذا المساء مريا ألفونسو راتسبون *Maria alfonso Ratisbonne*. واسم راتسبون اقترن في ذهني بأفكار لا يمكنني استحضارها عن اعتناقه للمسيحية في روما في يناير 1842. أذكر أنه في سنة 1843 كنت أعيش في بايون *Bayona*، وصغيرا كنت أتوقف أمام محلات طبع الصور متأملا في إحداها، وكانت تحلد اعتناق راتسبون للمسيحية. بعد ذلك علمت كيف حدث ذلك. كنت أجهل أن هذا الاسم يوجد في أورشليم، ولدي رغبة جامحة في معرفته.

توجهنا إلى منزله، ودون أن أعرف كيف ولا بأية طريقة، انفصلت القافلة إلى فريقين، كل واحد منهما وجهة مختلفة. وقد نالني منها الحظ السيء. قطعنا متاهة من الأزقة، ولم نستطع اللحاق بمرافقينا الذين افترضنا أن يكونوا في بين راتسبون. وقد سبب لي ذلك أسى عميقا. وحين أوشكنا على فقدان الأمل، وبمرورنا قبالة بيت بيلاطس التقينا بمرافقينا راجعين مع راتسبون نفسه.

دخلنا بيتا متواضعا قريبا من قوس *Ecce Homo* (هو ذا الإنسان)¹⁰⁷ وبعد التعثر في بعض الأحجار والخرائب، أمرنا راتيسبون بالتوقف ووزع علينا شمعات صغيرة وهبطنا إلى قبو تحت أرضي إلى المكان الذي علق فيه في فتحة صورة مريم ممثلة في شكل ميداليات جمعية دينية. وبعد صلاة قصيرة، شرح لنا راتيسبون المكان الذي نحن داخله. إنه أثر اشتراه بخمس وسبعي ألف فرنك لبناء كنيسة على ذكرى كلمات عيسى: "اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون"¹⁰⁸. أضاف أن اليهودي نجا برحمة الله، وأنه يعمل بدون ملل في تنصير اليهود أصدقائه القدماء.

حين اقتنى راتيسبون هذه الخرائب لم يكن هدفه الأساس بناء الكنيسة لكنه كان ينوي المحافظة داخلها على قوس مغطى بالحجارة يوجد بالضبط بجانب قوس "هو ذا الإنسان" تحت محكمة بيلاطس، والذي حسب رأي راتيسبون وصل إلى هذا المكان.

رفع راتيسبون عينيه متفحصا هذه الآثار، وكما لو كان يحمل شعورا مقدسا صاح: "أنا متيقن، أن دم المسيح انسكب هنا، سأحتفظ بهذا القوس داخل الكنيسة".

لقد ردد هذه الكلمات بإحساس حي حركني غاية. تحدث لنا عن زيارته لأحبار اليهود، وحواراته عن المسيح المنتظر. لقد تضافرت كلمات راتيسبون وصوته العذب ووجهه الصبوح المحلى بلحية سوداء كثة لتجعلنا نحتفظ بذكرى طيبة عن هذه الزيارة.

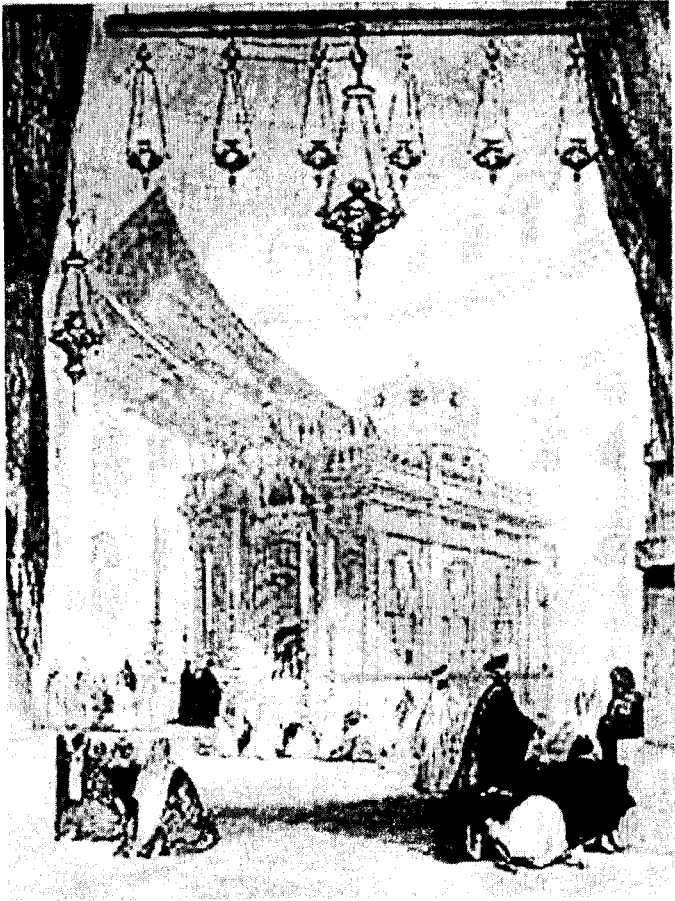
¹⁰⁷ - هذه العبارة هي العبارة التي قالها بيلاطس حين رأى عيسى حسب إنجيل يوحنا، الإصحاح التاسع

عشر، 5.

¹⁰⁸ - إنجيل لوقا، الإصحاح الثالث والعشرون، 24

ودعنا راتيسبون، وذهبت وحدي لأقضي بعض الوقت مع أبناء بلدي
إسبان الدير.

وحين تحدثت لهم على زيارة هذا المساء، قال لي الفريلي سالفدور أنه
يشبه أن يكون قوس راتيسبون إلا بقية كنيسة كانت هناك زمن الصليبيين.
من جهتي، أعترف أنني لا أثقف شيئاً من العهود القديمة ولا عن الأعمال
الحديثة، ومع ذلك ألاحظ أن قوس راتيسبون قديم جداً، وقد أتجراً لأقول
أنه من العمارة الرومانية خاصة حين أقارنه بالبقايا الشاهدة بباب المحكمة.
ولست أشك في أن قوس راتيسبون عمل يختلف تماماً عما يحيط به.



القدس كما رآها غريغوريوس أندريس إسبالا

حين تلوح أورشليم، تقف كل القوافل، وتستغرق في التفكير عندما تتأمل تلك الصحراء المهيبة التي تتنفس من عظمة الرب ومن أهوال الموت، وتتحرك في ذاكرتها ذكريات التاريخ من إبراهيم إلى غودوفروي.

وعبثاً، تبحث عن الهيكل الذي قالت عنه النبوءات: "لن يبق منه حجر على حجر. وبعد لحظات، وبعد المرور بذلك البناء الروسي الكبير الحديث الإنشاء، يتم الدخول إلى المدينة من باب يافا للاستقرار في الخحان الفرنسيكاني "المنزل الجديد" *Casa Nuova* القريب من دير سان سالفادور.

منذ سنة 1244 تمكن رجال الدين الفرنسيكان من الحصول على رخصة من الدولة التركية من أجل المحافظة على الآثار الثمينة لحياة السيد المسيح وآلامه، وإحياء الوظيفة الربانية. وقد مازت الملاحقات وحالات الاستشهاد

صُفوفَ الفريلية في مناسبات عديدة. كما أظهرت الخصومات والاختلافات التي أنعشها المنشقون في الوقت الراهن، ومُتاجرة السلطات التركية بالمقدسات، الحراسَ الشرعيين المعترف بهم على مر القرون.

وحين وصلنا إلى خان الدار الجديدة، كنا تحت الرعاية السامية للفريلي سيغوندو فرنانديث Fray Segundo Fernandez نائب الوكيل العام للأماكن المقدسة، وتحت عناية الفريلية الإسبانية. وقد جَعَلْنَا هَؤُلاءِ ننسى، وبسرعة، مَلَلَ يوم مُتَعَبٍ، إنهم بشوشون ومُتواضعون، مُتَحَضِّرون ووقورون، لم يُزعجوننا بأسئلة تحمل على الكسل. إنهم على العكس من ذلك قليلو الكلام، وذووا تجربة عميقة. وقد أرشدونا إلى أيسر السبل لزيارة ذلك البلد الهام بطريقة مثمرة، كما قدموا لنا تعليمات وأخبارا جَعَلَتْنَا نستفيد من الزمن المحدد لهذه الزيارة. وأراحت تلك المائدة الغنية والنقية، وذلك المُقام المناسب قِوانا الخاترة. ومكنتنا ذلك من مباشرة زيارة القدس فجر يوم ثلاثين نوفمبر تحت إرشاد الخبير الفريلي دومنغو Fray Domingo مُرافقتنا.

خرجنا من الشارع المسيحي إلى الساحة الصغيرة حيث يُطل عمودُ الحكم لسيدنا من نافذة مفتوحة على الشرق، قرب باب القضاء التي خرج منها يسوعُ حاملاً الصليب كما هي عادة المحكوم عليهم بالإعدام في الشريعة اليهودية. وإلى الأسفل من ذلك، رأينا منزلَ الفقير أليعازر ومنزل الغني البخيل، وهما في وضع جيد. وعند وُلُوج الزقاق الذي على اليسار، وبجانب ملجأ نمساوي، يكتشف المرء قوسَ "هنا الإنسان" Ecce-Homo المعلق فوق الشارع حيث عُرض المُخلص بعد أن ضُرب بالسياط وشرع اليهود في

الصياح: "طُلي طُلي"؛ "أصلبه". وينتهي القائم الأيمن من القوس في دير بنات صهيون.

وإلى الشمال، توجد خرائب قصر هيرودوس، وبجانبه المحكمة. وقد تحول هذا القصر الآن إلى ثكنة، وفيه وقع تَهْمِيمُ السيد المسيح بالأشواك، وعند الرصيف المقابل توجد كنيسة السيطة في المكان الذي ضُرب فيه السيد بالسوط.

ويبدأ طريق الآلام *Via Dolorosa*، أو شارع المارة قُربَ سور الثكنة حيث كان السلم المقدس الذي سيق إلى كنيسة سان خوان دي لتران *San Juan de Letran* في روما، ولا زال محط تبجيل إلى الآن.

وعند المحطة الأولى، أسفل المحكمة، يتم إحياء ذكرى مُحَاكَمَةِ السيد غير العادلة، وفي الثانية، المكان الذي حمل فيه الصليب على عَقَبَيْهِ، وفي الثالثة، كانت السقطة الأولى، وتُعرف هذه المحطة بعمود مكسور إلى قسمين طعمت شظاياه الحائط المقابل.

ويُشار إلى المحطة الرابعة بِزُقَاق ضيق وقذر، وهناك كان لقاءه بأمه المقدسة. وتُميز نُقِشَةً مُثَبَّتَةٌ في حائط الدار التي على اليسار المحطة الخامسة، وفيها سَاعَدَهُ الْقَرِينِي عَلَى تَحْمِلِ الصَّليبِ.

وتوجد المحطة السابعة أو بعبارة أخرى محطة السقطة الثانية، تحت باب المحكمة. والمحطة الثامنة، تلك التي توجه فيها السيد المسيح إلى نساء أورشليم، يُشار عليها بِخَرْقٍ غائرٍ في حائط دير إغريقي. وتُعرف المحطة التاسعة بمجدار كبير سد به الأتراك الطريق.

ومن أجل زيارة المحطات الخمسة الباقية والواقعة داخل كنيسة القبر المقدس *Santo Sepulcro* ينبغي الرجوع إلى الورا لمسافة كبيرة والمرور بـ "بريلية دوس قسطنطين" والنزول في بعض الدرجات والدوران إلى اليمين خلف الكنيسة الأكثر تبجيلا في تاريخ المسيحية. وبعد الصعود في ثلاثة وعشرين درجا يصل الزائر إلى الجلجنة. وهناك تُسجل المحطة العاشرة بفُسيفسائية رقيقة من الرخام مُرصعة على رصيف المكان الذي سُلِبَ فيه السيد المسيح ثيابه، ويُشار إليها بفسيفسائية مشابهة للسابقة.

وفي المحطة الثانية عشرة تُخلد وفاة المسيح. وتُشير فتحة في صخرة توجد خلف زجاج إلى المكان الذي تُبت فيه الصليب. وفي المحطة الثالثة عشرة تم الإنزال أو *Stabat-Mater*.

والمحطة الرابعة عشرة تُمثل القبر المقدس ؛ وهو واقع تحت القبة الكبرى للكنيسة. ولكل واحدة من هذه المحطات مذبح خاص ، إلا مذبح الإنزال ومكان تثبيت الصليب فيوجدان عند الصخرة القديمة التي يُلاحظ عليها أثر التشقق المعجز لأول وهلة.

والقسم الشمالي من الجلجنة *Calvario* ملك للإغريق ، والباقي في ملك الكاثوليكين. وجنوب الكنيسة ، توجد نافذة مُصلى سيدتنا للآلام *Nuestra Señora de los dolores* ، وقد شُيدت على المكان الذي حضرت فيه العذراء القربان صُحبة القديس يوحنا *San Juan* ، وإلى الأسفل مُباشرة تقوم مُصلى أخرى تم إهداؤها إلى القديسة مريم المصرية *Santa Maria Egipciaca*.

واسم الجُلجلة مشتقٌ من كون جمجمة آدم مدفونة فيه ، وهو في اللاتينية كرانيوم وكالفاريوم *Cranium o Calvarium*. وقد قام الإمبراطور أدريان *Adrian* بملء ذلك الموقع بالأنقاض والأحجار في القرن الأول من ميلاد المسيح مُعْرِقًا تمجيد تلك البقاع المقدسة من طرف المسيحيين ، ونَصَبَ هناك تمثالا لجوبيتر *Jupiter* وفي القرن الرابع حطم قسطنطين تلك الأبنية الشركية وبنى على أنقاضها الكنيسة العظمى التي تَجَمَّعُ الكنائس الثلاثة القديمة لجل الجماجم والقبر والصليب المقدسين في معبدٍ واحدٍ .

وبعد سنوات من ذلك ، قام كسرى بِسَلْبِها ومنع أداء القداس فيها. وبَقِيَ الأمرُ على ذلك الحال إلى العهد المتسامح لهارون الرشيد. وعند موته ، طالت المسيحيين مُضَايَقَاتٌ جديدة حدثت من قوتها انتصاراتُ الصليبيين ، واستفحلت بعد رحيل جنود المسيح عن تلك البلاد إلى أن أحرز الفَرِيلِيُّ الفرنسيون على رُخصة من الحكومة التركية للمحافظة على تلك الذكريات الثمينة لحياة وآلام مُخلص العالم. ومنذ ذلك الحين عُلَّتْ صلوات المؤمنين تلك البقاع المقدسة كل يوم.

كنيسة القبر المقدس، المزارات، الأمم

إن عدم وجود رواق داخلي يجعل من الصعب المرور إلى أقدم كنيسة لدى المسيحيين. إنها مُحاطة بأبنية غريبة مُشوّهة الشكل ، كما أنها تفتقر إلى مدخل من الجهة الشرقية ، ويسبق بابها فناء مُبلط يكثر فيه التجار الذين يبيعون السبع والصدقات والصلبان وأشياء أخرى دالة على النورع. والمدخل مُزين بواجهة نصف قوطية ونصف بيزنطية ذات قوسين كبيرين مُشكلين.

ويُداوم هناك حارس تركي. ولكبير الفرنسيسكان ، وحارس جبل صهيون والمُشرف على البقاع المقدسة وكُبراء القساوسة الإغريق ، الحق وحدهم في اشتراط الإذن بالمرور إلى الكنيسة مُقابل عمولة مالية.

والكنيسة من الداخل غيرُ منتظمة البناء لأنها جُمعت في بناء واحد ثلاثة مزارات : الجماجم والقبرُ المقدس والصليب المقدس ، وذلك على مُستويات مختلفة إلى درجة أنه يتعين صُعود أدراج أو النزول في أخرى داخل الكنيسة حسب القسم المراد زيارته.

وصخرة المسح أول ما يُبجل في هذه الكنيسة. وهي لوحة من الرخام ضاربة في الحمرة طولها ثلاثة أمتار وعرضها متر ونصف ، استُعملت في عملية تحنيط ودهن جسد المخلص من طرف يوسف الرامي José de Arimatea

ونيقوديموس Nicodemus، وتوجد هذه اللوحة مقابلة للباب. وتشتعل فوق الصخرة المقدسة مصابيح كثيرة لاتينية وإغريقية وأرمينية وقبطية، وذلك دليل على تبجيل مشترك.

وعلى بُعد ثلاثة أمتار إلى الغرب، يوجد صندوق حديدي مستدير يُشير إلى المكان الذي كانت فيه النساء المقدسات وقت تخنيط السيد.

وعلى بعد مترين شمال صخرة المسح، تحت قبة كبيرة شيدتها فرنسا وروسيا وتركيا يعلو أثرٌ بيزنطي للقديسة هيلانة Santa Elena وقد شيد على المقام الحقيقي لقبر سيدنا. وقد أحرقه الإغريق بطريقةٍ شنيعةٍ منذ سنتين لاقتلعه نظرا لوجوده في منطقة نفوذ الكاثوليك. ووقع ترميم هذا الأثر حديثا، لكنه بقي دون الأبهاء التي كان عليها في عهده الأول. وكان في القبر القديم وعاءان محفوران في الصخرة على العادة اليهودية. وقامت القديسة هيلانة المذكورة المعروفة بورعها الشديد، بعمليات هدم وتسوية غيرت المكان من طابعه الكلاسيكي الوعر المتميز لزمان آلام المسيح.

وانحصر هذا العمل العجيب الذي قامت به أم الإمبراطور قسطنطين بفعل أزمت القرون الماضية، ليُصبح الآن مصلى دائرية داخل الكنيسة. وتعلو قبةً محمولةً على ستة عشر عمودا من الرخام الغني هذه المصلى، بينما يَمْنَحُ البلاطُ الذكي من الحجارة المتوافقة الدقيقة كثيرا من الشدة والجمال لذلك الهيكل البيزنطي الصغير. ويفوق جماله الزخارف الإغريقية والقوطية في الأزمان المتأخرة.

ومصلى الملاك الصغيرة المضأة بالمصاييح المتنوعة حسب المذاهب ، بمثابة مدخل للمدفن المقدس. ويتم الدخول إليها من باب صغير جدا. وكُسيّت حيطانها بالرخام لتجذب أحجارها أنظار الطائشين من الحجاج السراق. ويُنيرُ أربعون مصباحا ثميناً تمثل شعوبا مختلفة مكان التبجيل بضوء خافتٍ يبعث على الورع والانعزال. ولا يتردد الزوار في تقبيل رصيف ذلك المكان. ولما كان عرضُ كل وجوه القبر لا يتعدى المترين فإن عدد الذين يزورونه دُفعةً واحدة قليل. ويضطر الزائر إلى الانتظار طويلا قبل أن يتمكن من الدخول. ويتناوب القسيسون اللاتين والإغريق والأرمن على ذلك. ولا يمكن للأرمن أن يصلوا إلا صلاة واحدة هناك.

يظل الزوار خارج الضريح يُصْغون ويتعبدون ؛ الإغريق بقبعة والأرمن والشرقيون بطاقيّة أو كُمة كما هي عادة المسلمين في المساجد. والخوَرَس كما في كل الكنائس القديمة على الطريقة الشرقية ، وبجانبه سُلمان يُفضي أحدهما إلى كنيسة ابتكار الصليب ، ويُسعف الثاني للصعود إلى الجماجم. ويتوفر الإغريق على أوسع الأماكن المقدسة وأحسنها ، ولهم مصلى كبيرة مُذهبة وُضعت فيها كرة في كأس من الرخام يعتقدون أنها تتوافق ووسط الأرض.

وتوجد غرب الكنيسة مصلى الأقباط. وهي فقيرة كأصحابها. وبالقرب منها توجد مصلى السريان على مدخل يوسف الرامي. وإلى الشمال توجد كنيسة اللاتين أو الفرنسيسكان ، وبها المصلى المُهداة إلى القديسة مريم المجدلية Santa Maria Magdalena في المكان الذي ظهر لها فيه السيد بلباس بستانى. ولهم كذلك الكنيسة التي تُخلد المكان الذي بقيت فيه العذراء قريبا من المدفن حيث بُعث ولدها. ولهم كنيسة ثالثة تتوفر على أرغن وبها ثلاثة

مذابح أكبرها ذلك الموجود على اليمين حيث يُبجل جزءٌ من الصليب الحقيقي، والمذبح الذي على اليسار جزء من عمود الضرب بالسوط. وقريبا منه، توجد خزانة الأشياء المقدسة الكاثوليكية، وبها سيف ومهاميز غودوفروي دي بونيون Godofredo de Bonillon وهي محفوظة بعناية فائقة.

وعندما تغادر القسم الفرنسيسكاني، وعلى اليسار إلى الشمال، توجد مصلى إغريقية في الكهف الذي سُجن فيه المسيح مع اللصين. وفي نفس الواجهة توجد مصلى إغريقية أخرى، وهي لسان خوان لوغينوس San Juan Longinos الجندي الذي اعتنق المسيحية بعد أن طعن المسيح. وبعد هذه المصلى تأتي مصلى الأرمن، وهي مشيدة على المكان الذي اقتسم فيه الجلادون الألبسة المقدسة، وبجانبها ثلاثون درجا إلى الأسفل تُفضي إلى كنيسة سريانية تحت أرضية مستأجرة من طرف الأرمن. وتُفضي ثلاثة عشر من الأدراج إلى مصلى اللاتين لابتكار الصليب، سُميت كذلك لاكتشاف أدوات التعذيب داخلها. وقد نقبت القديسة هيلانة عنه. وعند الخروج مرة أخرى إلى خورس الكنيسة تُطالعنا مصلى اللعنة Improperio الإغريقية. وعند الدوران إلى الجهة الغربية تجد المصلى المبنية على قبر آدم وقبور غودوفروي وبالديونو ودرج الجلجثة الضيق الذي تحدثنا عنه في مناسبة سابقة.

وإلى حدود سنة 1685 كان الفريلية الفرنسيسكان في الأرض المقدسة يتوفرون على امتياز خاص بإحياء القديس والمحافظة على البقاع المقدسة، لكن الدسائس الإغريقية، وارتشاء الأتراك، والحروب المتلاحقة التي أزعجت سلام الممالك الكاثوليكية، مكنت المتاجرين بالأماكن المقدسة من

الاستفادة شيئاً فشيئاً من عدد كبير من المصليات. وتُشرفُ ست أمم مختلفة على العبادة: اللاتين والإغريق والأرمن والأقباط والأبسينيون والسريان. ويُلقب الكاثوليك باللاتين، ومُمثلوهم الشرعيون منذ ثمانية قرون بلا انقطاع الفريلية الفرنسيّسكان. ولهم دير شمال المدفن يعيشون فيه مُنفيين مُنقطعين لا يُغادرونه إلا لأداء الشعائر الدينية. ويحصلون على غذائهم من خلال مُناوبة.

ويتوفر الإغريق والأرمن على دير كذلك يوجد في الشرق. وللأرمن دير في الجهة الجنوبية، وللأقباط آخر في جهة الجنوب الشرقي. ولهذه الشعوب الأربعة الحق في إشعال مصابيحها أمام صخرة المسح وخلف القبر المقدس وداخله.

ولا يُشعل المصابيح في الجلجلة إلا اللاتين والإغريق. ولقد كف الإغريق عن المشاركة الكاثوليكية بسبب مجمع القسطنطينية الذي عُقد سنة 857. والخلاف الرئيس بينهم وبين كنيسة روما أنهم لا يسمحون بالسلطة العليا للبابا، ويرفضون انبثاق الروح القدس بالطريقة التي أعلنها المجمع عقيدة، ولا يسمحون بتناول القربان الرباني تحت صنفين.

وينقسم هذا الانشقاق إلى مذهبين اثنين: اليعقوبية والنسطورية. وهي تُتاجر بالأمّاكن المقدسة بشكل فاضح وتبيع تيجان الأسقفية لأحسن مُزايد، حتى أن ثمن ذلك يتراوح بين 15 و1800 قرشا. ويقوم الأساقفة بدورهم بالمزايدة على منصب القسيسية على الإكليروس الأقل منهم رتبة. وفي ذلك من غير شك، متاجرة بأسرار الكنيسة. ويُلقب كُهانهم بابوات، ويُسمح لهم

بالزواج قبل تلقي الأوامر. وهم يُراعون بأمانة الصوم الأربعيني وأعياد الوصية، ولا يتبعون التقويم الغريغوري، وعلى الرغم من ذلك تتوافق أعيادهم مع أعيادنا مرات عديدة. ويُمكن للأسبوع المقدس عندهم أن يوافق أيام الحر الشديد. ونورد هنا طريقتهم في الاحتفال بالسبت المقدس: يعتكف العديد من الكهان في مصلى القبر المقدس، ويتظاهرون بإشعال النار المقدسة بطريقة معجزة، ويدفعون المؤمنين من أتباعهم إلى تقريب القناديل. ويعتقدون أن لضوئها فضائل عديدة؛ منها القدرة على إخصاب النساء العقيمات اللواتي يُمررن تلك المصاييح على أجسادهن يَحْنَقٍ شديد فتولد لديهن العلامات الأولى للإحساس بالأمومة. ولا يُمكن تصور ما يتسبب فيه ذلك الاعتقاد الفاسد المثير للسخرية من فضائح وتدنيسات، وكثيرا ما يتدخل الحرس التركي لإحلال النظام بين هؤلاء المتعصبين المسوسين الذين يأكلون وينامون ويُمضون ثلاثة أيام كاملة داخل المعبد. وهم يعتقدون أنهم أول من أشعل شموع النار المقدسة واستعمل خصائصها المعجزة.

وتختلف الكنيسة الأرمنية عن الكاثوليكية أكثر مما تختلف عن الإغريقية، فهي لا تعترف برئاسة روما، ولا تعترف بشرعية مجمع كلدونيا، وتُنكر الطبيعة المزدوجة لعيسى المسيح، وتُنكر اعتقاد المطهر والتساهلات وانبثاق الروح من الأب، وتحتفظ من الوثنية بتقريب الحيوانات، وتَنَمَازُ عن الكنيسة الإغريقية في كونها لا تتاجر في المنافع الكنسية، وتتفجع من الصدقات، وتسمح بزواج القسيسين والبطارقة والأساقفة.

والأقباط مسيحيون يعتقدون أنه لم تتحقق في عيسى إرادة إلا الإرادة الإلهية (Monotelite)، ولا يعتقدون في عيسى المسيح طبيعة إلا الطبيعة الإلهية، وَيَقْبَلُونَ كل أخطاء بدعة أوتيكوس Eutichio.

أما الأيسينيون، فهم نصف مسيحيين ونصف وثنيين، وهم يجمعون بين جملة من الاعتقادات الوثنية وبعض التعاليم الإنجيلية. أما السريان فشبه مُهودين، وهم يمزجون العبادة العبرانية ببعض الاحتفالات المسيحية، وهم في تناقض مستمر. وتقترب هاتان الفرقتان البدعتان الأخيرتان من الاختفاء.

مسجد عمر

التاريخ، الوصف، حكايات عنه، بكائيات اليهود

قبل حرب كرميا Crimea، كان من المحرم على المسيحيين المرور خلف المسجد الذي بناه كبير ديكاتوريي العرب، وكان يُحكم على من تجرأ على فعل ذلك بالإعدام. أما الآن، ونظرا لتأثير القنصل، أصبح من الممكن الحصول على رخصة وحرسٍ من أجل زيارة دار الصلاة المحمدية المبجلة. ويعتبر بعض أتباع القرآن هذا الأمر نوعا من التجديف. وقد تمكن قُنصلنا كونت سوريا Conde de Soria الذي له علينا كل أنواع اللطف والإكرام، من حيازة ترخيص لنا من حاكم الموقع وجُنديين ليُخلصانا من كل مضايقات

الأتراك الذين ينظرون بعين حَنَقَةٍ إلى المسيحيين الذين يقتربون من مسجد عمر.

وقد أرفق معنا صديقنا الكريم سغوندو فرنانديث ، نائب المشرف العام على البقاع المقدسة ، راهبا خادما شابا عارفا بالبلدة.

خرجنا من خان الدار الجديدة يتقدمنا كواسٌ مسلحٌ بعصا كبيرة ذات قبضة فضية وخنجر محذبٍ ومسدسين عظيمين مُعلقين في حزامه. وتبعنا المسافرين الإسبان المرفوقين بذلك الشاب المذكور ، وخلف الموكب جنديان تركيان بالزري العسكري التركي ، كان المارة من السكان الأصليين يُحيوننا بتحية الاحترام خاصةً حين يرون الشارة القنصلية ترشدنا.

قطعنا بريليوس قسطنطين ومستشفى القديسة هيلانة ، وبابه الكلسي غاية في الجمال ، ومررنا بمدرسة صلاح الدين المهجورة ، وقضينا لحظة كان اليهود يرسلون فيها لعناتهم بشكل مزعج كما هي عاداتهم كل جُمُعة عند السور الخارجي لما كان هيكلا لسليمان. كانوا يصلون ويتوجعون من المصائب التي حلت بسُلالتهم مدة تسعة عشر قرنا. وتابعنا المسير نحو باب "إيستانكيليناريا" *Estanquilinaria* وهي مغلقة الآن. ثم دخلنا باب السلاسل التي تُفضي إلى تلك الساحة الواسعة حيث يلمع مسجد عمر بأناقة. ولم تكن الحراسة أمرا زائدا ، فبمجرد اقترابنا من المسجد المذكور حاولت سحابة من النساء والأطفال منعنا وعرقلة تقدمنا بأصواتهن وتهديداتهن. ولكن الكواس والجنود كانوا يُمهّدون الطريق ويفتحون لنا سُبُلا ضيقة بين ذلك الجمهور الهائل من الأتراك من الجنسين الموجودين في الساحة المذكورة.

كان جبل المريا أساسا لهيكل سليمان، وفي محيطه حُفظ تابوت العهد طيلة خمسمائة سنة. أحرقه بختنصر، وعاد بناءه سيروس *Ciroes* ودنسه أنتيوقوس *Antiochius* وطهره المكابيون بعد ذلك. وفي ذلك المحيط المقدس أعلن الملاك لزكريا النبي ميلاد المعمدان، وفيه أمضت مريم طفولتها، وقدمت ابنها الإلهي الذي كان يُناقش الأحبار هناك وهو ابن إثنتي عشرة سنة. اقتلعه تيتوس *Titus* وفشل يوليان *Julian* في بنائه لتكذيب النبوءات، وملاءه المسيحيون بالنجاسة زمن قسطنطين، وفي سنة 636 اعتقد عمر أن صخرة يعقوب موجودة في ذلك المكان، واستراح بعد أن رأى السلم العجيب، وقام ببناء المسجد الكبير حيث يُشع المرمر والفسيفساء والشبائيك وتُشع زخارف الفضة والذهب.

وقد دمر الصليبيون باللصوصية الخاصة بتلك المرحلة الثراء الهائل لذلك المسجد. وقام الغزاة الأتراك بإعادة تخصيصه للعبادة الإسلامية، وعاد ذلك إلى الانقطاع بعد أن امتلك جنود غودفروي القدس.

تؤدي عشرة أبواب متوازية إلى فناء متسع طوله خمسمائة متر، وتفتح داخله منصة من الحجر علوها سبعة أقدام. وتظهر اثنتا عشرة بابا متفاوتة الأحجام غير منتظمة، خفيفة وجميلة. وهي تُشبه تلك الموجودة في قصر الحمراء، وهي تحمل بشكل دائري الحيطان المبلطة بالزليج الأزرق لمسجد عمر. وهذا المسجد من الداخل مُثمن الشكل، مبلط برخام ملون، ويقوم اثنان وثلاثون عمودا من نفس الحجر بحمل القبة والحنيات. وحيطانه مصبوغ بالأزرق والقرمزي، وتبرز فيها آيات من القرآن مذهبة الأحرف تحت بريق سعة آلاف قنديل. ويهتم هذا البناء ببناء مُثمن الأوجه به نوافذ،

وعليه قبة مذهب يندفع من قُنتها سهم أنيق ينتهي بهلال. وداخل المسجد فضاء مربع محاط بحديد وحِصارٌ من الخشب المزخرف بعناية يُحدد مكان الصخرة المشرفة. وعرضها ستة أمتار. وفي الأعلى يُرى علمٌ من حرير أخضر وأحمر ناعم، وهو حسب ما يُحكى قطعةٌ من خيمة أهداها الرب لآدم عندما عثر هذا الأخير على حواء قريبا من مكة بعد أن أمضى قرنا من الزمان في البحث عنها.

والصخرة المبجلة من طرف المسلمين موجودة في الحقل الذي اشتراه داود من أرنان اليبوسي، وفيها أكلت نار السماء القربان المقدم من طرف الملك النبي. وعليها وُضِعَ تابوت العهد مدة خمسمائة سنة في هيكل سليمان. ولذلك سموا ذلك المكان قُدُس الأقداس الذي لا يمكن لأحد أن يقترب منه إلا الكاهن الأعظم يوم الغفران مرة كل سنة. وغرب الصخرة يُميز أثر يد. وتُفسر الرواية الإسلامية هذا الأثر كما يلي:

لما احتاج محمد أن يصعد إلى السماء، ركب البراق العجيب، وهو فرس أبيض اللون أهداه له جبريل، فاستعمل الصخرة من أجل الصعود إلى حمى الرب، وشرع في الارتقاء إلى درجة لم يسمح الرب بالمزيد حتى لا يحرم العالم من تلك الجوهرة (أي الصخرة)، وقام الملاك بإيقافها، وبصمة اليد هي للحامي السماوي محمد. ويرشد المسلمون إلى راية ومقعد الفرس المُستَعْمَلَيْنِ في ذلك المعراج السماوي.

وقرب الصخرة توجد خلوة صغيرة دائرية مكسوة بيشب ثبت فيه الرسول تسعة عشر مسمارا من الذهب تُبين ما بقي من عمر العالم. وبعد قرن من

ذلك انتزع مسماراً واحداً، ويقال: إنه اختفى لئدعم عرش الرب. وحاول الروح الشرير الراغب في التعجيل بنهاية العالم سرقة المسامير المتبقية في يوم من الأيام، غير أن الملاك جبرائيل فاجأه وطرده من هذا المكان إلى الأبد.

ولم تبق إلا ثلاثة مسامير اختفى آخرها منذ خمسين سنة خلت. وهم يعتقدون بنفس الطريقة الشكلية، أن الصخرة المشرفة مُعلّقة في الهواء دون ركيزة، اللهم النخلة المخفية المحمولة بأيدي النبيين الكبار عيسى المسيح ومحمد. ويحول حائط قوي دون تمكن الناس قليلي الإيمان من التحقق من صدق هذه الحكاية.

لكن المؤمنين بذلك الأمر لا يترددون في الاعتقاد حينما يلاحظون عدى تلك الأحجار، أن التجويف المفترض شبيه ببثر الأنف التي يجتمع فيها المختارون الذين يذهبون إلى الجنة لينعموا بجوار الرب.

ويوجد الرواق حيث يُعلق الميزان الذي سيزن حسنات وسيئات الناس يوم الحشر جنوب المسجد. وهناك سيجتازون الصراط. وهذه القنطرة تمتد من مسجد عمر إلى قنة جبل الزيتون، وهي تعلو وادي يوشافاط. وهي رقيقة كحد سكين الحلاقة. وهذه الدقة تجعلها غير مرئية من طرف كثير من الناس. يجتازها الصديقون بمساعدة الملائكة دون أدنى خوف، أما المذنبون الذين لا مُساعدة ربانية لهم فيسقطون في الأعماق حين يهيمون باجتيازها فيُعانون من شر خطاياهم.

وبعد رواق الميزان يقود دهليز عظيم إلى المسجد الأقصى المختفي. وبه دُفن أبناء هارون كما هو مشهور، وكان هؤلاء قد ماتوا في الصحراء قبل الوصول

إلى أرض الميعاد. ويتكون هذا المسجد من سبعة أروقة طويلة وقبة رائعة. ويحتفظ المسلمون بأثر قدم عيسى المسيح داخله. وبالقرب من ذلك، يوجد عمودان يُسميان "عمودا التجربة"، وهما متقاربان. ولا يتيسر لأي محمدي النفاذ بينهما دون أن يكون عارفاً بكيفية الانزلاق من خلالهما. وقد أدى ذلك الاحتكاك المستمر للمعتقدين بدينك العمودين إلى تآكل حجارتهما إلى درجة تيسر فيها لكل جيل دخول جنة محمد. وينبغي ترك الحذاء عند الباب سواء في مسجد عمر أو في هذا المسجد الأقصى. وليس من المرضي الإحساس ببرودة المرمر وظلمة الدهاليز لمن لم يعتادوا المشي حفاة.

وعند مغادرة ذلك المعبّد، يمكن الدخول إلى كنيسة رهبان الداوية المهذمة، والتي تؤكد الرواية المسيحية أن العذراء مريم قضت في بهوها أسبوعاً كاملاً رفقة شمعون العجوز أثناء تقديم ابنها في الهيكل. وقريباً من تلك الكنيسة، يوجد دهليز يُعتقد أنه من هيكل سليمان، وفي أروقه الطويلة سبعة وتسعون عموداً من الرخام الرمادي. وهذا الدهليز آية في الجمال.

المنظر العام لشوارع القدس

المنازل - معطيات تاريخية واجتماعية - المستشفيات

تُعطي عمارة اليهود الخشنة الفاسدة جواً مُحزناً للمدينة؛ شوارعها ضيقة ومُعتمة، وممراتها مغطاة حتى إنه يَعْسُرُ في جانب كبير منها مرور الهواء والضوء، وأحجارها عارية غير مبلمطة، وفيها فجوات تملأها القمامة

والأزبال، ولا تُرفع تلك القمامة على الإطلاق. تجوُّبها عصابات من الكلاب الضالة الجائعة في كل الأوقات، وهي تتغذى على الفضلات وتقطع الطريق العام.

وبجانب باب يافا وباب دمشق بقايا جِمالٍ ميتة وخيول وحمير، وهي تُفسد الأجواء برائحتها النتنة الكريهة، وتنهشها الكلاب.

وتتكون المنازل من قطع الأحجار العظيمة غير المرصوفة جُمعت إلى بعضها البعض بغلظة، ليس فيها نوافذ ولا شُرُفات مطلة على الشارع. وتنفث بعض الفجوات إلى فناءات تلك المنازل الثقيلة.

ولا يوجد سبيل إلى الاستمرار في الواجهة إلا ما كان من أمر باب صغيرة على غط باب الاستحكامات. وتبدو البلدة عند رؤية ذلك النمط من الأحجار مقبرةً. وَيَخَالُهَا المرء صحراء رملية نبتت فيها مُنشآت جنائزية متناقضة. ولا تجد في شوارعها نَسَمَةً حياة إلا أرواح هؤلاء الأجانب الصامتين الذين يتأملون بحزن كل ذلك الدمار. ولا تسمع أدنى ضوضاء أثناء الليل، ولا يُرى ضوء، ولا يمكن الذهاب إلى أي مكان، ولا يوجد بها مكان للاجتماع خارج الحان أو الدير. وليس للأسوار خنادق ولا مقدمات قوية، لكنها ذات شُرُفات عالية وكُوات، وأربعة حصون قديمة نصف رومانية ونصف قوطية. وهي توجد على أبواب يافا وصهيون وسان إشتبان ودمشق.

أسست أورشليم، سالم القديمة، من طرف ملكي صادق الملك الكاهن حسب سفر التكوين. كان ذلك على الجبل المعروف بـ"أكرا"، ويوافق ذلك

التاريخ 1175 قبل مجيء عيسى المسيح. وعندما خضعت لليوسيين، وهم من خَلَف الكنعانيين بنوا فيها حصنا على جبل صهيون الذي يفصله عنه وادي أكرّا. واشتُق الاسم الحالي من اجتماع كلمتي ييوس وسالم. وقد عُرفت أورشليم بتاريخها: توعدّها يشوع بالأسر، واتخذها داود بلاطا ومكانا لتابوت العهد، وبنى فيها سليمان الهيكل المشهور الذي حطمه الملك بختنصر ملك بابل. وسيطر الإسكندر وطولومي وأنتيكيوس بالتتابع على يهودا التي أعلنت استقلالها عن المكابيين، وقام بومبيي بإخضاعها، وحكمها هيرودوس عند ولادة المسيح. وبعد حريق شهير خربها تيتوس، وسماها أدريان لإيليا كابتولينا. وقامت القديسة هيلانة وقسطنطين ببناء الهيكل فيها، ودُنست تلك الهيكل بعد ذلك بقرنين من طرف كسرى. ووصل إليها عمر بن الخطاب بعد ذلك بأربعين سنة، وبنى فيها مسجده الكبير. ولما تولى هارون الرشيد حُكمها، وكان حليما مع المسيحيين، سلم مفاتيح المدفن المقدس لشرلمان المعظم *Carlo Magno* في القرن الثامن. واقتحمها الصليبيون عام 1099 وقتلوا سبعين ألف محمدي. وبعد مائة سنة، سقطت القدس في قبضة صلاح الدين الذي حاصر مائة ألف مسيحي داخل الأسوار، وافتداه فدريك الثاني.

سُلِبَت القدس سبع عشرة مرة، وكانت ضحية اعتداءات متتالية للشعوب المجاورة. سكنها على عهد سليمان أكثر من مائتي ألف نسمة، ولا تعيش الآن إلا من الحجاج. ليس فيها صناعة ولا فلاحة ولا أي مورد من الموارد التي تغذي المدن الكبيرة. ولولا أنها محط تبجيل من المسلمين واليهود والمسيحيين لتقلصت إلى قرية صغيرة. عدد سكان القدس حسب آخر إحصاء

واحد وعشرون ألف نسمة ، وهم ينقسمون بحسب دياناتهم ومذاهبهم إلى ما يلي :

اليهود	8000
المسلمون	7565
المسيحيون الكاثوليك	1500
الإغريق المنشقون	2800
الأرمن المهرطقون	510
الأقباط	130
البروتستانت	300
الأييسينيون	75
السريان	12

ويمثل اليهود العنصر الأساسي ، ويتعاطون إلى التجارة ، وهي نشاطهم المعتاد. وهم ينعمون برفاهية مستمرة. ورغم مظهرهم الحقير ، وحال خرائب دورهم المتميزة بالبداءة والفقر لا يعدمون الموارد. ومن عاداتهم البكاء على دولتهم المتزعزعة حتى لا يُضايقون بالابتزاز واللاتسامح التركيين. وعدد كبير منهم مُسجل في قنصليات مختلفة كأجانب. وقد تسجل في القنصلية الإسبانية على سبيل المثال 3000 آلاف يهودي يزعمون أنهم من سلالة اليهود المهجرين من شبه الجزيرة الإيبيرية في فترات التعصب الديني ، وكلهم يتحدثون اللغة الرومانشية ؛ لغة القرون الوسطى ، بشكل صحيح ، ويؤدون وزنهم ذهابا لقاء قبر على الحافة اليسرى لواد سدرون في واد يوشافاط.

ويعتبر المسلمون أكثر سكان أورشليم بؤسا. وهم لا يتوفرون على حماية القناصل، وليس لديهم مورد يقاومون به نظرا لكسلهم، وهم معرضون دائما لاستبداد السلطات؛ إنهم منبوذو المدينة الحقيقيون.

وعكس ما حدث في الأزمنة السابقة، فإن المذاهب المسيحية المختلفة تنعم بحرية في العبادة، وذلك لكونها تحت حماية الدول الأجنبية.

ويمثل القناصل الأجانب أكثر الطبقات حظوة واحتراما، يتقدمهم دائما حارسهم الخاص الكواس، ويلجئون كل الجهات دون أدنى حاجز يُذكر، ويكفيهم استنكار واحد يوجه إلى الوزير أو إلى سفيرهم في القسطنطينية للإطاحة بأي موظف تركي أو الإحراز على تعويض كامل عن أدنى سبب قد يتعرض له أحد الحجاج في منطقة يهودا. وهكذا فإن السلطة العليا في أورشليم متحمسة في كبج جماح كل العمليات ضد السكان الأصليين، وهي تعاقب بقسوة متناهية على الجرائم التي تقترب ضد الأوربيين.

ويكفي دليلا على التخلف الفكري لهذا البلد أن جنرال الحرس علي باي الحاكم الأعلى المدني والعسكري للمدينة لا يعرف القراءة. وعُدة وغذاء عسكر هذا الحاكم في درجة يرثى لها. ويقوم الجنود بحراسة أبواب المدينة ويسرقون بكل صفاقة أهل البادية حين يهيمون بتجاوز تلك الأبواب لبيع معاشهم القليل. وبالمقابل تقوم نفس فرقة العسكر بحراسة الأوربيين وحمايتهم من كل مضايقة لقاء نصف ريال يُسلم إليهم كما جرت العادة.

ويندر وجود شعب تضرب فيه الحاجة إلى درجة معتبرة كما في أورشليم، ولا وجود لآخر يطاله استبداد للسلطات غير مطاق كهذا الشعب. ولولا المحبة المسيحية لقضى عدد غير محدود من الناس نجبه من الجوع.

وكما في كل البلاد الخاضعة لحكم الهلال، ينقص التعليم الرسمي والتنظيم الخيري، ويكثر عدد المنبوذين الجوالين والمكدين لابسى الأسمال الذين يستجدون الصدقات قائلين: سلام.

وشيد فرسان سان خوان المعروفون باسم "أسبارتية" مستشفى في القرون الوسطى في المكان حيث كان سجن سان بيدرو *San Pedro*. والطاقة الاستيعابية لهذه المستشفى 2000 من المرضى. وتحولت فيما بعد إلى دير بيندكتي ونزل للحجاج تحت اللقب المقدس للقديسة مريم الكبرى *Santa Maria La Mayor*. وقد نهبه الأتراك وتركوه نصف مخرب. كان ذلك في نهاية السنة الماضية. وأهداه سلطان القسطنطينية إلى ولي عهد بروسيا.

وبتدهور الباب العالي، واضطرار الحكومة التركية إلى قبول شروط القوى الكبيرة، تطفئ نير الحديد الذي تُعامل به مختلف المذاهب المسيحية، وأصبح التسامح كبيرا، وصار بإمكان المؤمنين بالإنجيل التجول بكل أمن في الأماكن المقدسة ودخول المساجد وبناء الكنائس الفخمة وممارسة عبادتهم دون أدنى معاكسة رسمية.

ولم يستفد أحد مثل الإغريق من الإعفاءات والاستقرار بشكل قوي ودائم حتى أنهم هددوا بامتصاص واحتكار الأرض المقدسة. وقاموا في وقت وجيز ببناء قلعة حقيقية في مكان قريب من باب يافا. وتشرف هذه القلعة

على أورشليم. ومن الأسوار العالية والقوية للبناء الروسي المستجد برزت كاتدرائية كبيرة إغريقية وقصر معتبر للقنصل والملحقين به وخانان كبيران وكنيسة أخرى. ويقيم هناك أشخاص أثرياء من الطائفة، وهم يؤدون أثمانا متفاوتة بحسب ثرواتهم. كما يأوي هناك فقراء لا مال لهم. وهكذا فإن جانبا من تلك المؤسسة فندق بهي فاخر يشبه أمثاله في أوروبا، والجانب الآخر ملجأ متواضع يستفيد منه المعوزون.

وتظلل أشجار الحور الملتفة تلك القرية المسكوفية الكامنة خلف المدينة المقدسة، ويوفر صهريج فسيح الماء النقي لمؤمني هذه الساكنة، بينما يُقدم ثلاثة أطباء روس وصيدلي وعدد مناسب من الخدم، الخدمات الضرورية لهؤلاء الحجاج المتجددين. ويصل إلى هذه القرية قرابة 400 و500 أورثودوكسي كل الأسابيع تقلهم إليها بواخر بلدهم العظيمة.

ومؤسسة البروسيين واسعة وأنيقة، لكنها مع ذلك لا ترقى إلى سابقتها. وتحمل الحكومة البروسية مصاريف الكنيسة والمستشفى والمدرسة البروتستانتية التي ترمز في فلسطين إلى الازدهار المتصاعد الذي تعرفه ألمانيا الشمالية. ويتوفر الإنجليز على مؤسسة دينية واستضافية، وهي مسنودة بكرم مميز؛ فأجرة الطبيب الإنجليزي الذي يسير المستشفى 5000 ريال، وله دار خاصة ومكتب في القنصلية.

أما فرنسا التي تتنافس مع جيرانها في الرين وقناة لامانش فتتوفر على مستشفى ومدرسة كاثوليكية. أما إيطاليا فتسعى إلى تشريف علمها وقد حاكت نموذج فرنسا وباقي الدول الكاثوليكية والأرثودوكسية والبروتستانتية.

ولإسبانيا هناك ذكريات لأمجاد سالفة ، ولا زالت هناك هدايا عظيمة من ملوكها في كل المزارات ، ولها هناك بعثة من الفريلية ، وغالبا ما تُنفق هذه البعثة قوتها في إغاثة الفقراء ، لكن انعدام الموارد لا يسمح لها تحمل مصاريف ملجأ صغير ترفرف عليه ألوان قشتالة وأراغون وجها لوجه مع ألوان أعلام الشعوب المسيحية الأخرى..

القدس كما رآها إنريكي غوميس كريبو

وشيئا فشيئا، أخذت هذه الأزقة التي تبعث بداخلي في بادئ الأمر إحساسا مُضايقا من الموت بهدوئها وفراغها، تَتَنَغمُ بطريقة غريبة. ولم أعد أحس كضائع في مقبرة. وتحركت حولي حياةٌ عجيبة في فضاء صوفي بين همهمات الصلاة وخفقان النواقيس. لاشيء من الشرقي، لا شيء من ربح الشرق، لا شيء مما تمت رؤيته، لاشيء مما تم الحلم به...

فقط عند باب يافا، تمنح الأسواق المليئة بجوانيت التحف والمقاهي التركية التي تَضُوع بالتبغ الأشقر، والحركة العامة للبالغين والمترجمين والسواح، مشهداً حالما شبيها جدا بمشهد المدن الأخرى في سورية. لكن هذا لا يحتل إلا مكانا قليل الأهمية؛ فعلى بعد قليل، حيث تُظلم الأزقة بظل الحيطان العالية الصوفية، تبدأ أورشليم الحقيقية...

وحينئذ يتملكنا إحساس خاص. إحساس يختلج فيه شيء لا يوصف،
وشيء كارثي مقابل، وانطباع عظيم وخيالي للحلم.
"ماذا يوجد هنا؟ - تساءلنا - أي شيء مُقلق، أي شيء رفيع، أي شيء
نادر يوجد هنا؟..".

توجد الذكريات بطبيعة الحال؛ كل الذكريات الإلهية التي تعلو الأبراج
والقباب بمقدار يجعلنا نتألف مع الأمكنة المبجلة... يوجد كذلك الجو الحزين
الذي يُلَف دائما الخرائب العظيمة... توجد همسات الصلوات التي تملأ
الأجواء... توجد الأنوار التي تشع في الدياجي مذهبة الصور المقدسة. يوجد
في النهاية شذا البخور والصبر الذي يُثْمِلُ بشكل خفيف...

وخارج هذا، تستحيل مُساءلة المدينة المقدسة عن أسرار حياتها الحالية.
وكلما اقترب من نافذة مفتوحة ينطفئ كل شيء في الداخل كما في فن
السحر، وتحتفي حتى الأوهام. والخلائق التي نلتقي بها في الشوارع من
الذين يعيشون في أعماق الأديرة، والذين يملكون ويميزون عن الحيوان
الرمادية مثل الأشباح، يختفون كذلك حتى أننا لا نكاد نراهم، ويصمتون
ولا نكاد نسألهم.

السؤال... لا يجب السؤال هنا. لا يجب سؤال أي شيء. والشوارع نفسها
تبدو كما لو كانت تفر من كل استملاء. وأنا أصبر في بعض الأحيان على
اختبارها بعناية لأستخلص الجمال الذي يحركها. وهي حينئذ تبتعد، وببطء
وبدون ضجيج تصعد رمادية ومائلة مُخلفة مُعرجات سلحفائية تصعدُ

وتتقاطع ، وتنزلُ تحتُ سقوف قديمة ، وتمتد بين فِناءات سه داء تصعد دائماً
لتدخل فجأة وبإخلاص كنيسةً أو ديراً.

وحين نتأمل خريطة البلدة الواقعة داخل الأسوار ، وهي الوحيدة التي
يمكن أن تهمنا ، لا نرى على الرغم من ذلك شيئاً معقداً تعقيداً خاصاً في
الطوبوغرافية اليرושليمية. فمن ساحة القلعة الواقعة في سفح حصن داود ،
تقود طريق متسعة نسبياً إلى حي الأرمن. وهناك في العمق ، تبدو حدائق دير
سان سانتياغو *San Santiago* بأشجار سرورٍ السوداء الشاهقة ، وسُطوحه
المزهرة. وتُزين تلك الحدائق حقلاً واسعاً وتُعطّره وكأنها واحة وسط
الأحجار التي تحيط بها من كل جانب.

وتمتد منازل الأرمن إلى حدود باب الوادي. وبعيدا بعض الشيء ، وباتباع
الخط الداخلي للحصن ، يوجد ما يُسمى هنا بالمقبرة الإسبانية ، وليست في
الحقيقة إلا الجبانة السيفاردية. بينما تخترق طريقٌ مُستقيمةً منازل اليهود ثم
تعود إلى مركز البلدة.

ومن هناك ، ومن طريق باب السلاسل ، يُتوجه إلى هيكل هيرودوس ،
وهو يتكون من فضاء فسيح يتحكم في كل أرياف أورشليم الحزينة المزروعة
بالقبور. وبالرجوع من شارع العامود يتم الوصول إلى باب دمشق حيث يبدأ
الحي الإغريقي بأديرته البديعة وكنائسه الفاخرة.

ومن باب دمشق إلى المدفن المقدس يتم المرور من طريق على اليمين وهي طريق باب العامود، لكن كل هذا الذي يبدو واضحاً على الخريطة يتعقد بشكل رهيب في الواقع.

ودون اتجاه معين، ودون هدف محدد، أتجول قُرابة أسبوع. ويوما بعد يوم أدرك بشكل أقل لغز الطبوغرافية. وبالمقابل أحس كل مرة بجمال المدينة وتشكيلتها بشكل أفضل.

توجد حصّة من السر في هذا الهجر، توجد حصّة من الكآبة في هذا السر...

وبالنسبة للذي يريد الاقتناع بالإحساس بجملة جمال أورشليم الصوفي، فإن هذه الأزقة تفتقد إلى اللغز. فهي مقسمة إلى ثلاثة أو أربع حارات. والمدينة هي في نفس الوقت مسيحية ويهودية ومحمدية بتعصب كلي. اليهود يصونون البقية الوحيدة لهيكلهم، ويتوجعون أمام حائط المبكى. والمسيحيون يُصلون على قبر المسيح. والمسلمون يحرسون تحت قبة مسجد عمر صخرة مقدسة.

وهذه العبادة الثلاثية الدائمة التي تشارك فيها نفوس الأعداء بطريقة أخوية دون أن تتنبه إلى ذلك في مذهب حب مثالي واحد، تملأ هذا المحيط المقدس بجاذبية.

وفي هذا، وفي الأشباح المقدسة التي تمر بين الدياجر، يوجد الكثير مما يفتن نفس الحاج الشغوف العارف الذي لا يسأل بطريقة دقيقة.

السؤال...؟ فهل نظل مشتاقين بجانب الأسرار؟ وهل نحاول اكتشاف روح الماضي من بين شكوك الحاضر؟ هل يُسأل كل حجر عن عمره؟.. لقد حاول العالم النزقُ بِلْدان Peldan، وهو أحد الحجاج المتأخرين فعل ذلك، لكنه لم يتمكن إلا من تنغيص أيامه اليروشليمية.

وأفضل بدوري - بعض التجارب المخيبة للآمال - مُتَابَعَة جولاتي كمتفرج ساذج، فأنا حينما أعر على تاريخ محفور على نُقِيشَة أصدقها، حينما يقول لي قسيس اسما مقدسا أنخني دون أن أناقش، حينما تُرشدني يدٌ تقيّة إلى طريق مبجل أتبعه بإيمان جيد.

« Que nous fallais avoir foy des lieux saints qu on nous montrerait, ou si ne vollusme estre tels, de prissisme point de palme »

قال ذلك حاج مشهور منذ قرون عديدة. وكان في الوقت نفسه عالما كبيرا. لماذا أصنع مثله؟، لماذا أورط حصتي من اللجنة المتخيلة في تحليل مُنْغَص لا طائل وراءه.

تخيلت على أن لا أكون إلا فضوليا، أستمع بلذاتٍ تَفُوقُ الوصف. جَهْلُ بيير لوتي Pierre Loti يَجْعَلُكَ أسعد من عِلْمِ بِلْدان Peldan. لكن الجهل هنا لا يكفي. لا بُد من التوفر كذلك على بساطة الروح التي أثنى عليها يشوه من على الجبل.

ينبغي الاعتقاد دون قيود، ينبغي الاندهاش دون رهبة، ينبغي المحبة دون خجل...
خجل...

أحب هذه المدينة المقدسة في عمقِ كآبتها بحماسةٍ، أحبها رغم خُدعها المتعبة، أحبها كما يتوجب حبها في سِنَةِ التأمّلات الممجّدة والغامضة. وعوض السؤال كما يسأل الأثريون عن أرضها، قلت: ماذا يوجد بين دِثَارَاتِكِ العنيفة؟، وأعدت ترديد الجملة الصوفية *Dic novis Maria*، وإذا ما كَذَبَتْنَا العقيدة في النهاية، كَذَبْنَا العلمُ كذلك، وهناك فرق شاسع بين الكذبة والأخرى.

ومنذ اللحظة التي لم أعد أمتلك فيها شيطان الأسئلة، تُصوّر لي أن نفس الأرزقة أضحت موافقة لي. إنها لم تُعد تهرب... إنها لم تعد تضيع بين انقضاءات الديرية المخرمة علي.

إنها تذهب ببطء ورهبانية وسعادة نحو قمة التلال، وأنا أتبعها دونما سرعة. مُقْتَنِعٌ أنا بأنه ليس من السهل على غريب مثلي معرفة أسرارها، وقد رضيت بتجمل هواها.

حينما تأخذني إلى حيث لا أريد أن أذهب، حين تتركّني عند نهاية زقاق لا مخرج له، حين تقتادني حتى الأسوار، أعود القهقري وأتأمل من جديد ما سبق لي رؤيته.

وأردد أنني أوجد في مدينة داود وهيرودوس ويشوع، أوجد في أورشليم المقدسة دائماً.

أورشليم - قال رينان متحدثا عن المحاولات الأولى للمسيح - كانت حينئذ بكثير أو قليل على ما هي عليه الآن. وهذه الجملة الناقصة تتبعني حُلوةً في كل جولاتي الآتية. هل يوجد حقاً هنا، حيث يوجد، في هذه الطرقات التي أسيح فيها، في ظل هذه الحصون وهذه القباب، شيء يجعلني أقول: نعم يشوع، نعم يشوع، ستعود لتتحول إلى إنسان، وإن هذا المكان مألوف لدي.

لم تبق من الآثار القديمة إلا الأسس، تحت طبقات عظيمة من الأنقاض. لكن الآثار ليست هي التي تُكون بالتحقيق ملامح المدينة، بل ملامح الطرقات والأزقة الفقيرة بدورها الفقيرة، بحياتها اليومية المتواضعة. إن للحجارة صفة قليلة في المشرق عكس ما هي عليه في باقي البلاد، كما أن لها هناك بقاء أقل.

ففي دمشق، حيث توجد فقط بقايا الهياكل المبنية من طرف قسطنطين وجوستينيان، لا تزال الطريق التي مر منها القديس بولس بعد رؤاه موجودةً هناك على حالها ساكنة.

لماذا لم يَحْدُث نفس الأمر في أورشليم؟ لماذا ليست هذه المتاهات من الأزقة الضيقة هي نفسها التي أحس فيها يشوع الوارد عليها من الجليل بحزن يهودا الكبير...

كان للشرقين عامة، ولليهود خاصة عبر القرون تمسك عجيب بأشيائهم، بمذاهبهم، بعاداتهم، بلباسهم وعاداتهم الغربية. كل شيء يبقى بينهم غير متغير رغم التطورات والثورات.

ويروق للعلماء رؤية خيام إبراهيم السوداء في المخيمات الحديثة. وفي المدن كما في البوادي تنقلنا الجماهير الحالية بجلايبها الفضفاضة، وقبعاتها الفريدة إلى مسافة ألفي سنة بمجرد أن نتأملها. وفي الأمكنة التي لم يَخْتَفِ سكانها، لا زال المعمار نفسه على ما كان عليه في الأزمان الغابرة. وطبرية هي صورة ساكنة، كذلك وصفها فلافيو يوسفوس. والقرى الأخرى التي تختبئ بين الصبار، تبدو كما لو كانت مُحَنَطة منذ أن زرع الأنبياء النباتات في أرضها.

لماذا لم نحتفظ أورشليم بمظهرها القديم، وهي أورشليم المحبوبة أكثر من غيرها من المدن، أورشليم المقدسة، أورشليم الفريدة؟...

لا زالت بعض الأسواق الخاصة التي يعتقد البعض أنها ابتداء عربي، تساهم في المحافظة على صفة الحياة اليرושليمية. لقد اكتشف الآباء البيض في حفرياتهم المتأخرة كثيرا من الأشياء التي كانت تُباع في الزمان القديم في دكاكين الأسواق العبرانية. وهي شديدة الشبه بالتي نراها الآن في كل مكان.

واحد مظاهر الأسواق - يقول أحد الأركيولوجيين الذين حاولوا إعادة بناء الحياة القديمة - في الشوارع التي خُصصت لأعمال الهيكل : مئات العمال الذين يطرزون البراقع، والذين يُحضرون عطور البخور، والذين ينقشون الحجر والمرمر.

والآن، لا يتم الإحساس بانطباع مماثل حينما يتم الاقتراب من باب يافا بين الأكواخ المليئة بالأشياء الصوفية، والتي ليست مخصصة الآن لهيكل الرب بل لهياكل يسوع...؟ والعمال الذين يعيشون الآن من تطريز البراقع وتحضير البخور، هم كذلك مئات المئات.



تأسست أورشليم منذ ستة آلاف سنة على صخرة عالية تحيط بها وهادئ. وفي هذا دليل على عدم تَغْيَر موقعها. ففي المكان الذي عُلّت فيه اليوم أسوارٌ وسيطية، ارتفعت في الزمن القديم الحصون السليمانية.

ولم يلاحظ العلماء تَحَوُّلاً في حزام الحصون اللهم في الشمال حيث توسعت الساكنة وتمكنت من ربوة الجُلُجَّة التي كانت توجد خارج الأسوار في زمن آخر. أما في الجنوب والشرق فقد استمر الخط على ما كان عليه؛ فتحت كُتَل الحجر الحالية، لا زالت كتل عظيمة تمتد إلى باب الوادي وإلى حوض سلوى، وإلى الباب الذهبية. وهي التي تَحَدّت توسع المنجانيقات الرومانية.

وداخل هذا الحزام، وجد الإمبراطور أدریان، الذي كان أول حاج جليل بعد خراب الهيكل، حقلاً من الخرائب الأثرية التي لم تصمد منها إلا منازل السكان البسطاء. فقد خرب الوثنيون كل ما يمثل فخرَ الشعب اليهودي. لقد كانت الحصون والبيعُ غنيمةً للنيران. ولم يشأ الرب الرهيب أن تظل مدينته المختارة قائمة بعد احتراق هيكله.

لكن أورشليم لم تكن بالنسبة لليهود المدينة المقدسة فحسب، حيث الهيكلُ وتابوت العهد، وقُدسُ الأقداس. لقد كانت كذلك مدينة الروايات المألوفة للذكريات الشعرية والآمال الوطنية.

فمنازل جبل صهيون، كانت في نهايات القرن الأول من عصرنا مسكونة من طرف حُماة الهيكل الذين كانوا يُعدون في الظل، مليئين بالشراسة والنشاط، محاولة الترميم التي من شأنها التسبب في ثورة بارخوخيا سنة 133، والذي حمل العالم على الاعتقاد بأن دولة إسرائيل ستنتهي إلى النهوض قوية رهيبة من رمادها خلال ثلاث سنوات.

وبمجرد أن تلاشى هذا الأمل، تم طرد اليهود. وكانوا على استعداد ليس للاختفاء بل للانتظار في صمت. انتظروا قرونا وقرونا، وعادوا شيئا نسيئا، واحدا واحدا، بجذر، بتواضع، ببذاءة، عادوا إلى المدينة المقدسة لمقاسمة الأنقاض مع إخوانهم الأعداء من تلاميذ المسيح.

وعلى قنة جبل المريا، حرس فرقة رومانية على أن لا يتجاسر أحد برفع أسوار القصور والهيكل من جديد. وكان على الحصون نفسها أن تستمر محطمة. واحتضن الأباطرة الاستيطان الوثني، وقد أرادوا أن يفرضوا على مدينة داود صفة اللباس المشترك لكل المدن التي عزتها جيوشهم.

وفي الإحصاءات الرومانية، كانت أورشليم تظهر باسم إيلياء، لكن لم يلجها في الحقيقة أي عنصر جديد. وقد قسم اليهود الأرثوذكسيون، واليهود المسيحيون - نظرا لمحبتهم للأشياء التقليدية - النطاق الحقيقي للأرض بشكل سريع.

وشكل بعض المهاجرين الإغريق الواجهة الجديدة. وكان العمق دائما نفسه ؛ عمق تعصي وطني وديني. وكل واحد من المذهبين ، اعتقد بمشروعية انتظار المستقبل ، كان العض سيكون مختبئين من الكتائب عند قدم السيد. وشيئا فشيئا ، بدأت المنازل المهجورة تُرم ، واستعادت الطرقات الرئيسية حركة متواضعة دون أن يُفكر أحدٌ في تغيير الطبوغرافية العامة.

وهكذا ، حينما أرادت القديسة هيلانة نبش بقايا أثر المخلص بيديها التقتين ، لم تكن في حاجة إلا إلى إعادة تحريك الأنقاض المتراكمة لمدة أربعة قرون من الإهمال.

وهنا تساءلت الملكة الشديدة التقوى قائلة : هنا موضع القتال ، فأين هو أثر النصر؟.

وبعد ذلك ، وبعد أن اتخذت قرارا قويا قالت : فلنكتشف هذا الخراب لكي يبدو لعيان كل العالم.

بعد ذلك ، وحين غزا الصليبيون المدفن ، حرك ذلك الاعتقادُ قديسا مُخرفا ، فاعتقد أنه يرى المدينة كما رآها السيد ، لكنها حزينة بسبب ثأرها الخالد.

وقد قدم مظهر حقولها العظيمة وجبالها المحترقة ، كما قال ميشو *Michaud* للمحاربين صورةَ جِداد. وهذه الصورة تخلدت على مر القرون ، وهي التي تؤثر فينا حينما نلج مَتَاهةَ أزقتها ، فكل شيء حزين داخل الأسوار. الحقائق نفسها نادرة جدا ، وليس فيها إلا أشجار آس وسَرَوٍ وريحان...

وعندما نُطل على الشرفة التي شكلت سُور هيكل هيرودوس القديم، والتي هي الآن سطحُ الحرم الشريف، فإن أول ما يظهر لنا في الجانب الجاف من الجبل، المقبرة التوراتية بقبور أبشلوم وزكريا ويوشفاط.

بعيدا شيئا ما، وعند قدم الأسوار القديمة بجانب باب صهيون، أطلعنا المرشدون على قبر داود. وبمحاذاة باب دمشق، وسط وادي سدرون، حيث يَدْفَنُ اليهود اليوم أغنياء موتاهم، يوجد ضريح أرمياء، وهو مغارة سوداء باردة.

وقريبا جدا من هناك، بجانب دير سان إشتبان *San Esteban*، في مكان عجيب، يوجد ضريحان هما الأكثر فخامةً في فلسطين، وهما للملوك والقضاة يفتحان مَزَارِدَهُما العظيمة. وفي الجانب الآخر من المدينة، بين البساتين المزروعة من طرف الإغريق، لا زال يوجد ضريح الملك العظيم هيرودوس.

وفي سطح جبل الزيتون، قريبا من حديقة جتشماني *Ghetsemani*، يُصَلِّي الفريلية الأورثودوكس نهارَ مساءً قُرب ضريح العذراء مريم. وفي إحدى الأزقة المركزية في طريق الجماجم بين الأسواق ومسجد عمر، تُبجل النساء القديسة فيرونكا *Santa Veronica*. وفي وادي يوشفاط، بجانب أبشلوم وزكرياء، يستريح سانتياغو الصغير *Santiago el menor* في ضريحه. ويَخر الحجاج الفرنسيون على رُكبهم في كنيسة إغريقية أمام القبور المدنسة للمُحَارِبِينَ المقدسين غودوفروي وبالديونو.

لكن هذه القبور المقدسة ، والتي كانت تكفي في مكان آخر لتشكيل أعجب مقبرة أثرية ، لا تُسَعَف إلا لتحويط قبر أكثر بهاء هو لابن الانسان ؛ القبر المقدس لأورشليم المقدسة.

والحقيقة ، وبالنسبة للمسيحيين ، كل شيء يدور داخل المحيط اليروشليمي حول القبر المقدس. وما خِلْتُهُ في البداية نَفْسًا جنازياً هو نَفْسٌ قُبْرِي. والساكنة تعيش وتتحرك وتنبض. لكن ، حول قبو جنازتي فقط. وحتى غير المسيحيين يُحسِنون بثقل ظل القبر على أنفاسهم. وقد عوض هيكُلُ عيسى هيكُل سليمان. وهكذا كما اهتز كل شيء منذ ألفي سنة عند سفح صهيون ، يتحرك الآن عند الجُلُجْثَةِ ، بينما عوض الفرنسييسكانيون والأورثودوكس والأرمن واليعاقبة ، السدوسيين والفريسيين بشكل نافع.

لقد كان التعصب – يقول رينان حينما يتحدث عن أورشليم السابقة على عيسى – شديداً ، وكانت النزاعات الدينية كثيرة الوقوع.

وهذه الكلمات نفسها يمكن أن تنطبق على أورشليم الحالية ؛ ففريلية كل الدول في العالم يتبادلون الكراهية فيما بينهم يَحَنَقُ شديد رغبةً منهم في إثبات وَرَعِهِم للذي مات من أجل محبة من هم على شاكلته.

ولا تُفْهِ الأشياء تنبعث نزاعات دموية. ولجُرد تفصيل بسيط عن الأسبقية تتشج الأيدي. وأي إفراط في القداس يُسمم ولشهور كاملة الصراعات على الأشياء المقدسة.

لكن هدوء المدينة ، ولحسن الحظ ، كبير جداً ، ومُطلقٌ ورفيعٌ ، حتى أن الصراعات القسيسية لا تكاد تُشوشُهُ.

وبين الفينة والأخرى، يُنعش شعاعُ حياة هذه الأزقة. وبين منزلين وسُخَّين، في حانوت سُفلي، تبدو سلسلة من تسابيح العنبر وبعض صلبان العود المقدس وبعض الصدقات المنقوشة معلقة أمام الباب. وأمام هذه التذكارات، يتجمهر الحجاج من أجل المساومة، بينما يُكون الفريلية الذين يُرافقونهم جماعات ثرثرة في الزوايا.

وتبرزُ في بعض الأحيان صورةٌ في محراب مليء بالزهور والأضواء في زاوية من الزوايا. ويُمكن نَبْعُ ماءٍ مُزججٍ من إسماع نشيدٍ فُجِرَتْهُ السعيد في ساحةٍ صغيرة واقعة بين الأبنية العالية الصماء. ويدعو ذلك النشيد قوافل البدو إلى الانتعاش. لكن هذه الأمور ليست إلا بمثابة وميض برق في ظل خالدٍ وعُزلةٍ دائمة وهجر مُستمر.

وعلى تلة صهيون بالخصوص، في تلة الجبانة الكبيرة التي تحتضن في أحشائها مائة جيل من الأنبياء، يُخيم حُزنٌ ثابت ليس يُكدره ضجيجُ الحوانيت ولا مصابيح المصليات ولا صراعات الأديرة.

وفقط خلال أسبوع من كل سنة، في فترة العيد، تجوب الجمال أزقة المدينة، وتملأ الأجواء بمجَلَبَة جَلالِها وقِلاداتها، وتجلُبُ إلى المدينة ما تستهلكه بكثرة: الصبرُ والبخور والشموع العذراء والحريز المرقوم بالذهب. ويحل السلام بعد ذلك حتى تتمكن الأشباح الرفيعة من التجوال بهدوءٍ في ملاذها.

وقد عَلتَ هنا - حسب كل العلماء - قصور داود وسليمان والمكابين
وهيرودوس.

وقد بينت في كثير من الأحيان - يقول ساولي *Sauli* - أن لاشيء يتغير في
هذا البلد. وحيث كان قصرٌ تأسست قصورٌ على أنقاضه.

الآن، لم تعد توجد أية خرائب.

هنا، كان يهمس الذين يُرافقوننا.

إذا ما سألنا، في أي مكان بالتحديد؟ لا يمكن لأي واحد أن يرشدنا إلى
حجر واحدٍ ظل في مكان ثابت.

وحينما شرعنا في زيارتنا لأعالي صهيون، هاج الذهن، واعتقدنا أننا
سنرى على الأقل، سورا لهؤلاء الذين سمعوا المزامير من الملك النبي
والأناشيد من الملك الشاعر.

إضافةً إلى ذلك، آه! فإن الأيادي العالة ليست تقوم إلا بإشارات بخيلة،
تُعانق كل الفضاء. هنا... هنا...

وما يُسميه البعض بقايا، ليست في الحقيقة إلا أمكنةً فارغةً لم يكد علماء
الآثار يكتشفون فيها إلا علاماتٍ لمآثر أشار إليها فلافيوس يوسيفوس، أو
أشارت إليها الروايات المحلية. ووحدهم أولئك يحتقرون الحقائق المبتذلة
يرَوُون شيئاً إيجابياً، ويعرفون كيف يستحضرون الجلالات القديمة.

هنا قصر سليمان... وعلى الفور، يتصاعد الخيال إلى القصر الألفي بكل
تَرفِهِ، وكل عظمته.

كان طوله خمسين ذراعا، وعرضه ثلاثين ذراعا، وعلوه ثلاثين ذراعا. قال "كتاب الملوك": كانت أعمدته من أرز لبنان، مثل أعمدة الهيكل. لقد أرسل الملك حيرام سفنا مملوءةً بمجذوعٍ عظيمةٍ، وأرسل كذلك مهندسين من العارفين بالأسرار الفنية من صور وصيدون.

وبدأت مفاهيمها عجيبةً عند اليهودييين، لأن أبناء إسرائيل وإن كانوا عارفين بالرفاهية، فإنهم كانوا يجهلون الفن. لقد كانوا مُحارِبِينَ مُتَعَصِّبِينَ، كانوا يكتسحون المدن من أجل تخريبها باسم الرب. وكانت مذابحهم تنتهي بتابوت يحمله الجنودُ مع آلتهم الحربية. وكانت مساكنهم خياما من صوفٍ وأكواخا من الوَحْلِ. وكانت الشريعة الموسوية تُحرم عليهم إعادة إنتاج الأشكال الحية إنْ في نقوشٍ أو في صباغةٍ. ونتيجة لذلك، كان العمال الذين حققوا حلم ابن داود العجيب أجنب.

"كان جَمَالُ الأحجار داخل القصر - يقول يوسيفوس - براقا، وكان البعض منها مُزينا بأجمل أعمال النحت الممثلة للأشجار والنباتات من كل الأشكال بأغصان وأوراق منقوشةٍ بطريقةٍ فنيةٍ عاليةٍ. وكانت تبدو كما لو كانت تتحرك مُوَارِيَةً الأحجار التي تُغطيها. والباقي إلى السقف، كان مُزينا برُسوماتٍ مُختلفة الألوان".

وامتنع يوسيفوس عن وصف عظمة وتنوع المساكن الملكية، مخافة تدنيسها.

"إنه من المستحيل - يقول - وصفُ ذلك كما توصف الغيلُ التي تُفْرَح النظر وتحمي الأجساد من أشعة الشمس".

وأثارت شهرة تلك الأبهة والبهاء، وذلك الفن غيرة الأمراء في كل العالم. سمعت ملكة سبأ بشهرة سليمان - قالت التوراة - فأنت لرؤيته. وجاءت بموكب كبير، بجمال مُحملة بالتوابل، وبذهب كثير وجواهر لا تُحصى. وأقرت لسليمان بما وَقَرَ في قلبها. وأجاب سليمان على كل كلماتها دون أن يغمض عليه أمر. وحين وقفت ملكة سبأ على عِلْم الملك، ورأت القصر الذي بناه، ومائدته المُعدة، وخدامه، وبهاء خُدامه، ومحارقه في بيت الرب، دُهلت وقالت لسليمان: حقا هذا ما يقولون في الأرض عن أشياءك.

وبجانب ملكة سبأ، نرى المُفضلاتِ عند الملك: السلامية السمرَاء مثلَ خيام قيدار، وابنةُ الفرعون التي أزعجت عُيُونُهَا الكهان، وبناتُ الإلهة عشتاروت القادمات من صيدون، وبناتُ الملك ملكوم القادمات من بلد الآمونيّين... وكل هذه الأوصاف التي لا تنتهي تتجول في أرجاء قصر خَرِبٍ، في خلوة تلةٍ منعزلةٍ.

كان هنا - قلنا - كان هنا...

وهذا يكفي لِتَرْتَفِعَ أحلامنا في ظلمة مدينة صامتة.

كان هنا...

ودون أن نشعر، وصلنا إلى باب صهيون حيث أيقظتني لوحة فظيعة من غيبوتي.

هل مازلت في أورشليم أم عُدْتُ إلى نابلس؟... وتلك الأشباح التي تحيط بي رأيَتها في مكان آخر. تلك الأفواه بدون شفاه التي تُصعرنني،

جعلتني أرتعد في مكان آخر. تلك العيون الفارغة التي تبحث عني أفرغتني
بعيدا من هنا...ولست أدري إن كنت في الواقع أم في كابوس.
إن المشهد جد مخيف...مفزعة هي هذه الوجوه الضخمة الذابلة المسوسة..
إننا عند باب المجدومين ! قال لي مرشدي.

ومثل أروقة أديرة عتيقة عُدْتُ إلى الطرقات المحيطة بالمدفن المقدس.
كان الفرنسي سكان يمرون برؤوس عارية - كما لو كانوا في قاعة أكل -
يَهْمَهُمْ بصلوات بخيلة. وبجانب هؤلاء يمشي الإغريق بقامات فروسية
وعادات حزينة. وكان الأرمن بلحي مسدولة يمشون في الخلف ببطء حزينين
يتكلفون الوقار.

وكل هذه الأطياف ، تُتمم السلام اليروشليمي بشكل حالم ، وتبتعد عن
تشويشه. فهؤلاء الرجال الكئيبون والذين يحملون داخل أديرتهم وجوه
غضب دائم ، يعرفون كيف يضعون قناعا من الجاذبية والحزن حين يخرجون
من تلك الأديرة.

وحين نراهم يتسللون في ظل الساعة التي تشرع السماء فيها بالتجهم ،
يمكن القول حقا : إنهم يُحيون وظيفة جنائزية.

أما أنا ، فأفضل المدينة حين تصد الكنائس والأديرة أبوابها ، حين يختفي
الفريلية ، حين تُطفأ أضواء الأسواق.

وفي ذلك الحين، يُرفرف حزنٌ إلهي في الفضاء. ولا ترى في الأزقة نَسَمَةً روح واحدة. والمنازل التي لا تفر منها همسة واحدة، ولا بريقُ ضوءٍ، تبدو كما المهجورة إلى الأبد.

والقناديل النادرة المعلقة على الشبايك العتيقة، ليست مشتعلةً لتُسعِفَ الذين يمكن أن يمروا، أو تضيء أثرا.

وتنفرد أبراج الكنائس عجيبة وعظيمة داخل فضاء أصم.
كيف يمكن أن أشرح مغامرة ذلك القنصل الإنجليزي الذي تحدث لنا عنه فوجي *Vogue* في واحد من كتبه.

لما طرأ هذا القنصل على أورشليم، أراد أن يُنظم حفلا في مقر إقامته الرسمية بمناسبة عيد وطني. وقطع البريد كل البلدة واضعا دعوة للحضور في كل بيت نبيل. وحين حان وقت الحفل، بقي القنصل وحيدا؛ لم يأت أي واحد من المدعوين المائة.

إن كلمة "حفل" هنا تُدهش كما الفظاعة. فهل يُنظم حفلٌ في مكان لا يرى فيه المسيحيون إلا القبر؟... هل يُنظم حفلٌ حيث لا يوجد لليهود إلا الحائط الذي سيكون أمامه؟...

الحفلات الوحيدة المفهومة، والتي يمكن تبريرها في ذلك الجو المحرق المحزن، هي السهرات الصوفية التي تُحَيَّى داخل كنيسة المدفن المقدس، والتي يُمرغ فيها الحجاج رؤوسهم في الأحجار المقدسة، أو يحرقون صدورهم فيها بلهب الشموع المقدسة.



القدس كما رآها دانييل مرتينيث فراندو

ما عساها تكون الزيارة الأولى إلى القدس؟

إن القدس للغربيين عبارة عن متحف. وبمجرد الوصول إليها ، يفقد كل شيء أهميته أمام الرغبة الجامحة والصوفية للنظر إلى المدفن المقدس. وقبل زيارة المدينة والتآلف معها واستكشاف سحر أزقتها ، بل قبل الاستراحة والانتعاش علينا أن نزور المدفن المقدس. لا شيء يمكن أن يشيننا عن هذه الفكرة التي نأججها بشدة قوة داخلية.

نزلنا في الدار التي يخصصها الفرنسيون للرحالة. ويملاً الإحساس بالسكون والثقة هذه الدار. وقد كنا ننزل في البلاد الأخرى بفنادق كانت الاحتياطات فيها قليلة ، أما هنا فقد تركنا باب الغرفة مفتوحاً.

قال لنا الفريلي الذي استقبلنا ، وكان يتقن على ما يبدو اللغة الإنجليزية وإن لم تكن تلك لغته ، علينا أن نستريح وسيكلف غداً أخا إسبانيا ليرشدنا ويصحبنا إلى حيث نريد الذهاب.

كان ذلك مخالفا لما نريد . نستريح يوم وصولنا إلى أوشليم! . كانت حساباتنا بعيدة عن ذلك كل البعد. لا ، علينا أن نرى المكان المقدس أنى كان الحال. ومن الصعب الإفصاح عن الدافع الغريب الذي قادنا إلى حيث نريد التوجه. ففي كل مدينة مررنا بها ، ودون أن نسأل أحدا كنا نندهش مرات عديدة. لقد تكرر ذلك في كل الجهات.. وبكامل الثقة في هذا الإحساس الغريب ، خرجنا من الدار باحثين عن المدفن المقدس ، مررنا بشوارع سيئة الترصيف ، ضيقة ، تغطيها أقيية قوطية. تجولنا قليلا ولم نر شيئا ، وحال دون مرورنا حائط به باب ضيقة. تقدمنا إلى الأمام متعجبين. أفضت بنا الباب إلى ساحة. إننا حقيقة أمام كنيسة المدفن المقدس. عليها أن تكون كذلك ، عرفناها بالنقوش التي على واجهتها. وهذه بقايا تلك الكنيسة الكبيرة التي شيدها الإمبراطور قسطنطين ، وقد كانت أكبر من كل كنائس العالم المعمور آنئذ ، وجدير بمكان كهذا أن يشتمل على زخرفة. ولم يبق من ذلك الجلال إلا القليل. إننا الآن في ساحة مقفلة ربما كانت من البناء القديم. كان علينا أن ننزل بعض الدرجات لنصل إلى بناء مبلط الواجهة. وهذا البناء الأخير هو كل ما بقي من الكنيسة العظيمة التي بناها الصليبيون في القرن الثاني عشر ، وواجهتها جد متواضعة ، وهي ذات طابع روماني تجعلك تعتقد أنها ليست إلا جانبا عاديا من البناء العظيم الذي كان في زمن آخر ، لكنها تُؤكّد إحساسا مماثلا لما يُخلفه لوح صغير من سفينة يظل عائما فوق مياه هادئة بعد غرق..

لقد حدث حريق كبير حطم كل الهيكل ولم يترك إلا الحيطان ، وما قاوم تلك الفاجعة تولى الرجال تخطيطه بإصلاحات متتالية ، هذا إذا لم يتهاوى بفعل ثقل السنين .

نحن الآن أمام بابين توأمين ، أحدهما مغلق ، وتعلوهما نافذتان متشابهتان كذلك. وبموازاة هاتين النافذتين توجد في نفس البناء نافذة أخرى تحتها هيكل صغير. وتعلو الواجهة المذكورة قبة قليلة الأهمية ويلوح خلفها جزء من قبة أخرى أكبر منها. وتُكوّن بقايا حامل النواقيس القوطي مع الواجهة مثلاً. وقد تم تخطيط حامل النواقيس قبل أكثر من مائتي سنة. ويفوح هذا المكان بعبق الماضي ، وتبدو حيطانه الحجرية كما لو كانت قلعة وسيطية. وبعد إنعام النظر ، يمكن أن تلاحظ على أقواس النوافذ بعض الزخارف الشرقية الغنية.

تأملنا ذلك المكان كثيرا ، ثم دخلنا دون أن تكون لنا فكرة عن أي شيء من الهيكل ، فقط شددت انتباهنا كثرة المصاييح. ووجدنا أنفسنا بعد ذلك وسط بناء مستدير تعلوه قبة جليلة. آه ، إنها التي أراد الإمبراطور قسطنطين أن يكسوها بالذهب ، وقد شكل هذا البناء نموذجا للكنائس الدائرية وخصوصا تلك التابعة لرهبانية الهيكل *Orden del Temple* .

ويوجد وسط الفناء الدائري تمثال من المرمر تم الإفراط في زخرفته ، وأمامه مدخل لا يطاول قامة رجل عادي القامة.

- "هنا ينبغي أن يكون" قلنا.

لم يكن هناك سوى قسيس إغريقي على رأسه خوذة سوداء أسطوانية ينسدل تحتها شعر كثيف أشهب ؛ كان جالسا أمام ذلك التمثال. لم نجراً على التحدث معه لأنه كان على ما يبدو مستغرقا في الصلاة. كان ينظر إلينا ويوحي إلينا بأنه ينتظر أسئلتنا. حاولنا في البداية أن نستخبر عن اللغة التي يفهم فلم يتجاوب معنا فالإغريقية والعبرانية ليسا يعنيان شيئا لمعارفنا اللسانية القليلة. كان علينا أن نلجأ إلى لغة الإشارة. أشرنا إلى الفتحة الصغيرة في التمثال وجمعنا أيدينا بعد ذلك ثم رفعناها نحو الأعلى ناظرين إلى القبة. ضحك القسيس وقال لنا: "أي نعم"، ثم أشار إلينا وكأنه يقول لنا إن الدخول ممكن. شكرناه بانحناءة ومررنا وقد ضاعفنا انحناءتنا لنلج فناء صغيرا مصقول الحيطان يتوسطه شيء أشبه ما يكون بمائدة صغيرة من المرمر. وقد عرفنا فيما بعد أن ذلك هو حجر الملاك الذي ظهر في هيئة شاب يلبس رداء أبيض بينما مرت به النسوة التقيات يوم السبت ، فأمرهن بأن يأخذن أعشابا معطرة ليمسحن بها جسد المسيح. إن ذلك هو حدث البعث العجيب.

وأخذتنا باب أخرى أصغر من سابقتها إلى فناء آخر لا يسع إلا لثلاثة أشخاص واقفين. ويوجد المدفن المقدس أمامنا في رخام أبيض.

أي موقف تأثري هذا يا إلهي؟ كيف يمكن التعبير عن هذا الإحساس وهذه العذوبة؟ إننا وحدنا أمام قبر ترافقنا فيه أفكارنا. تتابع كما لو كانت برقاً وتُداس. أية ألفة عجيبة هذه؟ كيف وصلنا إلى حيث لم يكن يوصل إليه في الأزمنة الخالية إلا بكثير من الدموع ولا يُغْنم إلا بعد تقرح الرجلين وبالأفراض والجوع وآلام لا حدود لها؟.

هل هذا هو المكان حقا؟

آه، لا يهم فأحساسنا يقول لنا أنه هو، وعلى الرغم من ذلك إيماننا مُتلف وضيق مثل الهيكل العتيق.

تمتعنا ببعض اللحظات من السلام لم نذق مثيلا لها طوال حياتنا. أحسنا كما لو كنا مرفوعين في الفضاء.

وبشروء رأينا أماننا ثلاث إيقونات صغيرة؛ واحدة للكاثوليك وثانية للإغريق وثالثة للأرمن، وهي مضاءة بمصاييح..

سلام

وحب

ونور

وعندما استفقنا من حلمنا، تنبها إلى وجود قسيس بجانبنا. لقد أوحى لنا ذلك، ودون أن نعرف لماذا، إحساسا كريها. وما أن علم بأننا انتبهنا إليه أشعل شمعة وأعطانا إياها. ماذا يعني هذا؟.

أخذناها وعلى الفور وقف شاب على جانبنا الآخر، سألنا بصوت قليل الوقار هل نتكلم الإنجليزية، الفرنسية، الألمانية، الإيطالية... لم نجبه، ورأينا أن المرشد المقلق مقلق هنا أكثر من أي مكان آخر. أخطأنا حينما قلنا له أننا لا نريد رؤية أي شيء وأن رغبتنا قد بلغت ذروتها بالوصول إلى حيث نحن. لم نكن نريد أن نكسر ذلك الصمت، لكنه أسرع إلى تقديم شروح لنا، ولما تظاهروا بتجاهله أظهر أن لا سبيل إلى إبعاده. أمرنا بأن نضع خمسة عشرة قرشا في آنية وضعها الإغريق في جانب من الجوانب. إننا في أرض

نجهلها ، وليس أمامنا إلا أن نفعل ما يقولون لنا. شكرنا القسيس دون أن يأخذ المال ولا حظنا أنه لا ينسجم مع لغات أوروبا الغربية كما خلنا في البداية. ولما حكينا هذا المشهد للقساوسة الطيبين اغتاظوا.

لقد اعتقد المرشد أننا ملكه ، وتابع الحديث :

سيدي ، هذا ليس هو المدفن المقدس الحقيقي لسيدنا يسوع المسيح ، إن الأمر يتعلق ببناء حديث...

انتابنا إحساس عظيم من الكرب ، وللمرة الأولى انتبهنا إلى ضيق المكان ، حاولنا الخروج ، ما الذي يهمنا في أن يكون إعادة بناء؟ لماذا يُحطم إحساس جميل بهذه القسوة؟. لقد كان بالنسبة لنا في وقت حلم المدفن الحقيقي ، لكن هذا الوقح هشم فينا هذا الاعتقاد إلى آلاف الجزيئات. كم هي فظة الإفاقة ، كم هو مؤلم نزول ذلك الشعاع اللامع الذي كنا تعلقنا به.

تابع القسيس مهمهما يملأ أسماعنا بالأسماء والتواريخ ويخلطها بأشياء أخرى وهو يصف لنا مشاهد من آلام المسيح لا علاقة لها بما يحيط بنا. وبين الفينة والأخرى كان يتوقف ليقول لنا وقد ركز نظره فينا :

هذا إذا كنت تعتقد سيدي...

ولا نعتقد... لا نعتقد.

خلال المدينة المقدسة

هكذا هي القدس كما تصورناها دائما ، إننا نميط لثامها شيئا فشيئا . إنها مدينة عريقة ، بسيطة تنغمس في إحساس ديني ، وأغلب جوانبها خفية . إنها جالسة عند سفح جبل ذابل ، مصفرة من كثرة الحزن . فهذه التي انشغل بها فرسان الغرب طروادة المسيحيين ليست الآن إلا ديرا كبيرا . أغلب أزقتها مكسوة بقبو مما يجعلها على شكل دير . يتجول بها الحجاج القادمون من كل العالم كل الأيام راغبين في تقوية إيمانهم ، أو تواقين إلى ملاقات شعاع من النور الإلهي في أماكن المأساة السامية . حيث ما وليت ، تجد أسوارا ذات شرفات وأقواس وأبواب قديمة وكنائس وأديرة ومساجد ويّع وخرائب ... وتعلو بجانب التحصينات القديمة في أحيان كثيرة ، أبنية جديدة سرعان ما تندمج مع الطابع الصوفي للمدينة . وتتولى نفس الشمس قتل كل مظهر غير عادي فتحيله منسجما مع الطابع العام ، وليس يقبل في القدس إلا ذهبي الحجارة مع بياض الجير .

للقدس قوة عظيمة وقدرة على الامتصاص من فوق سلسلة جبالها الميتة التي يجثم عليها هدوء الأيام المتعاقبة وتجول بها العواصف . ففوق كل زاوية أثر كنيسة ، وحيث ما وليت يوجد مصلى يحكي حدثا متعلقا بحياة المسيح عيسى أو أحد تلاميذه . وبعد مرور قرون عديدة على ذلك الاستشهاد

البريء ، بحث الديانة الجديدة عن الأماكن المقدسة القديمة من أجل تعظيمها فتكاثر المعابد...

وما زالت القدس تلخص لليهود كثيرا من الأشياء ، إنها ديانتهم ، خيبتهم وماضيهم ، وكم هو كم الدموع التي أهرقوا من أجلها.

لقد جعل موقع القدس الجبلي أغلب أزقتها عقبات يصعبُ المشي فوق حجارتها المزجة. إن بعض هذه الشوارع ضيق تتكئ فيها أسوار على بعضها البعض ، تدعمها صواري كما هو الشأن في طريق الآلام. وليس هناك إلا شارع يمكن وسمه بالحديث ، إنه شارع يتيم لا أهمية له تجمعت فيه البنوك ووكالات النقل البحري.

وتنبت الأعشاب على بعض أسوار القدس ، وجميل جدا أن تكتشف غصنا بديعا بين الحجارة العظيمة المتراسة. وعلى الرغم من أن هذا البلد لم يتميز قط بفن ، فهو جار لسورية ، منها أخذ كل أفكار الفن المتوسطي ، كما أنه آوى أقواما من كل البلدان تركوا في بناياته نفسَ إحساسهم.

وتوجد في القدس حوانيت لا عد لها ولا حصر مخصصة لبيع التحف والأدوات الدينية التي يقبل عليها الحجاج كثيرا ، وهي معروفة في كل الجهات.

يتميز أهل القدس بخدمة عرق اللؤلؤ فيصنعون منه مصوغات مشبكة مزخرفة حقيقية. إن التجوال في شوارع القدس هو انخراط في اكتشاف جمالات جديدة تُجهل قيمتها الدينية والأسطورية في اليوم الأول ، إن للقدس طابعا خاصا من الحزن والهجر المؤلم يحفظ فيها صدى دائما

مأساويًا من النزاعات الفظيعة أدمت هذه الأماكن مرات عديدة كلما اصطدمت أحاسيس متعارضة.

هياكل المدينة فارغة، ليس فيها أناس من المدينة يعمرونها، فقط تجد فيها الحجاج الذين يعتلون السفن كما لو أفاقوا من حلم بعيد وقديم.

وليس في القدس أية مشاهد شعبية للفرجة، ولا يخطر فيها بالبال الجلوس إلى مقهى. فلا شيء هناك يمكن أن يشوش على الفكرة الدينية. وحين يرخي الليل سدوله يتوقف الناس عن التجوال في الأزقة فلا يسمع فيها إلا مرور الريح الذي يقتلع ورقة، أو يصفر حين يلامس فجوات الأبواب، أو يهمهم فوق الأبنية وكأنه يقرأ وردا غامضا وحارا. ويبقى الأمر كذلك إلى أن يحين وقت التحية التي ترسلها نواقيس الفجر المعدنية. الفجر في القدس جميل كما في كل الأمكنة، وتبدو المدينة كما لو كان هجرها أهلها، أما في الليل فيتولد الانطباع أن العالم الذي نسكنه، فارق الحياة، بينما تخرق سمعك دقة ناقوس وكأنها تعلن أن نجمة كريمة قد هوت من السماوات.

يوجد واد يهوشفاط أو قدرون بين الجبل المأهول وواجهة جبل الزيتون. وقد شغل هذا المكان تصورنا الطفولي في سنوات خالية.

كيف تستيقظ الأسماء والذكريات الطفولية، ولا زال اليهود والعبرانيون يعتقدون معتقدا الساذج، وهم ينتظرون اجتماع كل البشر في هذا الوادي يوم الحشر. ورغبة في الوجود بأرض قرية يحرص بعضهم على أن يدفنوا في جبل مجاور. وهذا الجبل مزروع بالقبور، وقد تكاثرت فيه وعظمت حتى هددت باجتياحه كله. إن هذه المقبرة مثل بحيرة تمتد مياهاها، وهذا مقلق حقا.

وثرانا نعدل عن زيارة كثير من الأماكن التي تشد اهتمامنا حتى لا نزورها كلها في اليوم الأول بسرعة.

ظلنا ننزل ونصعد في الأزقة، وخلال ذلك مررنا بأسواق احتفظت بلونها وطابعها القديم. وبقي شكل لباس اليهود على حاله لم يتغير منذ زمن المسيح. وبين الفينة والأخرى تسمع كلمات بالقشتالية، وهي ترشد إلى اليهود السفارديين ذوي الأصل الإسباني، وهم يمثلون القسم المختار من هذا الجنس، ويختلطون بأنواع مختلفة من البشر يعلم الرب فقط من أي البلاد جاءوا إلى هنا، وبحجاج يلبسون لباسا يشبه ما تعكسه رسومات الرسامين القدماء. ويخال المرء أن هؤلاء الحجاج خرجوا قاصدين القدس دون أن يعلموا أن العالم قد تغير. وكلما مروا بجانبنا، كنا نخالهم أشباحا من القرون الماضية استيقظت من قبورها وشدت الرحال إلى المدينة المقدسة من أجل الحصول على مغفرة تخلصها من ذنب خطير اقترفته.

وتبعنا حزن المدينة العميق في كل مكان من الأمكنة التي وطئتها أقدامنا. وكانت حجارتها الصقيلة تحكي حكاية تقول أن لا شيء في هذا العالم يستحق الحياة ليست إلا واد للدموع، إنها ممر جبري نحو الخلود.

فحزن الحياة وآلامها تُظهر صيحة تخرق أسوار الأديرة العالية، وفوق رنات الأرغن تركب الأرواح القلقة، لكن الصليب يبقى كما كان، إنه باسط ذراعيه إلى أعلى الجبل.

وفي الألوان التي تعلو السماء بعد أن يغشيها أرجوان الغروب وتنتزع الشمس خيوطها الدموية، تأخذ المدينة لونها الخاص. كل شيء في القدس

بطيء وعجيب. وينقلب الألم إلى حزن الهياكل وتفتح أقراح الأرواح
عارضة أحزان الإنسانية في الشوارع: أصلابٌ منحنيةٌ، ولحى مُسدلة على
الصدور، وخطوات تتمايل، وهمهمات وصلوات، حزن دائم وظلال.

أرض الهيكل

توجد قمة الموريا في جانب من القدس الناعسة، وقد أقام عليها الملك
داود هيكله المشهور لإله إسرائيل قبل ميلاد المسيح بألف سنة. وأصبحت
القدس التي امتدت فيها معتقدات مختلفة عبر العصور، مدينة محطمة ذات
آثار مهجورة. لم يبق في القدس حجر على حجر.

يوجد مسجد عمر وسط الموريا، إنه بمثابة ضريح كبير تُراقبه في جانب
صومعة إسلامية. وخلف قمم السرو الحادة، ترتسم قبة مسجد تنحني على
فضاء أزرق. وتبدو الأحجار التي مررنا بها رجوع صدى لصراعات دموية
خلفتها جحافل متعصبين مختلفين. وهذه الشجرة النحيلة المليئة بالغبار والتي
حلت بها سياط الرياح فجردتها من أوراقها هي رمز للمكان. أما الأحجار
التي لازالت قائمة فوق أخرى في هذا المكان المعادي للمسيحية في كل
الأزمان فهي ذات لون عظمي. وينبعث حزن عميق ومسيطر في كل ركن من
أركان هذا المكان.

تقدمنا ببطء كما لو كنا متعيين. صعدنا درجا شاسعا، واخترقنا قوسا وسيطيا لنصل بعده إلى مكان مسور مُرَصَف بمرمر أبيض. مشينا ورؤوسنا منحنية نظرا للثقل المضيق للأفكار التي تحاول فتح أبواب الماضي.

كان الفرنسي سكاني يحكي لنا أشياء عن هيكل سليمان وعن التنبؤات التي تحققت. لكننا وإن كنا ننظر إليه لم نكن نستمع إليه. لقد بدا لنا كما لو كان ينبهنا إلى محاولات إقامة الهيكل من جديد من الخراب والإحراق من طرف تيتوس، الإمبراطور المنتصر الذي حمل إلى روما الشمعدان العظيم ذي السبعة أذرع، والذي سرى أنه ظهر في النحوتات الجميلة في القوس الذي يخلد لانتصاره.

كان القسيس يقرأ جملا من التوراة بدت لنا غامضة لأننا كنا نتصور الهيكل أيام ازدهاره، ولم نتمكن من تخويله العظمة التي له في الخيال الشرقي.

لم يتميز اليهود أبدا كفنانين، وهذا الأثر المكين كان من عمل المعمارين والعمال الفنيقيين. قالت الكتب المقدسة: إن سليمان دعا ملك صيدا *Tiro* وحيرام لمساعدته في مشاريعه الكبرى، وكان ذلك الملك قد أرسل في زمن آخر خشب الأرز لبناء منزل داود أبو سليمان. وقد طلب منه المساعدة لبناء بيت يليق بالرب، لأنه لم يكن في شعبه من يعمل الخشب. ويبدو أن آرام علي هو الذي أشرف على الأشغال، وهو ابن مدينة نفتلي وُلِد أبوه في صيدون.

قام العبرانيون وبدافع الوطنية بتسجيل هذا العمل في كتبهم ، لكنهم لم يكن بملكهم إخفاء أن الفن والعمل تم شراؤهما من البلد المجاور. كان آرام علي هذا خبيراً مؤسساً ، وهو الذي أنشأ البناء العظيم الذي استُخرجت منه الكؤوس الطينية وباقي أدوات القديس. وهناك قريباً من الأردن تم تذويب أعمدة البرونز المزينة بالرمال ، وتُثبت بجانب المعبد. كان هذا الرجل على ما يظهر مِفناً بارعاً استفاد من القدرة الخلاقة التي تتمتع بها شعوب آسيا الصغرى. ويعود إليه كذلك إنشاء الفضة العظيم الذي يوضع به الماء الضروري للقديس. كان ذلك الإناء عملاً مهماً دون أدنى شك. كان يحمله اثنا عشر أسداً ، وقد وضع وسط الساحة التي كانت تتقدم المعبد وتحيط فيها الاحتفالات.

كان سطح الهيكل مزينا بخشب شجر الأرز الشهير في لبنان ، تم عملها بإتقان ، بينما صنعت الأبواب بخشب الزيتون وزخرفت بالشاروبيم وبنخيل وأزهار ، وكُسي الخشب بالذهب الخالص. كان البناء مليئاً بصور حيوانات ذات رؤوس بشرية وتفاصيل أخرى. هكذا قالت النصوص القديمة :

حطم هذا الهيكل العظيم ، وأقامه حزقيال بنفس الفكرة ، ثم رمه المكابيون ، وأغناه هيرودوس بعد ذلك بأبنية أخرى لأن كل فخر الشعب كان محتزلاً في هيكله. وبقي الأمر كذلك إلى أن وصل تيتوس فسلبه وأحرقه وحطمه. وفيما بعد ، أقيم معبد لجوبيتر بنفس الحجارة.

وبمجيء المسيحية ، ووفاء الآلهة ، أقيمت الكنائس في جانب من ذلك البساط ، لكنها مسحت من طرف حملة العرب المكتسحة ، فأسسوا الجوهرة

المسماة مسجد عمر وأسسوا المسجد الأقصى إضافة إلى أبنية أخرى عديدة. كانت هذه القمة مكانا مقدسا لكل الأجناس وكل المعتقدات ، ولم يكن لها مصير آخر.

عاد كنز الهيكل والعجائب التي وضعها آرام علي إلى روما مع تيتوس ، عادت كؤوس الذهب وخزانة العطور ، وآلات النفخ التي كان يستعملها الكهان ، وكل أثاث البيت ومفروشاتة إلى عاصمة العالم القديم. ولما كان للثروات حركية غريبة ، فقد أخذ الوندال الكنز السليمانى بعد تمكنهم من مدينة القياصرة ونقلوها إلى أقاليم إفريقيا ليضيع أثرها بعد ذلك. ويحكى عن نفس الهيكل ، أنه لما حاول أحدهم بناء من جديد ، انبعث نيران عظيمة من بين أسواره. والإسلام اليوم هو سيد قمة جبل الموريا وصاحبها.

وقباله السطح الممتد في شموخ ، في أعلى وادي قدرون ، توجد الجبال المسماة بجبل الزيتون وقد زُرِعَتْ فيه العديد من قبور اليهود. إننا كما لو كنا في أعلى قلعة حصينة.

وفي هدوء أيام الشرق هذه ، تابع الفرنسيكاني خطابه بصوت رتيب ؛ كان يتلو قطعا من التوراة تتعلق بنبوءات يسوع المسيح في الهيكل. لكن كلماته كانت شبيهة بصوت نبع بعيد. استمر انغماسنا في الحزن الصوفي لهذا المكان وقد اتكأنا على جدار المسجد باحثين عن الباب المذهبة التي مر منها المسيح يوم النصر حيث دخل المدينة بين سعف النخيل والتسبيحات لله. وقد هزت هذه التسبيحات أسس الهيكل.

دخلنا مسجد عمر ، وكنا قبل ذلك نتفرس واجهته الخارجية بعض الوقت ؛ إنها ثمينة ومزينة بالفسيفساء وصفائح المرمر ، وتعلوها بجلال قبة تنتهي بهلال إسلامي. إن مسجد عمر يختلف عن كل المساجد التي رأينا من قبل ، إنه غاية في البساطة والجمال. إن العمارة الإسلامية تحزن لنا دائما مفاجآت جديدة نكتشف من خلالها حسن ذوق ودعائم هذا الشعب.

لقد تعودنا على الضوء الخافت في مسجد عمر بمجرد أن خطونا خطوات قليلة داخله ، وبقيت الروح في تصاعد ، واستمرت العيون في تسجيل كل الفضاءات مستكشفة التفاصيل الزخرفية الغنية. كانت أعمدة رومانية عظيمة بتيجان كورينثية مذهبة تحمل السطح المتقن. وتثير الأشياء الصغيرة مثل زخارف حواجز الحديد والزليج والرسومات الرخامية للنوافذ الانتباه في ذلك المسجد. لقد قامت الروح الحساسة لهذا الشعب بمواءمة الألوان. وفاجأتنا القبة بتفاصيلها الدقيقة فلا شيء يفوقها. وانضاف إلى كل ذلك جو من السلام نقلنا إلى ما يشبه القصور البديعة من قصور شهرزاد.

ويوجد حجر كبير تحت القبة ، وهو محاط بشباك حديدي. وذلك الحجر هو مبعث كل هذا الجمال ، وهو ذو قيمة لا يعادلها شيء بالنسبة للعالم الإسلامي ؛ وحسب الرواية ، عليها كاد ينفذ إبراهيم قربانه الرهيب حينما أخذ الملاك بيده. ولم يكن هذا الأمر كافيا ليجعل المسلمون هذا الحجر بكل هذا الحد. والذي جعل منه أكثر قيمة أن محمدا وقف عليه حينما عرج إلى السماء. ويحتمل أن تابوت العهد كان موضوعا فوق نفس الحجر في الهيكل القديم. ويسمى هذا الحجر الصخرة المقدسة. وقد أطلعنا الفرنسي سكاني على

كهف يوجد أسفل الصخرة، وهو مكان مظلم داخل الصخرة يعطي بعض الأشكال العجيبة.

وقد قام الفرنسي سكاني بفصل ما هو أسطورة عن ما هو حقيقة في موضوع الصخرة، وبين الفينة والأخرى كان يتوقف ليقول:

- إلى هنا تنتهي الحكاية العربية، الحقيقة هي كالتالي.

ويبدو أن الحقيقة هي جملة من التوراة.

أقفلنا راجعين من الصخرة العظيمة وقد جذبتنا الزخارف الحلوة التي حلت نوافذ المعبد. ويقال عن هذه النوافذ أنها أبواب عدن. وخرجنا من الضوء الخفيف إلى انعكاسات الشمس الذهبية على الساحة.

موازة مع مسجد عمر هذا يوجد بناء يتكون من قبة مرفوعة بصواري رشيقة، إنها هيكل صغير رأينا مثيلاً له في بعض رسومات عصر النهضة، ويسمى قبة السلسلة أو محكمة داود. تقول الحكاية العربية أن أعمال الناس الخيرة والشريرة ستمر تحت ظلالها. وبعد أن اطلعنا على منبر القاضي برهان الدين وعلى الصهرج المدور الكبير، نزلنا بعض الأدراج وتوجهنا نحو المسجد الأقصى الواقع في الجانب الجنوبي من تلك الساحة التاريخية.

والأقصى كما قيل لنا تعني المسجد البعيد، سموه كذلك زمن عمر حينما بنى البناء الأول لأنه كان أبعد المساجد عن مكة. والمسجد الحالي هو تكملة للبناء القديم تم في القرن الثامن على يد الخليفة المهدي. وهو ينقسم إلى سبعة أجنحة هي في الوقت الراهن مغطاة لكونها في حالة ترميم. وحين اقتربنا منها، سمعنا دقات البنائين. ويعكس هذا المسجد أهمية قصوى، إنه واسع

ومزين بزخارف وفسيفساء. ويقال أن صلاح الدين رمه بعد أن حوله إلى مكان للصلاة. وكان قبل ذلك قصرا ملكيا على عهد الملوك اللاتين في القرن الثاني عشر يحمل اسم القصر السليمانى *Palatium Salmonis* لأنه في ذلك المكان أسس ملك اليهود الشهير بيته الواسع الرفيع. ومن هذا البناء خرج تنظيم رهبانية الداوية العسكرية، حيث سلم الملك بالدوينو الأول جانبا من القصر إلى بعض الفرسان الذين أسسوا التنظيم المذكور. وإذا أمعنا في النباش في التاريخ لن ننتهي على الإطلاق. ويمكننا أن نرى في الخارج، في المكان المسمى إسطبلاات سليمان، أعمدة مربعة فيها حلقات كانت تعقل بها خيول أولئك الصليبيين.

ويوجد داخل المسجد الأقصى منفرج بين عمودين يُقاس به استقامة المسلمين الطيبين، وقد تمت تغطية ذلك الانفراج كما في القاهرة. ويتم الآن اللجوء إلى طرق أخرى لمعرفة المستقيم في الدينة. وقد أثار انتباهنا هذا المسجد بعد أن رأينا مساجد عديدة؛ إنه شاسع ويحتوي على رسومات وفسيفساء وإن كنا لم نكتشف فيه شيئا متميزا إلا منبر صلاح الدين. وهذا المنبر عمل رائع، وهو مطعم بالأحجار الكريمة وبالعاج مع رسومات خفيفة. وهذا البناء يبدو ميتا مهجورا، وهو يذكرنا بمباني الفترة الوسيطية التي تتحول إلى متاحف.

إن هذا المكان يحتاج إلى النفس الإنسانى ليعيش كل شيء فيه. ربما كان انطباعنا هذا راجع إلى عملية الترميم التي يشهدها.

عدنا من جديد إلى السطح المستحم بشمس الزوال التي ترعد كل القلوب الصوفية وقد امتدت في السماء زرقة ميالة إلى البياض ليس فيها أي أثر لبخار، وليس يعبرها طائر. لقد غطى صخب الضوء كل الأصوات الإنسانية، وبحث عيوننا عن النحاس اللامع في جبل الزيتون المجاور..

جشتماني

جبل الزيتون. اسم مألوف يكفي أن تردده لترى الأشجار العجيبة بارزة بقممها الرمادية في مساء ذهبي. ويبدو أنه اسم يوحى إلى مكان طفولة. إنه رنان وحلو، ويجلب للذهن خلوة لطيفة، ومناظر مسائية بنشيد الطيور. إلى الآن لم نر جبل الزيتون الحقيقي، كانت تلوح لنا جبال زيتون. بعد ذلك أشرف أمانا الجبل المقدس يرتفع في شموخ إلى عنان السماء. لقد أشرف منذ عهد قريب إلى الجذب مثله مثل العديد من قمم الربوع الفلسطينية، لكن يد فلاح خبير بلنسي زرعت الأشجار الحالية التي تلتصق في الجبل المائل مثل سحببات صغيرة واضحة. إننا ننظر إليها بمحبة متناهية، ونتنفس بعذوبة ريحا خفيفة تصلنا عبر أغصانها. إن أشجار الزيتون دائما جذابة، ولها سحر خاص. أما حفيف أوراقها فيجعلنا نتصور أسرار الوجود الغريبة. إنه سر من أسرارها، وهو بالتحقيق عنصر جاذبيتها.

وتحوّل أشعة الشمس المنسدلة جبل الزيتون إلى شلال من الذهب القديم. وفي سفح الجبل يوجد جشتماني. إنه بستان بسيط، لكن الداخل إليه يحس

بتأثر. خطونا خطوات قليلة مع مرشدنا الذي لا نفارقه، وخلال ذلك توقفنا عن الكلام بعض الوقت. توجد أمامنا أشجار زيتون عتيقة ملتوية ومفتولة ومعوجة بشكل شديد مثل أشجار ميورقة، كما توجد أشجار سرو قديمة وورود... جمال لا يفسر ولا يوصف. وارتفع معبد في جانب آخر. قدمنا مرافقنا الفرنسي سكاني إلى جماعة من الفريلية البلنسيين، وتقدمنا نحو باب صغيرة. لم يمر علينا وقت طويل لنحس أننا كما لو نقلنا إلى الجبال البلنسية. لقد كان المحيط والفريلية واللغة والمكان والزيتون وهدوء المنظر يبعثون على هذا الإحساس. لقد جرى الحديث بيننا وانساب بشكل مريح حتى أن أصدقاءنا الجدد سألونا عن رأينا في هذا المعبد دون أن نكون أنهينا زيارتنا. لقد أعجبوا به، ولم نكن نريد أن نخرجهم من جو الإعجاب، كما أننا لم نكن نريد أن نكذب أو نجامل، فرأينا المتواضع لا ينبغي أن يعني شيئا. لم نلتفت إلى ذلك البناء، ولم تسعفنا الذرائع التي قدمنا في أن لا ندلي برأينا. لقد كانوا يلحون ويريدون الوقوف على رأينا الحقيقي دون أدنى دوران.

مسحنا جباهنا من العرق، وقلنا إن هذا البناء ما كان ينبغي أن يكون في ذلك الموقع. لم يكن من الضروري بناء أي شيء. وإذا كان من الضروري البناء، فقد كان ينبغي أن يكون عاديا دون أي تكلف، بالضبط كما هو الحال في المصليات البلنسية، وهو أمر ما كان ليكسر التناسق العجيب لهذا المكان الذي يوضوع فيه عبق الإحساس المسيحي.

والبناء القائم في هذا المكان ليس إلا عملا صغيرا يعيد إلى الذهن صورة أي معبد روماني كبير الحجم، فليس فيه عظمة ولا جمال، كما لم يؤخذ الموضع الذي شيد عليه بعين الاعتبار. ويمكن أن يشاد مثل له في مدينة حديثة

من المدن الإيطالية أو في أي تجمع سكاني جديد في جبال الأنديز. في موضع مثل هذا، كان ينبغي أن يتصور شكل البناء رجلٌ متأثر بالمكان نفسه، أو فنان مؤمن قادر على ترجمة إحساسه إلى سطور.

لكن، أين يوجد هذا الرجل؟

إذا ظللنا ننتظره لن يأتي دون شك.

توقفنا كما لو كنا مشينا طويلا، ورأينا عيون الفريلية تلمع كما لو تمكنا من ترجمة أفكارهم الخاصة.

كان خطأ، قال أحدهم. هذا البناء مثل مرآب.

ليس إلى ذلك الحد، لكن، كان خطأ دون شك. العمارة فن صعب جدا ومعقد. والمختارون قليلون، ولا يتعلق الأمر بحسابات ولكن بأحاسيس. والقصيدة الموسيقية والبناء سيان، كلاهما يولد في نفس المنبع. وهذا الرجل الذي بنى هذا البناء هو مع ذلك بناء جيد، لكنه ينقصه الإحساس الإلهي الذي يجعل الحجارة تُنشد.. فكل بناء ينبغي أن يكون فيه تناسق مع المحيط. وهدوء هذا المكان وبساطته لم يستوجبا أبدا بناء عظيمًا.

تابعنا الكلام قليلا في هذا الموضوع الذي لا ينتهي والذي أعجبنا كثيرا إلى أن نادى أحد عن الفريلية يأمرهم بالذهاب. ودعناهم، وبقينا مع مرشدنا الذي دعانا للجلوس على مصطبة.

المساء صحوٌّ ورائق، وكل شيء يرسم بطريقة عجيبة، وعلى الجبل المقابل يلوح بياض أورشليم العاجي مثل تاج مدجج بقمم حادة. وفي الأسفل تلتوي ساقية جافة؛ إنها واد قدرون الذي طالما عبره يسوع المسيح

وتلاميذه للوصول إلى هذا البستان قصد الاستراحة في مساءات مثل هذه والنوم في الكهوف المجاورة ولمتابعة المسير نحو الأعالي...

بقي الفرنسيكاني معنا ، كان مستغرقا في تفكير عميق وقد ركز عينيه في نقطة محددة من الأرض والتزم الصمت. لعله كان يصلي. وحينما رأينا ذلك انصرف كل واحد منا إلى أحاسيسه الخاصة. أسندنا رؤوسنا إلى أيدينا وأخذت عيوننا تجول في المكان بينما انطلقت زقزقات عصفور من شجرة مجاورة. يالها من بساطة. أي جمال هذا في هذه الآفاق!

بأية دهشة يعاد تكوين المشاهد التي ترويها الأناجيل!

آه ، هناك جماعة من الناس تقترب ، إنها وراء رجل ، إنه يسوع وتلاميذه. لا غرابة في هذا. إنه بكل بساطة مشهد من مشاهد هذا الأفق ، لكن أتى يوم انقلب المشهد ؛ كان يوم خميس. حين جن الليل ، أخذت أشجار الزيتون في الانكماش من الآلام وقد شاهدت احتضار ابن الإنسان.

بمجرد أن وصل إلى هنا قال لتلاميذه : انسحبوا إلى المغارات. وترك بصحبته بطرس ويوحنا وسانثياغو الذين غلبهم النعاس فناموا قليلا لشدة التعب ، بينما ظل هو يسترجع أحزانه. هم بإيقاظهم مرات ثلاثة ، لكن عيونهم كانت مملوءة بالنعاس فتركهم وبقي وحده يصلي ممرغا جبينه في التراب.

كان الصمت مطبقا ، سكنت الطبيعة كما لو كانت مصلوبة. وحينئذ ظهر له ملاك من السماء يعضده. انتابه عرق تساقط على التراب كما لو كان دما سائلا. استمرت الليلة صماء وهادئة ، ربما كان هناك طائر يغني بين

الأغصان، وتركت السحب السوداء التي كانت تعبر السماء دموعاً مرعدة في بعض الأحيان. كان هناك صمت مخيف يسبق العاصفة. قام يشوع، ووجه عيونه نحو المدينة التي كان ينبعث منها شعاع أحمر. رفع يشوع عينيه إلى السماء في نظرة عميقة كما لو كانت تردد كلماته: سأفعل ما تشاء. وبعد ذلك توجه إلى تلاميذه بخطى ثابتة وقال: استيقظوا هيا نغادر هذا المكان، سيصل الذي عليه أن يُسلمني.

ذهبوا إلى الكهف ليجتمعوا بالآخرين. أحسنا كما لو كانوا يمسون أذرعنا ليوقظونا، استفقنا من حلمنا. أهدانا الفريلي وردة اقتلعها من البستان، إنه فعل مألوف، لكن لم يكن من المسموح به في هذا المكان. شكرناه.

كان مرشدنا خائفاً من أن ينتبه إليه مرافقه. كان ينظر إلى هذا الجانب ثم إلى ذاك مما يدل على خوفه. حاولنا شم أريج تلك الوردة بينما كنا نتأمل شجرة الزيتون ترخي وتجمع أغصانها في حزن عميق.

كان الفريلية يتناقشون، بينما تابعنا نحن الحلم اللاليتهي وقبلنا التراب.

مدفن العذراء

من حُسن حظنا في أورشليم، أن كان مرشدنا هو هذا الفرنسي سكاني العظيم. إن هذا الرجل الذي يلبس جبة خشنة ذات لون الأرض الغامق، واحد من هذه النفوس الطيبة التي لازالت في هذا العالم. إنه مقدود القامة، به سِمَنٌ قليل يذكرنا بصور الرهبان في الرسومات القديمة، وكانت تنسدل

مكتبة المهتدين الإسلامية

على صدره لحية كثة تنعكس على وَجْهِ لَفَحَتُهُ الشمس. كان ينظر من خلال نظاراته ذات العدسات اللطيفة، بينما تنعكس نظرتة على قوة وجهه الذي زادته لحيته طولا. كان الفريلي مستعدا للذهاب إلى حيث نريد بصدر رحب. لقد أثار انتباهنا منذ اليوم الأول، ألفتة أسماعنا، وعلمنا فيما بعد أن القس الطيب كان من نواحي Turia ربما كان هذا هو سبب انفتاحه علينا، ولا نعرف كيف نشكره.

مشينا سويا كما لو كنا أصدقاء قدماء، نتحدث في ألف مسألة بينما كنا نزور أماكن ذات أهمية عظيمة، وقد كان يزودنا بتفاصيل عديدة يصعب الاحتفاظ بها كلها في ذاكرتنا البسيطة. حقا إنها على الأقل تلاوة للتوراة، والذي لا يعرفنا من قبل يخال أننا درسنا في سلك القسيسية في فترة سابقة.

خرجنا من المدينة نازلين نحو وادي قدرون في سبيل قضى فيه أول شهيد. ورغم ذلك لا شيء يخلد لاستشهاد القديس إشتبان San Esteban. وصلنا إلى مدفن العذراء بعد أن قطعنا مجرى يابسا. كان المدفن معبدا ذا واجهة قوطية قديمة مذهبة قد نال منها الزمن في سفح جبل الزيتون. ويولد بداخلها إحساس عجيب. ويتعين النزول في درج للوصول إلى مستوى البناء. وهذا المكان مظلم فيه رائحة رطوبة. وفي أقصى العتمة قناديل وأشياء ذهبية. ويصعب التقدم داخل تلك الظلمة فالشمعة التي أعطينا لا تكاد تضيء الأصابع. ولجنا بابا صغيرة أفضت بنا إلى محراب حفظ فيه مدفن حلم العذراء العابر. وتحترق فوق المرمر الأبيض مجموعة من الشموع الصغيرة الشرقية ذات أشكال مختلفة حُلِيت بعضها ببعض الزخارف الدقيقة. إنه أشبه ما يكون

بمدفن المسيح، لكن الصمت هنا أكبر، والخلوة أعظم، وتتملك الطمأنينة الروح. لم نكن نظن ذلك على الإطلاق.

قال الفرنسي سكاني: من هنا عرج البشر الخالص إلى السماوات .

أعجبنا المكان، إنها الحقيقة. لقد زينته يد الإغريق والأرمن والسريان والأبسينيين ببلادة. وبالنسبة لنا كان يجب تمكين شعاع من الشمس من الدخول عبر النوافذ لتضيء بعض الورود... لا شيء أكثر.

ويبدو أن هذا المكان كان في زمن آخر بأيدي الإخوة الفرنسي سكان، لكن تم إجلاء الكاثوليك عنه الآن. وللمسلمين فيه مكان للصلاة.. والحقيقة أن العذراء بالنسبة إليهم تجسيد للطهارة وإخلاص النية؛ هكذا تحكي بعض الروايات العربية. ولو كان هذا المصلى بأيديهم لما عتمته هذه العتمة المحزنة. لقد كانت سحب من البخور تضوع في كل الأرجاء.

وبخروجنا من جديد إلى الضوء، خلّنا أنفسنا أننا خرجنا من كهف فاستنشقنا عير الهواء الصافي. كل الأشياء هنا واضحة وجميلة أكثر مما كانت عليه من قبل. مشينا بعض الخطوات ودخلنا مصلى أخرى. كانت هذه المصلى واقعة داخل مغارة حقيقة يسمونها مغارة الاحتضار. وحسب ما قيل لنا، فإن هذا الاسم غير صحيح، وكان القدماء يسمونها مغارة الأسر. ويبدو أن المسيح قضى بداخلها ليال عديدة مع تلاميذه وقد حقت عليه الكلمات التي تقول:

للتعالب وجار، وللطيور الأعشاش، وليس لابن الإنسان ما يوسد عيه رأسه. وقد أخذت هذه المغارة بلبنا منذ الوهلة الأولى. إن لها جمالا ريفيا لا

نجده في معابد أخرى. فالأحجار هي نفسها أحجار المأساة يحرسها
الفرنسي سكان بحماسة. وبها بعض ذكريات إسبانيا البعيدة..

استقبلنا فريلي دَقْنُ ذو لحية بيضاء قد بدت على قَسَمَاتِهِ آثار نِعْمَةِ الصحة.
تحدث إلينا بلين وبطيوبة طفولية. لم يكن عنده شيء آخر يقدمه لنا إلا شيئا
من الخمر وماءً باردا شربناهما بابتهاج بينما استرسل في حديثه ولاطفت
أسماعنا الأُمجديَّة البرتغالية. قضينا بعض الوقت في الحوار، وسمعنا بعد ذلك
خطوات بعض الناس تقترب من مدخل المغارة. وحدث ارتباك كبير، فقد
قلق مرشدنا وسحب الكؤوس بلطف. ما عساهم يظنون إذا ما رأوهم؟
أيمكن أن يظنوا أننا نسكر في مثل هذا المكان؟ إن هذه الأسئلة تُقرأ في الخوف
الذي انتاب وجه مرافقنا. بينما عمد الفريلي الآخر إلى الضحك، ومضى
مسرعا إلى مكان آخر يخبئ فيه تلك الأدوات المريبة.

أثرت ضحكته فينا فضحكنا بدورنا؛ إن هؤلاء الفريلية الطيبون جيدون.
ودون شك فقد جعلونا نقضي أوقاتا سعيدة.

وبينما كان هؤلاء يتحاورون مع القادمين الجدد زرنا هذا المصلى الصغير
ذي الأهمية الصوفية العالية. وبعد وقت قصير أحسنا كما لو كنا وحيدين
في تلك المغارة. كانت تبعث إحساسا عجيبا في كل جنباتها، وهي أكثر
الأشياء فيها اتصالا بمأساة الآلام. وَلَنَفْسِ الأحجارِ عظمةٌ مأساوية حقيقية،
وبُنيت بينها بعض المذابح، وهي التغيرات الوحيدة التي شهدتها المكان.
أخذت الأفكار تتسارع إلى الذهن فوق تلك القمم اللامعة؛ هنا تمت تلك
القبلة الخادعة التي بدت كما لو كانت سوطا تردد صدها في كل آفاق العالم.

فكيف اختزنّت نفس تلميذ من تلاميذ المسيح كل ذلك الشر. كئيب هذا الدور الذي خُص به يهوذا الأسخريوطي. في يوم الخميس المقدس قبض حارس السنهدرين على البريء، كان ذلك هنا. وخلف الحرس جاءت الأغلبية العمياء التي لا إحساس لها، والمخطئة على الدوام، المختلفة وغير القادرة على التفكير. التي تقدم العدد على أنه الحقيقة السامية. لازلنا نرى توهج المشاعل التي تقترب من الأشجار، ولا زال يُسمع صدى الجمهور مثل بحر زخار أو صفير إعصار. إن الإنسانية بدون كوابح تُصير الناس أفزع من الذئاب. ها قد وصلوا مثل مياه هائجة. وبعد صمت عميق سقط الجنود على الأرض حين سمعوا صوتاً...

سُمعت القُبلة، ولمع الحُسام في الهواء... جريح.

وبعد ذلك اقتيد الإنسان الذي اعتراه عرق خفيف، منتكس الرأس وقد قيدت يده... كان التلاميذ يسمعون مذعورين... وبعد ذلك صعدت الجموع إلى المدينة... كان ازدحام، وكانت الصدور مفعمة بالرغبات الدموية. وكان الليل. كان ليلاً هادئاً دون قمر لكنه مليء بالنجوم. وكانت المغارة كما نراها الآن صامتة لكنها تهتز لذلك المشهد السريع، بينما تبكي الأحجار الصلبة في الظلمة.

جبل صهيون

خطرت على بالنا اليوم جملة من الأسماء واختلط علينا أمر ما رأينا ؛ وقد زرنا مع الفرنسييسكاني الذي لا يبعث على التعب مطلقا جانب القدس الواقع على الجبل التاريخي للمدينة المقدسة. وعلى الرغم من تحوله إلى هياكل متنوعة لمعتقدات عديدة فقد حدثنا الفريلي عن الروايات الباطلة. من الصعب أن تنسب إلى هذه الهياكل أسماء تحوم حول مأساة الأيام الأخيرة ليسوع المسيح. فقد علت تلك الهياكل خرائب أخرى أكثر قدما في أماكن أشارت إليها النصوص القديمة أو الحكايات الشعبية.

وقد مررنا أولا بجانب من برج داود. وهو بناء أسسه هيرودوس الأكبر، وكان يشكل جانبا من قصره. وسمي خلال القرون الوسطى برج *Pisanos* دون أن يُعلم سبب التسمية. ويشكل هذا البرج جزءا من قلعة، وهو مربع وليس مرتفعا جدا وهو غير ذي أهمية. وكان هيرودوس استقبل داخله ملوك الشرق الذين قدموا من أجل تقديم الطاعة لملك اليهود الجديد.

ودخلنا حي الأرمن، وتوجهنا إلى كنيسة تسمى كنيسة القديس يوحنا، وهي مزينة كثيرا بصور ونباتات قرن الخصب وبزليج ومصاييح. وهذا البناء في مجمله ذو طابع أندلسي كثير الزخرفة. ويحكى أن القديس سان خامي *San*

Jaime استشهد في مسكن صغير هنا حُولَ إلى كنيسة . ويوجد داخل نفس الحي الأرمني أناس Anas الكاهن المستهتر. وقد حول هذا المنزل اليوم إلى دير للراهبات. والطابع المعماري لهذا الدير طوسكاني قديم به بعض الزخارف ، وهو يبدو على شكل كنيسة قليلة الأهمية ولا شيء فيها يحكي المنزل القديم. وهذا الحي الأرمني كبير. ويوجد به بالإضافة إلى ما رأينا مأوى للحجاج ، وقصر للبطريق. وتلك الأبنية طابع حزين ، وهي تعكس الفقر ودرجة الإهمال.

لازلنا داخل أسوار قديمة ، نعبّر فضاءات لا نعرف أأزقة هي أم ساحات أم فناءات ؟ . كل شيء هنا متداخل. مررنا بباب تسمى كذلك باب داود أسسها سليمان الثاني . دخلنا معبدا حديثا يسمى مرقد العذراء أسسه آخر أباطرة ألمانيا على الحجر الذي توفيت عليه أم عيسى قبل أن تُنْقَلَ إلى مدفن مجاور لوادي قدرون. ويبدو أنه كانت هنا مصليات في كل فترات التاريخ تخلد لهذه الذكرى.

ووصلنا بين أحجار رمادية وبنية ، نال منها الزمن ، إلى مسجد شكله من الداخل شكل كنيسة قوطية فارغة. وهذا البناء وسيطي. وأحاطت بنا كوكبة من الأطفال كثيري السؤال. وبعد أن أدينا قدرا من المال عند المدخل تأملنا القاعة ذو أن تبعث فينا أي إحساس. ويحدثنا شكل العمارة أنه حديث عن أيام عيسى . ، أصر عربي ثقيل الظل بأن نشترى منه بعض الصور ، وأثارنا فأبعدناه بكلمات قوية ، كانت نتيجتها نظرات رهيبة منه يغلوها حقد.

لقد كان ذلك المكان واحدا من الأماكن المقدسة لكننا تخصمنا فيه. وسمح المتعصبون المسلمون منذ سنوات قليلة فقط لأتباع المعتقدات الأخرى زيارته على اعتبار أنه ضريح النبي داود. ولهذا المكان أهمية عند اللاتين ؛ فقد كانت هنا أول كنيسة مسيحية. ففي القرن الرابع ارتفعت في هذا المكان كنيسة كبيرة تخلد للغذاء الأخير، وعلى أنقاضها بني معبد زمن الحروب الصليبية. وكانت القاعة العلوية مخلدة للعشاء، حيث استقبل تلاميذ المسيح الروح القدس، وتحتها قاعة أخرى تخلد لغسل الرجلين. وحين وصل صلاح الدين الأيوبي إلى القدس احترام القداس الذي يُجرى في هذا المكان. وبقي المكان تحت رعاية بعض السريان من أهل الذمة. ولكن تم إهماله شيئا فشيئا، وبدأت حجراته تسقط الواحدة تلو الأخرى حتى كاد يتحول إلى أنقاض. وتمكن ملوك نابولي وروبرتو دي أنجو وزوجته سانتشا بعد كثير من الصعوبات أخذ إذن سلطان مصر قصد رم الخرائب التاريخية فجعلوها تحت إمرة الفرنسيين الذين بنوا بجانبها ديرا.

وبعد مائة عام، تم إخراج الفريلية الفرنسيين من طرف المسلمين من ذلك المكان بدعوى تخليص ضريح النبي داود الذي يوجد داخل البناء حسب رواية من القرن الثاني عشر. ويظهر أن السنوات الأخيرة كانت قاسية بالنسبة للفرنسيين حيث تكررت محاولة إخراجهم بكل الطرق حتى استسلموا أمام القوة.

وقد أسلفنا أن هذا المسجد المسمى مسجد النبي داود ظل موصدا إلى عهد قريب أمام المصلين المسلمين، ولا يسمح اليوم داخلة بأية صلاة على معتقد آخر، كما لا يسمح بزيارة القاعة السفلى، وهم يدعون أن بها مدفن النبي.

وهذا المنع كلي. وقد صرح لنا بعضهم أنهم يدافعون عن آخر معقل لهم بهذه الأرض. ومن جانب آخر لازال الفرنسيون يأملون الرجوع والتمكن من هذا المكان الذي له عندهم عبق روحي كبير. فهل يتمكنون من ذلك؟. من الصعوبة بمكان تقديم جواب.

غادرنا هذه المصلى ، وتمكننا من إزاحة سحابة الباعة والمتسولين التي تعقبنا. وقد أطلعنا الفرنسيون على المكان الذي كان به منزل قيا في الذي لازالت مجادلاته المخيفة حية إلى اليوم. حاولنا إعادة البناء في هدوء اللحظات الصوفية للعشاء الآخر ، لكن كانت مخيلتنا تحملنا فقط إلى دير سانتا ماريا دي ميلان حيث توجد لوحة ليوناردو دافنتشي المليئة بالإحساس.

الوصول

الفريلي أنطونيوديل كاستيو

بعد أن وصلنا إلى باب المدينة، أرسلنا لإعلام الأب الوصي بأننا قد وصلنا، وقد أرسل بدوره ترجمانا لإعلام الباشا حتى يرسل في طلب الأتراك المطلوب أن يتفقدوا الفريلية والحجاج، فيسجلون أسماءهم ومن أي البلاد جاءوا. كما بعث الأب بكاريو *P. Vicario* من الدير إضافة إلى رجال دين آخرين، ليرافقونا إلى الباب ريثما يلتحق بنا الأتراك المبعوثون من طرف الباشا.

وعند وقوفنا عند الباب، اقترب مني شاب تركي غريب، قوي البنية، فقبض خدي، ووضع إبهامه على أنفي، شذبه بقوة بيده اليسرى، ثم انهال علي بضربة خلّت أنها اقتلعت منخاري بسبب ما أعقبها من ألم، في حين انهمرت دموعي. من جهة أخرى، نلت حظوة قبل دخولي المدينة المقدسة؛ لقد عانيت من أجل إلهي. ومع الدموع المنهمرة ضحكت، لأنني وجدت التركي يقول "إني مجنون"، فأجبت "أنا مجنون"، فأضطرب و انتابه الخجل،

وأخذ يرجو مني الصفح. وسبب طلبه العفو؛ إنهم يقولون أن الحمقى أخلاء الرب ليس عليهم ذنب. ومن كبير الذنوب إيذاؤهم. كان هذا بمثابة درس لي استفدت منه مرارا، وكنت كلما آذاني مجانين، أضحك فيتركونني ويبتعدون عني. وهم ينتبهون لهذا فيقولون عن الشخص الذي يؤذونه دون أن يضطرب أو يحتار، إنه رجل عظيم أو قديس.

بعد ذلك أتى الأتراك، أخذونا إلى دير، فتشوا ملابسنا، اختبرونا ليعلموا هل معنا أسلحة، وسجلوا أسماءنا وأسماء أوطاننا، ثم أدينا ما يجب علينا من الحقوق والرسوم و انصرفوا بعيد ذلك.

صعدنا إلى الدير، لأن الإجراءات المذكورة أعلاه تتم في بهوه عند المدخل. وعند صعودنا، خرج الأب الوصي وكل الطائفة للاستقبالنا. ولا يمكن بحال وصف الدموع ودرجة التأثير التي كان عليها رجال الدين، فأخذوا يعانقون بعضهم البعض. ونحن الذين أمكننا المجيء إلى هنا، نعي جيدا معنى أن يعيش هؤلاء المتدينون بين تلك الشعوب المتبررة. كان عليهم أن يقوموا بأشياء كثيرة، ولا يمر عليهم يوم من دون أن يُعْتَفُوا. والذين استقبلونا اعتبرونا كما لو كنا أكباشا وديعة توشك أن تنهشها تلك الكلاب الضارية. بهذا الخشوع، وتلك الدموع، أخذونا إلى الكنيسة حيث حمدنا الرب جل جلاله عن الفضائل التي منحنا بأن جاء بنا سالمين إلى هذه المدينة المقدسة وإلى هذا الدير.

كان من المقرر أن تُغسل أقدامنا في غرفة بجانب الباب، عند مدخل الكنيسة المفضي إلى الدير. و هذا الباب ليس كما عندنا حيث الأبواب تفضي مباشرة إلى الشارع؛ إنها في الداخل، وسبب ذلك راجع إلى أنه كلما كانت هناك

فوضى بين الأتراك ، أمكننا أن نأوي إلى مكان آمن. كما أن ذلك يمكننا من أداء صلواتنا المقدسة بكل هدوء وطمأنينة.

جاء المنشدون وحامل المبخرة وكل رجال الدين وبأيديهم شموع مضيئة ، ولبسَ الأب الوصي رداء كهنوتيا وبَطْرُشِيل القسيس ، وشرع يغسل أقدامنا. وذلك طقس ورع لا يمكن حصر الدموع فيه ، سيما حين ترى العين أسقفا عظيما مثله - بغض النظر عن مرتبته الدينية وهو مندوب للكرسي الرسولي - ينحني على ركبتيه ويغسل قدمي الحاج ، بينما ينشد القسيسون المزامير بلحن جد شجي وقد حملوا شموعا ضوعت منها رائحة عبقة زكية. وُضع إناء على حصير ، وجلس الحاج على دِكَّة مغطاة بحصير أخرى تحمله على تأمل كبير. حين ينتهي الأب الوصي من غسل قدمي الحاج ينحني ليقبلهما ، ويتتابع القسيسون لتقبيلهما أيضا ، ثم يقوم ويعانق الكل ، وتُسلم لكل واحد شمعة...

ينتهي هذا الطقس بقراءة *Te Deum Laudamos* "لك يا إله نبجل" ، ويتم الصعود إلى الكنيسة ، بينما تُنشد تلك الأبيات كما هي العادة ، ويُقدِّم الأب الوصي عظة قصيرة حول الفضل والعظمة كبيرين بأن جاء الرب بالحجاج سالمين لرؤية أورشليم و زيارة البقاع المقدسة. وكيف ينبغي القيام بذلك لتتم تلك الزيارة ، والمغانم التي تُحصل ، وكيف ينبغي أن يُهيء الجميع أنفسهم لذلك.

عندما انتهى الأب الوصي من موعظته ، عانق الجميع ، وأخذونا إلى حجرة الطعام حيث أهدونا الأحسن مما يمكن ، ثم صحبونا إلى المضيقة. وقد عين الأب الوصي رجلي دين ليصاحبانا أثناء زيارة الأماكن المقدسة. ويُحرصُ أن

يكون أحد ذينك المرافقين من جنسية الحاج سواء كان فرنسيا أو إسبانيا أو
إيطاليا أو فلمانيا أو ألمانيا. دائما هناك حجاج من جنسيات مختلفة..



© The Jewish National & University Library

© The Hebrew University Library of Jerusalem

القدس في روماتية خوان دي إثنينا

أوردنا هنا القصيدة بلغتها واكتفينا ببعض الإشارات، وقصدنا التأكيد على أن ماورد في الرحلات إلى القدس شعرا لامس نفس الموضوعات التي تطرقت إليها الرحلات المكتوبة نثرا والتي قدمنا بعض نماذجها.

106 *Piège à Jérusalem*

Tras mil trabajos sufrir;
Y todo bien empleado,
Por tanto bien conseguir,
Y en cosa tan deseada
El deseo ya cumplir.
Luego á Monte Sion fuimos,
Por el Guardian seguir,
Y en el Monasterio entrando,
Cenamos, sin de él salir.
Después al Patriarcado
Fuimos, la noche á dormir,
Y otro día de mañana
Tornamos á Misa oír,
Y de Misterio en Misterio
Comenzamos luego á ir:
Do Christo cenó y sus doce,
Antes que fuese á morir:
Do los pies, bien cerca dende,
Les lavó, sin resistir:
A do Pedro fue forzado,
De también él consentir.
E fuimos mas adelante,
Por cierta Escala subir,
Adonde en lenguas de fuego,
Su gracia les fue á influir.
Desque á Tomás con los otros

الوصول بعد عناء

التوجه إلى جبل صهيون

حيث الدير الذي يشرف

عليه الأب الوصي

طقس غسل قدمي الحاج

Se mostró, en su resurgir.
 Mas á do cenó le plugo
 El Sacramento instituir,
 Que en memoria les quedase
 Para dar y recibir:
 Donde yo mi primer Misa
 (Aunque indigno) fui á decir.
 Siendo de Agosto á seis dias,
 Que eran tres al residir,
 Del Gaceli ya alcanzamos,
 El Santo Sepulcro abrir,
 Adonde entramos tres noches,
 Ciertamente no á dormir,
 Sino á visitar Misterios
 De Christo, y á los sentir.
 Suelese entrar en la tarde,
 Y á la mañana salir:
 Entramos por contadero,
 Sin ninguno se encubrir,
 Que nos cuentan como ovejas,
 Que suelen á extremo ir.
 Entrar al Sepulcro Santo;
 No se puede mas decir,
 De adonde al tercero dia
 Christo quiso resurgir.
 Subir al Monte Calvario,

زيارة المدفن المقدس
 والمكوث به ثلاث ليال

زيارة الجلجثة

¡O santísimo subir!

Adonde muriera Christo

Por el Mundo redimir:

Do la Cruz dentro en la peña

Fueron plantar y engerir.

¡O precioso Asiento y Hoyo,

Quién pudiera así plañir,

Que te viera aquellas noches

De sus lagrimas henchir,

Y su corazon de angustia,

Como la peña partir,

Que al tiempo, que espiró Christo,

De dolor se vido abrir!

Segun oy dia se muestra,

Y es su eemplo de seguir,

Que en verlo pone deseo,

De por Dios penas sufrir.

Ví el Altar Mayor y Coro,

Que estár, dicen, sin mentir,

En medio de todo el Mundo,

Los que bien saben medir,

Adonde solo los Griegos

Ví sus Oficios decir:

E á do Christo apareciera

A su Madre al resurgir;

Y adonde á la Magdalena

مكان الصلب

المصلی الكبرى

مكان تجلي المسيح

للعدراء ولريم المجدلية

En Hortelano vestir;
Y tambien do las Marias
Vinieron á Christo ungir,
Misterio primero, y postiero
A la entrada y al salir.
Pues otro muy doloroso
Misterio de referir
Es, do San Joan con la Virgen
Se asentó, ya sin sentir,
Viendo á Christo en la Cruz puesto,
De la vida al consumir,
Do le encomendó á su Madre
Por hijo, como al vivir,
Y al Discipulo lo mismo,
Como á Madre la servir.
E alli cerca fue, do Eléna
Hizo la Cruz descubrir,
Que es ora Capilla suya,
So tierra de asáz sumir,
Que tiene quarenta gradas
De baxar y de subir,
Y á cada lado un Misterio
De Christo, digno de oir.
El uno, do le asentaron
A desnudar y escarnir;
Y el otro, do echaron suertes,

المكان الذي جلس فيه
خوان والعذراء ينظران
على المصلوب

المكان الذي جلست فيه
هلانة أم الإمبراطور
قسطنطين حينما كانت
تنقب عن الصليب

Y á anunciarles su venir,
 Cantando : *Gloria in excelsis*,
 Se espantaron de le oír:
 Mas, tambien ellos vinieron,
 A dones le proferir.
 Vimos, do circuncidado
 Quiso ser, sin resistir,
 Necesidad no teniendo,
 Sino por la Ley cumplir...
 E vimos la gruta ó cueva la
 Donde entró, por se encubrir,
 La Virgen con Christo en brazos,
 Quando á Egipto quiso huir,
 Que mandaba el falso Herodes
 Los inocentes morir.
 Vimos Montaña Judéa,
 Que alla trabajamos de ir, al
 Donde la Virgen Maria
 A Isabel fuera á servir,
 Y como á mayor parienta
 Ayudarle en su parir:
 Y el Baptista, do naciera,
 Vimos sin de allá partir:
 E á do el alto *Benedictus*
 Zacharias fue á escribir;
 Y el *Magnificat* la Virgen,

المكان الذي أوت إليه مريم

هربا من هيرودوت والمسيح

لا زال رضيعا قبل الفرار إلى

مصر

رؤية جبل يهودا

En su Divino decir:
 Do Isabel se vido en verla,
 Profecías proferir;
 Y todos fueron Profetas,
 Cada qual en su sentir.
 Y á Jerusalém, la siesta,
 Nos tornamos á venir,
 Desque un día reposamos,
 Por descanso recibir.
 No dexamos de á Bethania
 Y Hierico y Jordán ir,
 Do fue Christo á baptizarse,
 Y otros Misterios cumplir:
 Do ayunó quarenta días,
 Y hambre y sed quiso sufrir;
 Y del Demonio tentado,
 Fue por él lo consentir.
 Vimos la casa del Ciego,
 Al entrar del Valle y salir,
 Que á Christo con Fé clamando,
 Su vér, vió restituir.
 Y á Monte Olivete fuimos,
 Donde al Cielo fue á subir:
 Y á Josafá, do su Madre
 Fuera assumpta en su morir;
 Y el Torrente Cedron vimos,

H

الاستراحة ليوم واحد ثم

المسير نحو بتانيا

زيارة المكان حيث بيت

الأعمى الذي أبرأه عيسى

الذهاب إلى جبل الزيتون

وزيارة وادي قدرون

Sin agua, seco venir.
 Y el Val de Siloe, junto
 Con Josafá concurrir:
 La Especiosa y Aurea Puerta;
 Y otras, que no sé decir.
 El Templo de Salomon,
 Con todo su circuir;
 Mas aquesto desde fuera,
 Que dentro no osamos ir,
 Que al Christiano, que allá entra,
 No le dexan mas vivir,
 O renegar le es forzado,
 Si no quisiere morir:
 Y aun otros Misterios vimos,
 Bien dignos de referir.
 La calle del Amargura,
 Y el Pasma, que es de plañir;
 Y á do Pilato, *Ecce Homo*,
 Salió con Christo á decir,
 Que es en casa del Gaceli,
 Adonde él suele vivir;
 Y adonde fue flagelado
 Christo, por mas le escarnir;
 Y á do la Virgen naciera,
 Do mandó el Gaceli abrir.
 La Probatica Piscina

زيارة نبع سلوى

زيارة مكان الهيكل (وهو
 بزعم إثنين محرم على
 المسيحيين ومن دخله منهم لقي
 حتفه أو يضطر إلى اعتناق
 الإسلام،) يقصد هنا الحرم
 الشريف))

زيارة طريق الآلام والمكان
 الذي قال فيه بيلاطس: "هوذا
 الإنسان"، والمكان الذي
 ضرب فيه بالسوط، ومكان
 ميلاد العذراء، ونبع الماء الذي
 منه كانت تنهل

Vimos, mas nos caturir,
 Do el Angel movia el agua,
 Para el enfermo guarir,
 Y otras cosas vimos muchas,
 Que no quiero repetir.
 Las palabras repetidas,
 Suelen fastidio parir,
 Y por ser arriba escriptas,
 No las quiero aqui escrebir.
 Asi que todo acabado,
 Tornamos de alli á salir,
 De Agosto á los diez y nueve,
 Para ya nos despedir,
 Y volvimos por San Jorge,
 Por otra via seguir.
 Vimos á Monte de Silo
 Do Samuel se fue á vivir,
 De donde vimos dos Sierras,
 Y un bel Valle producir;
 Do David mató á Goliath,
 Y le supo bien herir.
 E á diez y ocho llegamos
 A Jafa, noche, á dormir.
 A veinte y uno de Agosto
 Nos tornamos á partir,
 Y venimonos á Chipre,

H 2

المكان الذي أخذ منه
 الماء لشفاء المرضى

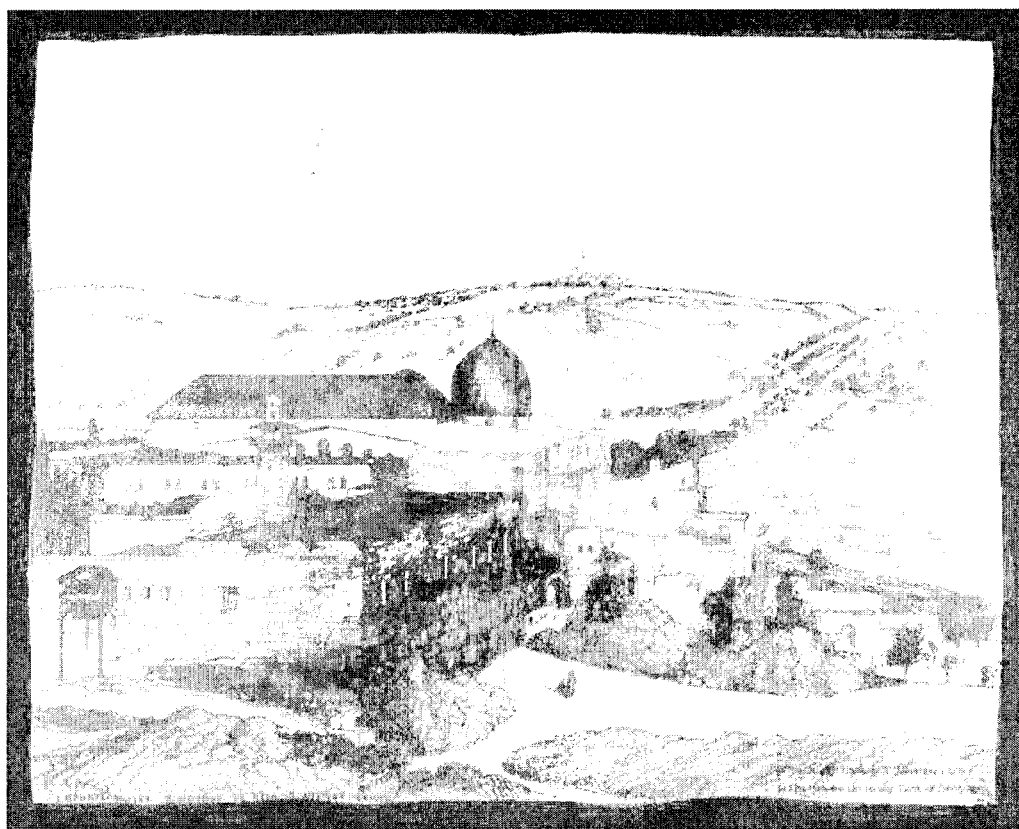
الخروج من القدس
 والشروع في العودة إلى
 الديار يوم 19 غشت،

مشاهدة آثار جبل جيلو
 حيث عاش سليمان،
 والوادي الذي قتل فيه
 داود جالوت

الركوب من حيفا إلى
 قبرص

Das Iehige Ierusalem Fig. CX.

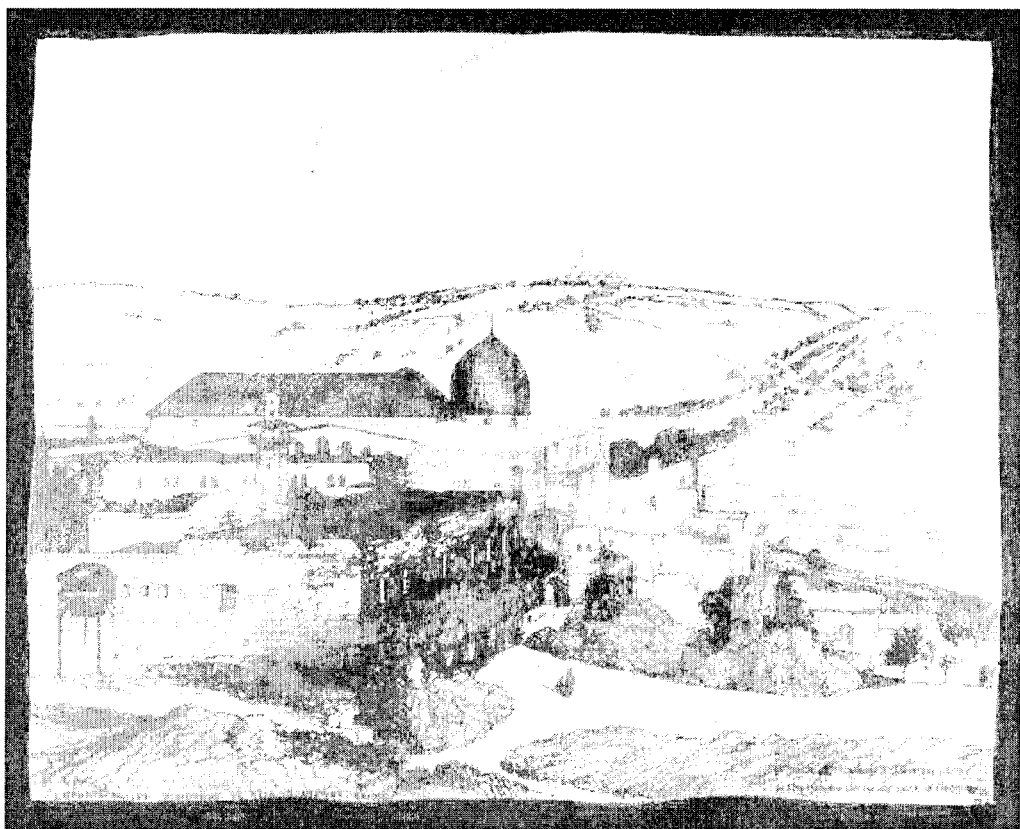






© The Jewish National & University Library

© The Hebrew University, Dept. of Geography



المصادر والمراجع

¡Ay Iherusalem!: planto narrativo del siglo XIII, Eugenio Asensio; NRFH (Nueva Revista de Filología Hispánica); vol XIV, 1960

¡Ay, Jerusalem!, estrofa 22 “traductio” y tipología, Alan Deyrmond; en Estudios ofrecidos a Emilio Alarcos Llorach: (con motivo de sus XXV años de docencia en la Universidad de Oviedo); Universidad de Oviedo, 1976

Antología de la literatura española, Bárbara Louise Mujica, Amanda Curry; edición John Wiley and Sons, 1991,

Apuntes de una visita a Tierra Sans, Fray Rafael Sans, Misionero Apstólico de la Paz en Bolivia; Imprenta Hispano-Americana , De route frères, Dunon et Fresné, Paris 1867

Arquitecturas del Escorial y la senda de lo salomónico en España, David García López, P : 461-486

Arte y Fe en Palestina, Arribas Severo, Madrid, 1946

Bernardo de Breidenbach, Viaje de la Tierra santa, edición. Fassimil con introducción de Jaime Moll, Ministerio de Educación y Ciencia , Madrid 1974

Biografías de siete grandes escritores guatemaltecos, Mario Alberto Carrera ; Librerías Artemis Edinter, 1997

Breve Nota sobre descendientes de Moriscos en Jerusalén a comienzos del siglo XVIII, Eva Lapiedra, Revista Sharq al-Andalus, V 16-17, 1999-2002

Breve y sencilla narración del viaje que hizo a visitar los santos lugares de Jerusalén, Fray José María ; México, Imprenta. de Abadiano, 1837

Cuatro años bajo la media luna, Rafael de Nogalés Mendéz; Editora Internacional, Madrid Berlin Buenos Aires - 1924 , reimprimido Colección Trazos y testimonios, editorial El Perro y la Rana, 2006

Cultural revolutions: reason versus culture in philosophy, politics, and jihad, Lawrence E. Cahoon ; Pennsylvania State Press, 2005
Del Manzanarez al Nilo y el Jordan, Madrid, 1870

Del texto literario a la representación popular sobre la conquista: La destrucción de Jerusalén, Arcil Varón Beatriz ; Anales de Literatura Española. N. 13 (1999)

Desde Sevilla a Jerusalén, Edición moderna de Joaquín González Moreno Sevilla, 1974

Diario de un peregrino en Tierra Santa, Don Alvaro Robledo con un prólogo por Don Antonio de Truera, Madrid, Librería de D. Leocadio Lopez, Editor ; 1863

Early travels in Palestine, comprising the narratives of Arculf, Willibald, Bernard, Saewulf, Sigurd, Benjamin of Tudela, Sir John Maundeville, De la Brocquière, and Maundrel, edited with notes by Thomas Wright; Bohn's antiquarian library, London 1848

Egipto y Palestina; apuntes de viaje, José López-Portillo y Rojas ; Edición Diaz de Leon y White, 1874

El devoto peregrino y viaje de tierra Santa , Fray Antonio del Castillo; Imprenta y librería de la viuda è hijo de Sierra, Barcelona, 1850

El Escorial apocalíptico, o la Jerusalén celeste en la tierra. Cratofanía escatológica del último emperador, Antonio Martínez Ripoll, actas del simposium, El Monasterio del Escorial y la arquitectura, 8/11-IX-2002, coord. por Francisco Javier Campos y Fernández de Sevilla, 2002, P: 63-100

El Fransiscano observante Antonio de Medina y el peregrino Iñigo López de Loyola. Braulio Manzano Martín, Revista Manresak Vol 63.1991

El libro de la Escala de Mahoma. Relaciones, contextos españoles del Medievo y el Renacimiento tesis doctoral presentada en la Universidad de Sevilla

El orientalismo en la pintura de Antonio Muñoz Degraín, Ramón García Alcaraz, Generalitat Valenciana, 1997

El peregrino: autobiografía de San Ignacio de Loyola, Introducción, notas y cometario , Joseph Maria Rambla Blanch, 5ta edición , ediciones Mensajero y ediciones Sal Terrae,1996

Els viatges d'Ali Bei, Ali Bey, il·lustracions, Núria Tarrau ; L'Atzar (Barcelona), 1984

Ensayo de una biblioteca Española de Libros raros y curiosos, José León Sancho, Marcelino Méndez y Pelayo, Aureliano Fernández-Guerra y Orbe, Editor M.Rivadeneira, 1866

Ensayo de una biblioteca Española de Libros raros y curiosos, José León Sancho, Marcelino Méndez y Pelayo, Aureliano FernándezGuerra y Orbe, Editor M.Rivadeneira, 1866

Escritoras chilenas, Tercer Volumen, Novela y Cuento, Marcela prado Traverso, Patricia Rubio, Editorial Cuarto Propio, Primera edición, Chile, octubre 1999

Four paths to Jerusalem: Jewish, Christian, Muslim, and secular pilgrimages, 1000 BCE to 2001 CE, Hunt Janin ; McFarland, 2002

Género Literario y temas de penitencia de amor de Ximénez, Alazet, Vol 9,1997

Historia de las ideas y de la cultura en Chile, el centenario y las vanguardias, Volumen3, Bernardo Subercaseaux, editorial Universitaria, imagen de Chile, Primera edició,; Santiago de Chile, 2004

Ierusalen Conquistada, Epopeya Tragica, Lope de Felis Vega Carpio,Madrid, Imprenta de Iuan de Ceuta, año 1609

Il "Libro della scala" e la questione delle fonti arabo-spagnole della Divina Commedia, A cura di Enrico Cerulli, Città del Vaticano, Biblioteca Apostolica Vaticana, 1949.

Imágenes y símbolos en la arquitectura pintada española (1470-1560), Ana Ávila; Volumen 18 de Iconografía. Palabra Plástica Series, Anthropos Editorial, 1993

Iñigo de Loyola, peregrino en Jerusalén (1523-1524): según la "Autobiografía" del santo, los tratados de los franciscanos Medina y Aranda y las monografías de Fussly, Hagen, el marqués de Tarifa y de otros peregrinos españoles y europeos, Braulio Manzano Martín; Volumen 91 de Historia (Ediciones Encuentro) 1995

Itinerary of Rabbi Benjamin of Tudela , Translated and Edited, A. Asher, Vol I, Text Bibliography and Translation, Hakesheth Publishing co, New York 1900

Jerusalem Stones, Rafael Courtoisie, in La Fraternidad de la Palabra : antología, Napoléon Baccino Ponce de Léon ; Ediciones Trilce, 2005

Jerusalem Syndrome - Fantasy and reality, Kalian, M. and Witztum, E; Israeli journal of psychiatry related sciences; 36 (4) 1999.

Jerusalem Syndrome as reflected in the pilgrimage and biographies of four extraordinary women from the 14th century to the end of the second millennium, Moshe Kalian; Eliezer Witztum; in Mental Health, Religion & Culture, Vol V, Issue 1, March 2002

Jerusalem syndrome, Kathryn Elizabeth Goldstein, 2001

Jerusalem Syndrome: The Palestinian-Israeli Battle for the Holy City, Mosheh Amirav ; Sussex Academic Press, 2009

Jerusalén a la vista: tres viajeros mexicanos en Tierra Santa, José María Guzmán, José López-Portillo y Rojas, Luis Malanco, edición Vicente Quirarte ; Instituto Mexiquense de Cultura, 2003, Toluca, México

Jerusalén y Tierra Santa, E.Gomez Carillo, Sociedad de Ediciones, Louis Michaud, Paris

Jerusalén, una historia de amor, Azancot Leopoldo; Plaza & Janés ,Esplugues de Llobregat, Barcelona, 1986

Jerusalén: el tema literario de cerco y destrucción por los romanos, Linda de Malkiel María Rosa ; Buenos Aires 1973.

Jewish Travellers (1930) , Sir E. Denison Ross ; Hesperides Press, 2006

Jewish Travellers, Elkan Nathan Adler, Vol 12 Broadway travellers, Reimprinted by Routledge Curzon, 2005

Juan del Encina, Brother Austin, Revista Hispania, Vol 39, fas2, Mayo 1939

La conquista espiritual de México: ensayo sobre el apostolado y los métodos misioneros de las órdenes mendicantes en la Nueva España de 1523-1524 a 1572, Editorial Jus y Editorial Polis, México 1947

La Escala de Mahoma según la versión latina del siglo XIII de Buena Ventura de Siena, Prólogo de María Jesús Viguera Molin, ed.Siruela

La Escala de Mahoma. Traducción del árabe al castellano, latín y francés, ordenada por Alfonso X el Sabio. Edición, introducción y notas por José Muñoz Sendino. Madrid, Ministerio de Asuntos Exteriores, 1949

La imagen de Jerusalén en la pintura y escultura españolas de los siglos XV al XVII, Emilio Quintanilla; I CONGRESO INTERNACIONAL JERUSALÉN Y TOLEDO, «Historias de dos ciudades», Toledo, 11-13 de noviembre de 2009

La imagen del templo de Jerusalén en la Nueva España, Martha Fernández ; Volumen 52 de Colección de arte, UNAM, 2003

La Syndrome de Jerusalén , Leah Abramovitz, in *Jérusalem, ville ouverte*, Cahiers de Confluences, Régine Dhoquois, Shlomo Elbaz, George Hintlian ; Editions L'Harmattan, 1997

La Tierra Santa, o descripción exacta de Joppe, Nazareth, Belén, el Monte de los Olivos, Jerusalén y otros lugares célebres en el Evangelio. A lo que se agrega una noticia sobre otros sitios notables en la historia del pueblo hebreo, Carpio, Manuel ; edición Mariano Galván Rivera, Librería de Recio y Altamirano, 1842

La Tribagia y otras peregrinaciones a Tierra Santa, Baranda Nieves Associação Hispânica de Literatura Medieval, IV, 1993,Lisboa

Les orientalistes de l'école espagnole, Eduardo Dizy, Vol 12 Les Orientalistes , Caso ; acr-edition, 1997

Literatura e inquisición (1478-1834), A. Marquez, Madrid 1980

Los grabados del Viaje de la Tierra Santa (Zaragoza, 1498), Pedro Tena Tena ; Boletín del Museo e Instituto Camón Aznar, Nº 81, 2000

Managing sacred sites: service provision and visitor experience, Myra Shackley ; Thomson Learning EMEA, 2001

Medieval hymns and sequences, John Mason Neale, J. Masters, 1867

Missionari francescani: sintesi storica bio-bibliografica con sommario geografico-cronologico,(Número 5 de Cattedra Bernardiniana L'Aquila), Benedetto Fedele, segunda edición, Curia provinciale S. Bernardino, 1966

Nuevas glosas al poema ¡Ay, Jerusalem!, Pedro Tena Tena, en: *Medioevo y literatura : actas del V Congreso de la Asociación Hispánica de Literatura Medieval* (Granada 1993), coordinación. Juan Salvador Paredes Núñez, Vol. 4, 1995, PP: 383-388

Nuevos viajes extraordinarios, Vicente Quirarte, *Colección Agumarina Series*, Secretaría de Cultura Puebla, 2004

Obras en prosa, Bernardo Ortiz de Montellano ; Instituto de Investigaciones Filológicas, Universidad Nacional Autónoma de México, primera edición, 1988

Obras: Tomo I; Opusculos Varios, Jos Bernardo Couto ; Biblio Bazaar, LLC, 2009

Orientalismo desde el Sur, José Antonio González Alcantud;(Volumen 156 de Pensamiento crítico/pensamiento utópico), Anthropos Editorial, Consejería de Cultura, Sevilla, 2006

Paisajes de la tierra prometida: el viaje a Jerusalén de Don Fadrique Enriquez de Ribera marqués de Tarifa, Pedro García Martín ; Madrid, Miraguano 2001

Palestina , Sueños y Realidades crueles, Editorial Cervantes, Barcelona

Para una bibliografía crítica del estudio y ediciones de Flavio Josefo en España, Felipe Sen Gerión, N° 17 ; 1999

Poesía, Manuel Carpio ; Volumen 23 de Colección UV Rescate Series, edición Fernando Tola de Habich, Universidad Veracruzana, 1849

Relación nueva, verdadera y copiosa de los Sagrados lugares de Jerusalén y Tierra Santa, de las misericordias divinas que en ellos resplandecen, de los muchos trabajos y aflicciones que por conservarlos en piedad cristiana padecen los religiosos del seráfico padre San Francisco que los habitan y de los grandes gastos que tienen con los turcos. Fray Blas Buyza Madrid, Imprenta Real, 1622

Relatos de viajes y epístolas de peregrinos judíos a Jerusalén (1481-1523) , José Ramón Magdalena Nom de Déu Editorial: AUSA, Barcelona 1987

Revisitando las culturas del siglo de oro: mentalidades, tradiciones culturales, creaciones paraliterarias y literarias, Augustin Redondo, Volumen 314 de Acta Salmanticensia. Estudios Filológicos, Universidad de Salamanca, 2007

San Ignacio de Loyola, Obras, ediciones y estudios, Ignacio Iparraguirre, Madrid 1997

Sensaciones en Oriente, ó Impresiones bíblicas de un granadino en la Tierra santa, Domingo Arosemena Quesada, Nueva York, Imprenta de Robert Craighead, 1859

Sensaciones en Oriente, ó Impresiones bíblicas de un granadino en la Tierra santa, Domingo Arosemena Quesada, Nueva York, Imprenta de Robert Craighead, 1859

Sharing the sites : Medieval Jewish travellers to the Land of Israel, Elka Weber, in Eastward bound: travel and travellers, 1050-1550, edited by Rosamund Allen; Manchester University Press, 2004

Sheba: Through the Desert in Search of the Legendary Queen, Nicholas Clapp ; Houghton Mifflin Harcourt, 2002

Syndrome de Jerusalem, Leah Abramovitz, Revista Ariel, Vol II, 1996

The autobiography of St. Ignatius Loyola, with related documents, John C. Olin y Joseph F. O'Callaghan; Fordham Univ Press, 1992

The Jerusalem Syndrome ,the Wreck of the Sunset Limited, Anne Montgomery ; Authorhouse, 2004

The Jerusalem syndrome, my life as a reluctant Messiah, Marc Maron, Broadway Books, New York , 2001.

The Jerusalem Syndrome, Richard Marsden; Paragon Press Publishing,2001

The Jewish travellers in the twelfth century, Yosef Levanon ; University Press of America, 1980

Tierra Santa y el nuevo mundo durante el imperio otomano, Viaje a través de los testimonios de autores españoles, portugueses y latinoamericanos, Jaime Krejner, Margarita Wolmanj Krejner ; Argentina 2007

Tierra Santa y el nuevo mundo durante el imperio otomano, Viaje a través de los testimonios de autores españoles, portugueses y latinoamericanos, Jaime Krejner, Margarita Wolmanj Krejner ; Argentina 2007

Tierra Santa, Rómulo Cúneo Vidal ; Casa Editorial Maucci, Barcelona, 1924.

Viaggi di Ali Bey el-Abbassi in Africa ed in Asia dall'anno 1803 a tutto il 1807, Domingo Badia y Leblich, Tradotti dal Stefano Ticozzi. Con tavole in rame colorate, Raccolta de'viaggi, Vol. 29 , Tip. Sonzogno, Milano ;1816.

Viaggio in terra d'Israele, Masa' Meshulam mi-Volterah, Meshulam ben Menahem da Volterra, traduzione, introduzione, note e

appendice di Alessandra Veronese, Alessandra Veronese; Serie erranti -2, 1989, Luise Rimini

Viaje a Oriente, A. Rodríguez-Moñino *Analecta Sacra Tarraconensia* (1945)

Viaje a Oriente, Fray Antonio de Lisboa, edición A.Rodríguez Moñino, Diputación Provincial, Badajoz 1946

Viaje a Oriente, Fray Diego de Mérida, edición A.Rodríguez Moñino, Balmesiana, Barcelona 1946 .

Viaje a Oriente, Luis Malanco ; Agrícola Comercial, 1882 y 1883

Viaje a Palestina, Luis Reyes Blanc, Serie : Biblioteca Grandes viajeros, ediciones B, Barcelona, 1999

Viaje hacia el oriente, Inés Echeverría de Larrain, imprenta Universitaria, Santiago de Chile, 1905

Viaje por los paises biblicos.Excursión al través de la península Sinaítica, de la Arabia Petrea y Desierta de la Filistea y del pais de Moab, Mariano Delmiro Encarnación Soler, Tipografía . Uruguay de M. Martinez, Montevideo, 1897

Viajeros mexicanos siglos XIX y XX, compilado por Felipe Teixidor, Ediciones Letras de México, 1939

Viatjes de Ali Bey el Abbassi (Domingo Badia y Leblich) per África y Assia, durant los anys 1803, 1804, 1805, 1806 y 1807, Domingo Badia y Leblich ; Imprenta La Renaixensa, Barcelona, 1888.

Voyages d'Ali Bey El-Abbassi En Afrique et en Asie pendant les années 1803-1807, Tome III, P :167, Paris 1814.

الاستشراق، المعرفة، السلطة، الإنشاء، لإدوارد سعيد، ترجمة كمال أبو ديب، الطبعة الثانية 1984، مؤسسة الأبحاث العربية. بيروت.

طائفة المغاربة في القدس الشريف 492هـ - 922 هـ موافق 1099م - 1516م، أطروحة من إعداد عبد الرحمن محمد حامد المغربي بإشراف صديقنا المرحوم محمود عطا الله عميد كلية الآداب بجامعة النجاح و د. سيدة إسماعيل كاشف، جامعة عين شمس، كلية البنات، قسم التاريخ

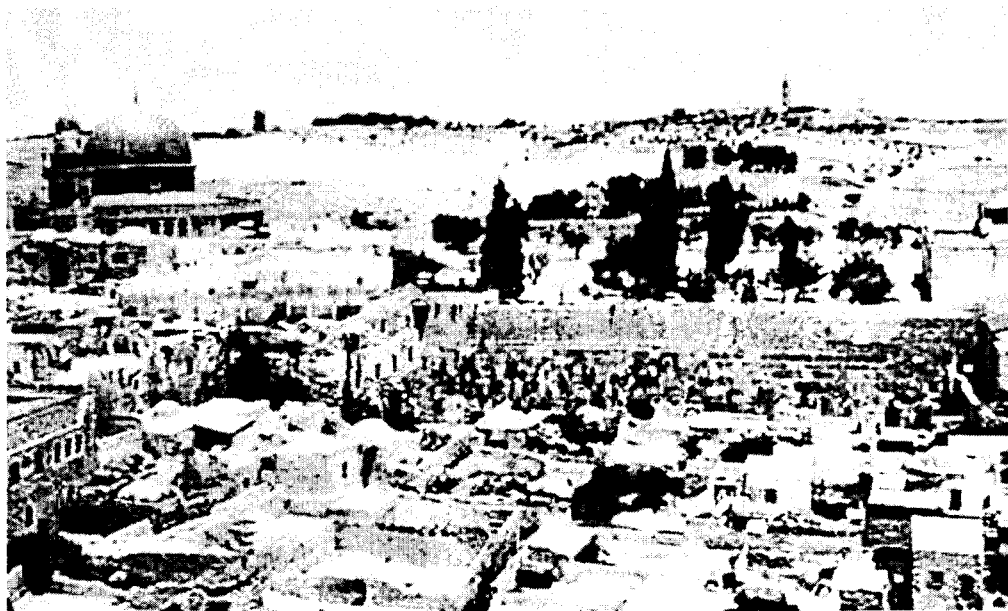
القدس والخليل في الرحلات المغربية، رحلة ابن عثمان نموذجاً، د. عبد الهادي التازي، منشورات المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة الإيسسكو، 1997

الكتاب المقدس، العهدين القديم والجديد، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط 1991.

المختصر في جغرافية القدس، روعي الخطيب، الطبعة الأولى، القدس 1923

سينדרوم يروشليم: כך קרסה המדיניות לאיחוד ירושלים 1967-2007، משה עמירב، כרמל، 2007

سينדרوم ירושלים، יהושוע סובול، אור-עם، 1987



حي المغاربة في القدس قبل هدمه في العاشر من حزيران 1967





3	مدخل
31	القدس شرق مختلف عن الشرق
37	داء القدس
54	القدس والأندلس
62	الصخرة وحدث الإسراء والمعراج
68	القدس والتحويلات
76	نصوص شاهدة
78	القدس كما رآها فرانسيسكو غريرو
100	القدس كما رآها دون ألفارو روبليدو - يوميات
116	حاج بالأرض المقدسة
140	القدس كما رآها غريغوريو أندريس إسبالا
	القدس كما رآها إميليو غوميث كاريو

160

القدس كما رآها مارتينث فراندو

190

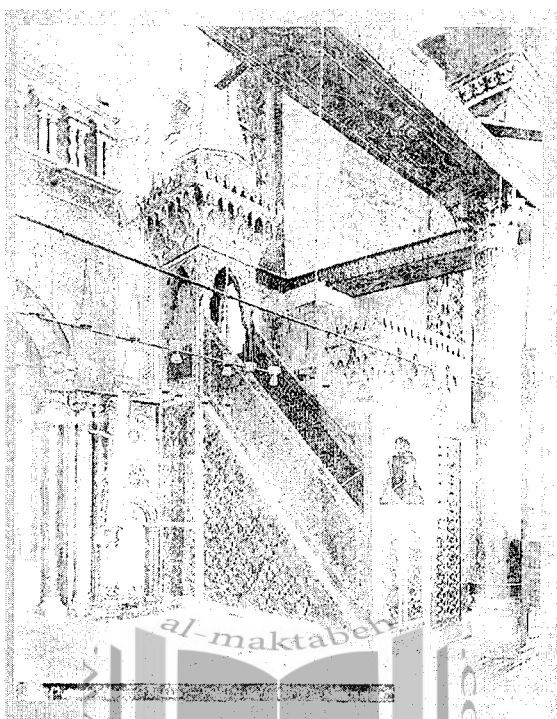
الوصول - الفريلي أنطونيو ديل كاستيو

194

القدس في رومانثية خوان دي إنشينا

204

ادر والمراجع



منبر صلاح الدين الأيوبي

مكتبة

المهتدين



دخلنا مسجد عمر، وكنا قبل ذلك نتفرس واجهته الخارجية لبعض الوقت، إنها مشمعة ومزينة بالفسيفساء وصفائح المرمر، وتعلوها بجلال قبة تنتهي بهلال إسلامي. إن مسجد عمر يختلف عن كل المساجد التي رأينا من قبل، إنه غاية في البساطة والجمال.

العمارة الإسلامية تخزن لنا دائما مفاجآت جديدة نكتشف من خلالها حسن ذوق ودعائم هذا الشعب. لقد تعودنا على الضوء الخافت في مسجد عمر بمجرد أن خطونا خطوات قليلة داخله، وبقيت الروح في تصاعد، واستمرت العيون في تسجيل كل الفضاءات مستكشفة التفاصيل الزخرفية الغنية. كانت أعمدة رومانية عظيمة بتيجان كورينثية مذهبة تحمل السطح المتقن. وتشير الأشياء الصغيرة مثل زخارف حواجز الحديد والزليج والرسومات الرخامية للنوافذ الانتباه في ذلك المسجد. لقد قامت الروح الحساسة لهذا الشعب بمواءمة الألوان. وفاجأتنا القبة بتفاصيلها الدقيقة فلا شيء يفوقها. وانضاف إلى كل ذلك جو من السلام نقلنا إلى ما يشبه القصور البديعة لشهرزاد. (الرحالة مارتينيث فرانكو)

